اعلام العرب

١٠٩

إسماعيل صبري باشا
شيخ الشعراء

نجيب توفيق



هذا الكتاب

يتضمن تاريخ الشاعر الوطنى والقاضى النزيه إسماعيل صبرى ، أحد أقطاب المدرسة التقليدية للشعر العربى الحديث ، التى قامت بزعامة الشاعر محمود سامى البارودى . وقد غمرت الأحداث تاريخه وآثاره الأدبية فكان لزاما أن تظفر المكتبة العربية بسفر يحوى حياته وآثاره الأدبية والاجتماعية ، لتعريف الجيل الحاضر له .

وقد امتاز إسماعيل صبرى بأنه الشاعر الوطنى الذى آزر الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل ، ولم يحل منصبه القضائى الكبير ـ وكيل وزارة الحقانية ـ أن يؤيده علانية ويدعو إليه ويشيد بذكره ، لازمه منذ ظهور بواعث الوطنية الأولى حتى غدا نجما ساطعا فى سماء الجهاد السياسى الوطنى .

وقد أثرى إسماعيل صبرى الشعر العربى الحديث بنفحاته الخالدة فى ميادين الوطنية والغزل والشعر الصوفى . كما أسهم بنشاطه فى الميادين الاجتماعية والأدبية والوطنية فى عصره .

١٣٥ قرشـــا
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

اعـــلام العرب

١٠٩

إسماعيل صبري باشا

شيخ الشعراء

حياته وأثره في الأدب وفي عصره

١٨٥٤ - ١٩٢٣

بقلم

نجيب توفيق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

مقدمة

في هذا الكتاب نرجع الى عهد مضى ، من أزخر العهود الأدبية في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى قبيل سنة ١٩١٩ ، ذلك العهد الذى كان يعج بكثير من الشعراء والأدباء وعلى رأسهم شاعرنا اسماعيل صبرى ، أحد فرسان الشعر الحديث الخمسة الذين اضطلعوا بارساء قواعده ، واقامة دعائمه وهم محمود سامى البارودى وأحمد شوقى وخليل مطران وحافظ ابراهيم وسوف نعيش معه متأملين حياته المليئة بالمواقف المشرفة التى لم تشرف صاحبها فحسب بل شرفت تاريخ الأمة العربية بأسرها .

والغرض من هذا الكتاب استكمال النقص بالمكتبة العربية التى لا تضم سفرا كاملا عن حياة هذا الشاعر الكبير ، وما أداه للشعر وللمجتمع العربى الذى عاصره حيث أن زملاءه الأربعة قد شاع ذكرهم والمكتبة العربية حافلة بالعديد من الكتب عن حياة وآثار كل منهم ، فقد تناولها كثير من الأدباء والكتاب فى شتى أنحاء الوطن العربى وحتى الوطن المهجرى ، أما شخصية اسماعيل صبرى فكادت أن تغمرها الأحداث ، ولولا نبذ بسيطة عنه ، تأتى عرضا فى

ما تنشره الكتب المدرسية عن بعض أشعاره لنسيناه نسيانا تاما ، لذلك كان لزاما على المهتمين بقضايا الشعر الحديث أن يعرضوا على الملأ بحثا تفصيليا عنه ، لينال حقه من التعريف به وبآثاره ٠

ولم يكن اسماعيل صبرى محتفلا بجمع شعره ابان حياته ، حتى لقد ضاع الكثير منه ولم تجمع أشعاره الا بعد مماته بأكثر من عشر سنوات ، وربما نسبت بعض أشعاره الى غيره من الشعراء ، كما لم يكن شاعرا متفرغا للشعر كلفا به ، يعانى فى سبيله المشاق ويود ان يكون مبرزا ومتفوقا على غيره فيه ، (وقد يكون عمله فى سلك القضاء ، حيث قد وصل فيه الى أعلى المناصب سببا لذلك) ـ بل كان الشعر عنده نوعا من أنواع الترف الأدبى يقضى فيـــه أوقات فراغه لا سيما وقد كان من طبقة أرستوقراطية لها تقاليدها الخاصة ونظرتها الخاصة لأمور الحياة ، ورغم ذلك فقد أدمن قراءة شعر الأقدمين وكان حفيا ومقدرا لشعر المعاصرين ٠ حتى لقد جعل من قصره منتدى أدبيا وسوقا للشعر يعرض فيه الشعراء الناشئون ما جادت به قرائحهم ، وأخصبت به مواهبهم ، وأثرى به معينهم، حتى لقد كان الشاعر منهم يرى فى انشاد شعره فى هذا الصالون أمام العلية من القوم وعلى مسمع منهم ؛ جائزة وأى جائزة ، تساوى ما بذل من جهد وعانى من نصب فى صياغة شعره ٠

ولا عجب بعد ذلك ، اذا قرأنا فى البحوث التى تناولت تلك الحقبة بالدراسة أنه كان يلقب « بشيخ الشعراء » حينا وامامهم حينا آخر ، ولم يكن ذلك لتفوقه فى مضمار الشعر عنهم ولا بوصوله شأوا فى ميدان القريض دونهم ، ولكن باعتبار مركزه الأدبى ولقبه الرفيع ومستواه الاجتماعى الممتاز وقد اعترف له الشعراء جميعـــا بالصدارة ، لمـا أغدقه عليهم من تشجيع ، وأولاهم من تكريم ومـد لهم من أيادى كانت كفيلة أن تشحذ ملكاتهم وتبرز أغلى ما يكمن أن تجود به قرائحهم ، ولذلك قلنا أن اسماعيل صبرى ولو أنه لم يكن

من أعاظم الشعراء ، ولكن كان ذا أثر خطير فى الشعر المعاصر بصفة عامـــة ·

ولا يضير اسماعيل صبرى أن كان مقلا فى شعره وقصير النفس فى قصائده ، ومقلدا أكثر منه مبتكرا فحسبه أنه كان شاعرا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؟؟ أجاد فى ميادين الوطنية والغزل والشعر الفلسفى وقصر فيما دون ذلك ···

ولن ينسى التاريخ القومى اسماعيل صبرى كشاعر من شعراء الوطنية ، وصاحب صولات مشرفة فى مجال الانشاء القومى فيمـــا سمح به مركزه القضـــائى الدقيق ، وصاحب دعوات مشرفة لنهضة بلاده ، وكان أخا أكبر، وعنصرا متينا للزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل ، جاهر بحبه له واعتناقه مبادئه رغم منصبة الحكومى الخطير ، ولمـا مات الزعيم فى ريعان شبابه ، كان على رأس الهيئة الموكلـــة لانشاء أول تمثال يقيمه الشعب المصرى منذ آلاف السنين تخليدا لذكرى مجاهد مخلص من بنيه ·

ويعد اسماعيل صبرى من الشعراء القلائل الذين كانت لهم مواقف فذة ، فى موكب التقدم الاجتماعى والوطنى فى البلاد ، وأحد الرجالات الذين أسهموا فى دعم الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة (مسلمين ومسيحيين) وساندوا المصلح الاجتماعى قاسم أمين فى دعوته الجريئة لتحرير المرأة ·

وقد أرسى بذلك أقوى دعائم التقدم والنهوض بالمجتمع المصرى الحديث ·

نجيب توفيق

الباب الأول

حياة اسماعيل صبرى

- الشعر ، نشأته وتطوره
- بعض المذاهب الغربية فى فهم الشعر
- الشعر العربى فى العهد الحديث
- حالة الشعر بعد البارودى
- عصر اسماعيل صبرى

  الحركة السياسية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر

  التطور الاجتماعى فى مصر فى عهد الشاعر
- تاريخ حياة الشاعر

  المراثى التى قيلت فى ذكراه
- فنه الشعرى

الشعر نشأته وتطوره

ينقسم الأدب الى شعر ونثر ، والشعر من أقدم ضروب الأدب جميعا ، وليس معنى هذا أن أول كلام نطق به الانسان كان شعرا ، بل معناه أن أقدم الآثار الأدبية التي خلفها الانسان هي الشعر وأما الأدب المنثور فهو أحدث من الشعر كثيرا .

فاذا تأملنا تاريخ الأدب في أمة من الأمم رأينا أن الشعر سابق لسائر الفنون الأدبية فعند اليونان كانت قصائد « هوميروس » تنشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فني .

وفي الأدب العربي نرى الشعر قبل الاسلام ينشد في المجامع والمحافل ، وتتداوله الرواة وتتناقله الأفواه ، وله في الحياة الاجتماعية آثار واضحة قوية ، ثم نبحث عن النثر الجاهلي نفسه فلا نكاد نجد له أثرا ، فاذا أمعنا في البحث ، ألفينا نتفا من سجع الكهنة والحكماء يشك كثيرا في صحة نسبتها اليهم ، ثم هي ـ فوق ذلك ـ ليست بالأثر الأدبي الخطير .

ونضرب مثلا ثالثا بأدب حديث ، وليكن الأدب الانجليزي ، فاننا نرى أقدم الآثار الأدبية عند الانجليز القدماء ، القصائد التي تصف أعمال بيولف (Beowlf) وهي ترجع الى القرن السادس أو السابع الميلاد ، وعند الانجليز المحدثين (أي بعد

الفتح النورمندى) نرى أجل الآثار الأدبية قصائد الشاعر تشوسر (Chaucer) الذى عاش فى القرن الرابع عشر وهى القصائد المسماه قصص كنتربرى (Canterbury Tales) ولا تزال من الآثار الخالدة فى الأدب الانجليزى ٠

ونحن نرى من هذه الأمثلة ، التى تمثل العصور التاريخية الثلاثة : القديم ـ المتوسط ـ الحديث ـ سبق الشعر للنثر ـ وقد يبدو هذا غريبا لأول وهله ـ ظاهرة واضحة كل الوضوح ، وأن الأمم ظلت زمنا طويلا تتمتع بأدب الشعر قبل أن ينشأ فيها أدب النثر ٠

ومن تمام هذه الظاهرة أننا نرى كثرة الشعراء فى العهد الأول لأدب أمة من الأمم وزيادتهم زيادة بينة على كتاب النثر ، ففى صدر الاسلام مثلا نجد الى جانب جرير والفرزدق والأخطل كثيرا من الشعراء المعاصرين لهم ، على حين لا نرى كتابا كثيرين فى ذلك العصر ، وكذلك اذا عددنا الشعراء فى عصر شكسبير ألفيناهم يربون كثيرا على كتاب النثر ، فالى جانب شكسبير أدمند سبنسر مؤلف ملكة الجن وكرستوف مارلو مؤلف المسرحيات الشعرية وبن جونسون الشاعر الثائر وبومنت وفلتشر والى جانب هؤلاء عدد كبير من الغنائيين وأما كتاب النثر الفنى فعددهم قليل ، ولعل أشهرهم فرنسيس بيكون الذى كان جل كتابته (باللاتينية) ٠

ومن أقوى الأسباب التى قدمت نشأة الشعر على النثر ، أن الأدب المنثور يتطلب معرفة بالكتابة ، والكتابة اختراع متأخر فى تاريخ كل أمة ، فقصائد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل أن تذيع الكتابة ٠

وكذلك روى الرواة الشعر العربى القديم قبل أن تشيع الكتابة العربية ، ومنشىء الأدب المنثور لابد له من تدوين ما يخطر له ،

ورواية الكلام المنثور شفاها ليست بالشيء المستحيل ولكنها أمر لا يمكن الاعتماد عليه · وفي آداب الأمم كثير من الآثار الشعرية التي وصلت الينا بالرواية وبعضها لا يعرف ناظمه ، ومعظم الشعر الجاهلي بل بعض الشعر في صدر الاسلام ظل يروى زمنا طويلا قبل أن يدون ، وأشعار اليونان في عهدهم الأول كانت أيضا تروى وتنشر ولا تكتب ، والقصائد الجرمانية المسماه (Nibelungen) التي تسرد أعمال بعض الأبطال الجرمانيين القدماء وصلت الينا بالرواية أيضا ·

فان كان الشعر أول مظهر للأدب في كل أمة ، فلابد لنا أن نعتبره الأساس الذي بني عليه الأدب كله منظومه ومنثوره ، على مدى العصور ، ومن الأمم من تقدم شعرها وسما سموا عظيما ومع ذلك ظل نثرها ضعيفا قليل الخطر اذا قورن الى شعرها ، والأدب الفارسي من الأمثلة الواضحة في هذا بل في الأدب العربي نفسه نجد أن الشعراء عامة أجل خطرا من الكتاب ، ومن الجائز أيضا أن يوجد الشعر والنثر وكلاهما في حالة تقدم وقوة ·

على أننا نجد أصل الأدب كله في تلك الأشعار ، التي كان يتغني بها قديما في تمجيد الأبطال أو في الاعراب عن العواطف ، أو ترتيل صلاة أو دعاء ، من هذه النواة الصغيرة نمت دوحة الأدب الهائلة وطالت فروعها وأغصانها ·

لماذا قيل الشعر : ؟

الشعر اذن قديم في حياة المجتمع البشري ، وقد نطق به الانسان وهو في حالة الفطرة ولهذا نرى في الأشعار الأولى مسحة من السذاجة ، تختلف كثيرا عما نراه في العهود التالية ، حين تعقدت مظاهر الحياة وأخذ المنطق سبيله الى العقول ·

لماذا ـ اذن ـ نطق الانسان بالشعر وهو لا يزال فى عهد الفطرة والحياة خالية من كل تعقيد ؟ لقد كان الانسان فى ذلك العهد ـ الذى نسميه الأدب الجاهلى يتحدث فى مختلف شئونه بكلمات منثورة معتادة ، لا تختلف كثيرا عما يتحدث به عامة الناس الذين يعيشون عيشة أدنى الى الفطرة فى زمننا هذا • فلماذا اذن خرج عن طورة المألوف ونطق بعبارة لها صيغة وشكل غير مألوف ؟

السبب فى هذا يرجع الى أن الانسان حين نطق الشعر كان متأثرا تأثرا خاصا بأمر من الأمور التى ليست من شئون الحياة المألوفة ، والتى من شأنها أن تؤثر فى النفس أثرا قويا ممتازا عن كل احساس أو تأثر آخر ولهذا عبر عنها بعبارة غير مألوفة أيضا تظهر فيها قوة التأثر الذى بعثها •

ومن العبث أن نتساءل هل كان للناس فى عهدهم الأول غرض خاص للنطق بالشعر ، فان وجود الغرض المرسوم يتنافى مع مظهر الفطرة ، والحقيقة أن الناس نطقوا بالشعر فى أول الأمر دون أن يتكلفوا الشعر تكلفا أو يحتفلوا له احتفالا أو يستعدوا للنطق به وانما انبعث الكلام بالشعر حين تهيأت الظروف التى دعت اليه •

والظروف التى يجوز أن تكون قد استفزت الانسان فى عهد الفطرة كثيرة وقد لا تكون فى جوهرها مختلفة كثيرا عن الظروف التى ينظم فيها الشعراء فى عصرنا هذا •

وأقدم القصائد التى وصلت الينا ـ فى أدب كثير من الأمم ـ قصائد تسرد قصص الأبطال وأعمالهم المجيدة • وهذا الضرب من الموضوعات كان له شأن خطير فى ذلك العهد وليس من الضرورى أن تكون هذه الموضوعات هى أول شىء نظم فيه الشعر • بل من الجائز أن يسبقها أناشيد فى موضوعات شتى من حب أو شوق أو فخر أو رثاء ، أو مظهر من مظاهر الطبيعة ، وأناشيد تعبر عن احساس

دينى ، ولكن قصص الأبطال المنظومة أسهل فى التداول والرواية ، وربما كان هذا من أهم الأسباب فى حفظها وعدم اندثارها الى أن جاء الوقت الذى دونت فيه وكتبت ٠

على كل حال تأثر الانسان لأمر ما تأثرا خاصا ، استفزه الى النطق بكلام خاص ، غير كلامه المألوف ، ثم جعل ينشد هذا الكلام الخاص لغيره ليتأثر به أصحابه كما تأثر ، لأن من خلق الانسان أن يرغب فى أن يشاركه غيره فيما يحسه ويتأثر به وهذا ما يعبر عنه علماء النفس بالمشاركة الوجدانية ٠

وقد وجد الناس لهذا الكلام الخاص لذة وطربا يرفعه عن مستوى الكلام المعتاد ، فأخذوا يتناقلونه ويتداولونه ٠

واذا أردنا ان نبحث الصفات التى ميزت هذا الكلام عن سواه، فاننا مضطرون لأن نلجأ الى ما بأيدينا اليوم من أشعار ، اذ ليس لدينا أشعار فى أية لغة من اللغات نستطيع ان نقول عنها ، بشىء من التأكيد ــ ان هذه أول أشعار قيلت فى هذا اللسان أو ذاك ــ فان الاشعار القديمة التى بقيت لنا من أدب أية أمة هى أشياء ناضجة ، وقد سبقها من غير شك عهد نمو وتطور ، لا نستطيع ان نقطع برأى فى الخطوات التى خطاها الشعر فيه حتى اتخذ صورته الكاملة الناضجة ٠

ومع جهلنا بأطوار الشعر الأول في تاريخ آداب الأمم المعروفة ، نستطيع أن نفترض أن خصائص الشعر الأساسية كانت موجودة ولو الى حد ما ، حتى فى أقدم الاشعار ، **وهذه الخصائص هى :**

أولا : ان الأشعار كانت دائما تعبر عن احساسات قوية وتأثرات عميقة ٠

ثانيا : ان الألفاظ المستخدمة فى الشعر منتقاة ٠

ثالثا : ان الألفاظ مرتبة ترتيبا موسيقيا خاصا ، وهذا ما يعبر عنه بالوزن •

رابعا : ان الشعر العربى التزمت فيه قيود لفظية خاصة وهى القافية ولا ريب انها قديمة جدا •

علاقة الشعر بالغناء :

كان هنالك دائما ارتباطا شديد بين الشعر والغناء ، ومن المشاهد ان الغناء شيء مألوف عند جميع الشعوب مهما بعدت المسافة وانقطعت الصلات بينهم ، ومهما كان نصيبهم من الحضارة أو البداوة ، وأيا كانت حالتهم الاقتصادية والاجتماعية ، ولا يعرف على وجه الأرض شعب يجهل الغناء ، لهذا لا مفر لنا من أن نحكم بأن الغناء ظاهرة فطرية فى الانسان ، شأنه كشأن سائر الاعمال التى يصدر فيها الانسان عن الغريزة والميول الفطرية ، لا فرق فى هذا بين متقدم ومتأخر وقديم وحديث ومتمدين ومتوحش •

ولئن كان الانسان قد لجأ الى الغناء عن غريزة وميل فطرى فليس من الضرورى ولا من المهم أن نتساءل عن الأسباب التى دفعته الى هذا العمل ، وانما نستطيع أن نقرر أن الظروف التى كانت تتطلب الغناء مشابهة جدا للظروف التى كانت تتطلب التطور بالشعر والصلة شديدة جدا بين الاثنين، فالشعر يشتمل على موسيقى الألفاظ والغناء يشتمل على موسيقى الألحان ، ومن الجائز أن يتغنى الانسان بالكلام المنثور ولكنه لن يلبث حتى يبدو له أن الكلام الموزون أليق بالغناء وألصق ، لأن الجمع بين الشعر والغناء الى درجة عدم التفرق بينهما أمر ظاهر فى أقوال الأدباء وكتاباتهم ، حتى فى الأزمنة التى كان فيها الشعر ينشد لنفسه دون أن يتغنى به ، **فالمتنبى يخاطب سيف الدولة ويقول له :**

اجزنى اذا أنشدت شعرا فانما بشعرى أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى فاننى أنا الطائر المحكى والآخر الصدى
وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغنى مغردا

فنحن نرى فى هذه القطعة كيف يمزج الشاعر بين القاء الشعر والتغنى به وبين أنه شاعر وأنه طائر غرد ·

وليس من شك فى أن كثيرا من الشعراء القدماء كانوا يتغنون بشعرهم وهوميروس الذى تنسب اليه الالياذة لم يكن يلقى أشعاره القاء بل كان يتغنى بما يحفظه من قصص الأبطال ، أى أنه كان شاعرا بالمعنى العصرى المعروف ·

ونحن لا نستطيع أن نقطع كيف كان العرب فى الزمن الجاهلى يلقون أشعارهم وهل كانوا يلقونها القاء معتادا ، أو فى صورة غناء· ولكن الارجح أن الأشعار كانت تلقى على كلا الوجهين حسب مقتضيات الظروف ، واستعداد الشاعر أو الراوى ومن المشهور أن شعر الأعشى كان يتغنى به ·

تطور الشعر :

بعد أن انتقل الناس من عهد الفطرة الى عهد الحضارة ، وأخذت مظاهر الحياة تتعدد وتتعقد ، لم يكن بد من أن يظهر أثر هذا فى الشعر ، وأن ينتقل هو أيضا من طور الى طور ، ونحن نلاحظ فى تطور الشعر الاتجاهات الآتية :

أولا : بعد أن أخذ الناس يتقدمون فى طرق الحضارة ، أصبح الشعر فنا مقصودا متعمدا وأصبح الذين يمارسونه طائفة من الفنانين ، ممتازين عن سواهم من الناس ، وبالرغم من انهم كانوا

ينطقون بالشعر عن هيئة فطرية ، وسليقة مغروسة فى نفوسهم، فانهم مع هذا كانوا يتعمدون الاتقان والابتكار ،ويتنافسون فيفنهم هذا ، **ومن الغريب أننا نسمع حتى فى العصر الجاهلى شاعرا مثـــل عنترة يقول :**

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

كأنما الشعراء ــ حتى فى زمن الجاهلية ــ قد ألموا بكثير من نواحى القريض وقلبوا الكلام على وجوهه بقدر ما اتسع له أفقهم وبيئتهم •

ثانيا : بعد أن أصبح الشعر مستقلا ، له سننه وطرائقه ، وله قيوده التى لا ينبغى للشاعر مهما اخترع وابتدع أن ينقضها ويخرج عليها ، نرى أن الشعر لم يكد يحس لنفسه وجــودا مستقلا حتى انفصل عن الغناء وأصبح له مكانه الخاص • فان التغنى بالأشعار كان معناه الجمع بين فنين مختلفين ، الأول فن تأليف الكلام والثانى فن تلحين الألحان ، ولئن جــاز فى العهـــود الأولى الجمـــع بين الصناعتين ، كما كان الرجل يجمع بين الحرفتين فان طبيعة التقدم قضت باقتسام العمل ، وانفراد بعض النـــاس بالتأليف الشعرى والآخر بالتلحين ، وأصبح الشعراء طائفة من الناس ورجال التأليف الموسيقى طائفة أخرى •

ثالثا : وبعد أن انفصل الشعر تماما عن الغناء ، أخذ الشعراء يعنون بتأليف اشعارهم عناية خاصة ، واهتموا بأن يكون للشعر موسيقاه الخاصة ، وهى موسيقى قائمة على حسن وقع الألفاظ فى السمع ، من غير استعانة بآلات وألحان • وفى العهـــد الأول كان الكلام الركيك قد يحسنه التلحين البارع ، فأما وقد حرم هـــذا الثوب الجميل واضطر الى الانفراد بنفســـه ، فلم يكن بد من أن يسمو ويجمل بنفسه لكى يعوض ما فاته من جمال الألحان •

رابعا : وكذلك أخذ الشعراء يسلكون بأشعارهم طرقا جديدة ، فالى جانب الشعر الذى يصلح للغناء ـ وهو ما يطلق عليه اليـــوم الشعر الغنائى ـ وجدت هناك أنواع جـــديدة تتناول موضوعات خاصة من حكمة ،وهزل ووصف وفلسفة ، وشعر مسرحي وغير هذا من الأنواع التى يمكن أن ينعم بها الانسان لذاتها ، من غير الاستعانة بألحان ونغمات موسيقية .•

والخلاصة أن الشعر من حيث هو فن مستقل أخذ يتطور فى اتجـــاهين مختلفين : الأول فى بنيته من حيث الأوزان والقوافى ، والمحسنات اللفظية والصيغ الشعرية الخاصة والاتجاه الثانى هـــو فى الموضوعات وتنويعها بحيث تتنـــاول كل ما اتسع له الافق الشعرى الذى يوشك ألا تكون له حدود •

بعض المذاهب الغربية فى فهم الشعر

أراد الناقد الفرنسى Thierry Moulinier تيرى مولينيه أن يصور يوما الشعر الفرنسى كله فى الصورة التى يجب أن يظل فى اطارها ، فجمع أشتاتا من الأبيات والمقطوعات والقصائد لكثير من الشعراء الفرنسيين منذ أقدم العصور حتى الآن ، وأخرج كتابا يضم دراساته فيها سماه « المدخل الى الشعر الفرنسى »
Introduction à là poisie Francaise

ويرى مولينيه فى هذا الكتاب أن الشعر يأبى أن يدخل فى حدود التعريف لأنه يأبى الا أن يكون جوهرا ، ولأن هذا الجوهر يستمد وجوده من صميم الأشياء التى لا توصف ، وكل توضيح للشـــعر يقتل الشـــعر ، يقتله بمنطق العقل ، ويقتله بالحبس بين جدران الألفاظ ويقتله بالنأى عن مداه الحيوى ، ولعل الشعر من بين جميع ما يمد العقل اليه يده باللمس والدرس ــ أكثر الأعراض نفورا منه وبعدا عنه ــ وهو يفلت من بين أنامل العقل كما تفلت الحياة من بين أنامل التحليل الكيماوى ·

ومع أن الشعر يتمثل لك سويا قويا فى أكبر الآثار العقلية ، فانه ليبدو روحها أو مصدرها تارة ، ونداها الرطب تارة أخرى ،

حقيقة سيالة متمردة بأكثر مما تكون الأخيلة والأشباح من السيولة والتمرد .

وهي ترفض اللغة التي تريد أن تقنصها رفضا قد يصل الى درجة التعالي والتجاوز والاستشراف ولعل اللغة ـ اذ تحاول القبض على الشعر انما تطفيء نوره ، وتخنق روحه ، وتجمد رعشته واذا بدأ أن الشعر ليس الا مظهرا من مظاهر الثراء في اللغة أو قوة من قواها الخاصة ، فان اللغة لا تستجيب له الا بالتفوق على طبيعتها والاستزادة من الحياة النابضة .

وملاحظة مولينيه هذه صحيحة جدا ، فانظر الى لفظ من الألفاظ يحدد معناه المعجم أو تعبث به الألسن ، تجده لجموده لا يسفر في ذاته عن شيء كثير ، لا سيما ما يتصل بالمعاني النفسية كما تعتلج طي الصدور ، وما تقوى هذه اللفظة الجامدة المبتسرة الا اذا انتظمت مع غيرها من الألفاظ وفق جرس موسيقى ، أو وقعت في مكانها من الجملة ، أو ارتسمت في بعض الصور والظلال فكأنما هي تسمو على نفسها حين تصير كلاما منظوما

فهذه لفظة « هواء » تسمعها هكذا على انفراد ، فتتصور ضربا من الريح على نحو خاص ، كما تتصور شيئا جامدا ، لا تفيض فيه الحياة ، **فاذا قرأت قول شوقي :**

فاتقوا الله في قلوب العـــذارى   فالعذارى قلوبهن هـــــواء

تمثلت موكبا من العواطف الناعمة الخفيفة البريئة ، تزخر كلها وتزدحم في شفافية رائعة محببة ، فتلك هي الكلمة التي تفوقت بالشعر على طبيعتها ، واستزادت من الحياة كما قال مولينيه .

ويقول مولينيه أيضا :

« أن الباحث في الشعر سوف يبتعد عن غايته التي ينشدها كلما حاول أن يحد الشعر في تعريف شامل واسع ، فاذا مهمته تغدو عبثا لا خير فيه ، وجهدا لا فائدة منه ، واذا القصد من الدراسة يستطيل ويتمدد ، ليضيع آخر الأمر في خضم التوسع والشمول ٠

ولو أنك حاولت أن تظفر بأعم الخصـــائص للشعر العربي لوجدت نفسك أمام عمل فيه النصب والمشقة مع ضآلة الجدوى ، وتبقى بعد ذلك المشكلة قائمة ، وهي أن تعرف كيف يتمثل الشعر قائما واضحا في لفظة لشوقي أو أبيـات لاسماعيل صبري ، أو قصيدة لحافظ ٠ والظاهر أن المشكلة ليست على قرب من مواقع الحل أو ليست على استعداد لأن تحل ٠ فمادام الشعر قوة « أخرى » من قوى الكلام يتسامى بطبيعته على التوضيح والتحليل ، فليس من الممكن ولا من المستطاع أن يسمح لنا باختزاله وتركيزه في تعابير من الكلام الواضح والتعريف الجامع ، والعجيب من أمر الصلة التي تربط الشعر بالشاعر ، أنها تلائم أنقى وأخلد أشكال اللغة التي انتظمت في سياق القصيدة ، فظفرت بالقوة التي تزيد من قوتها ، وتلك مطابقة في الوجـود بين النشـاط الداخلي الخصب والبيان المنعقد الى درجة يبقى معها منعقدا بالعدد والأوزان ، حتى في المواضع التي تنعدم فيها معاني الألفاظ ، ومن أجل هذا رأى بعض النقاد أن الشاعر لا يبدع في حقيقة الأمر الا البيان ، وذلك لأنه يخترق حدود اللغة المرسومة ، ثم يضطرها بوسائل خاصة الى أن تحمل في ذاتها هذا الجانب الساحر الذي لا يوصف من الحياة ٠

واذا كان البيان هو موضع الابداع عند الشـــاعر ، فأنت تستطيع أن تطلع على أقوى صورة من هذا البيان في قصيدة « دمعة

«ابتسامة» لشوقي ، وقد نظمها في عودة أم المحسنين الى مصر ، وتعزيتها في حفيدها الأمير عبد القادر ومطلع القصيدة :

ارفعى الستر وحيى بالجـــبين وأرينا فلق الصبـــح المبـــين

ومنها هذا البيت الخالد الذى يلخص الحياة والناس فى أدق ما لهما من الخصائص وأعنى الألم :

انما الدنيـــا شـجون تلتقـــى وحزين يتأســـى بحـــزين

ونستطيع أيضا أن نطلع على صورة أخرى قوية من البيان فى رثاء حافظ ابراهيم للزعيم مصطفى كامل :

انى أرى ـ وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبار والعظـــم

ارى جلالا ، ارى نورا ، ارى ملكا
أرى محيـــا يحيينا ويبتســـــم

الله أكبر هـــذا الوجـــه أعرفـــه
هذا فتى النيل ، هذا المفرد العلم

غضـــوا العيون وحيوه تحيتــــه
من القلوب اذا لم تسعد الكلـــم

فهنا الابداع واضـــح فى وصف (الجانب السـاحر الذى لا يوصف) من حياة الزعيم مصطفى كامل ، وهو العظمة وأثر هذه العظمة فى نفوس الجماهير ـ ونفس حافظ منها فى الصميم . وهنا أيضا تأتلف الألفاظ الفخمة التى تمتلىء بها الفم ، وتنفرج لها الشفاة فيكون من ائتلافها المنغوم هذا البيان الرائع الجزل الذى عرف به حافظ ، والذى يصور شخص الزعيم واعجاب الشاعر به

وحزنه الشديد لوفاته · وعندي أن الأبيات من أوابد الشعر العربي في العصر الحديث ·

ولا يعني مولينيه بالبيان هنا التسلسل على نغم موقع من الجرس اللفظي فحسب ، بل ضربا من سحر الكلام ، أو مفتاحا من ذهب يفتح لكل انسان مغاليق عالمه الذاتي الممتنع ، كأنما البيان سبيل الى أن يتدسس المرء الى أخفى ألغاز شخصيته ، وقد قال بهذا بول فاليري كما قال بهذا جان دي ولاكروا ·

ثم ها هو ذا مولينيه يصل الى تعريف للشعر جميل ، هو أنه : وجه من أخصب وجوه البيان وليلة ذات ألف ميلاد وألف صباح ، ومظهر رفيع لا ضريع له · فالشعر هو الصفاء المفعم بشتى امكانيات التكييف ، أو هو العدسة البلورية التي يجد فيها كل انسان على نحو ما وجها كان يجهله من نفسه ، أو قل هو الماس الذي يضيء به الواحد منا أنجمه الخابية وكذلك يولد الشعر في النفوس بحيوات مختلفة أو تولد نفوس الناس فيه بحيوات مختلفة ·

واذا كان تعريف الشعر على هذا النحو صحيحا وجميلا ، فان مولينيه ليحذر قراءه بعد ذلك من أن يدخل بهم هذا التعريف في القضية « الكلاسيكية » المعروفة بقضية (المبنى والمعنى) فما تعرف عملية الابداع الشعري الا قضية واحدة ، ليست هي قضية المبنى والمعنى ، ولا هي قضية التزاوج بين المبنى والمعنى وانما هي قضية اللغة ·

فالأثر الفني اذا تولد في ذهن خالقه ، فانما يتولد أول الأمر كمبنى فحسب ، الا أن هذا المبنى من الأصالة والعفوية والابتدائية

بحيث يجب أن يتناوله صاحبه بالعمل والتنقيح والاصلاح ، ليتركه بعد ذلك متمكنا من نفسه ، فليست بداية الفنان منبثقة من مادة من هذه المواد التى لا تنتهى ، والتى يستمد منها صوره وأخيلته انما بدايته من مخطط مؤقت ، لا ينسحب عليه الزمان الا ريثما يستحيل الى حياة تامة الأجزاء ، مكتملة التكوين .

ويسوقنا هذا الكلام الى أن لا نرى فى الجهد المنصب على الأسلوب وسيلة لاشادة الأثر الفنى فوق مادته ، بل وسيلة لوضع ما يجب أن يوضع داخل الأثر الفنى . وينشأ عن هذه أن الشكل الذى لا خطر له لا جمال فيه ، وأن الأثر من الآثار كلما زخر بالأسلوب زخر بالمعنى وذلك لأن عملية الأسلوب ليست الا العملية التى تثقل متن اللغة بالمعانى . واذا كان ذلك صحيحا ، فمن التخليط الواضح هذه الأسطورة التى يتحلونها الرومانطيقيون وهى عفوية الوحى .. فليس من عفوى فى فن الشعر غير الكلام !!

ولقد كان اسماعيل صبرى معنيا بحسن الصياغة وتقليب البيان على وجوهه ، ومعنيا باللفظة باعتبارها أداة تصوير ، وباللغة باعتبارها مظهرا للحس ، وبالموسيقى باعتبارها جوا للفكرة فالشكل عند الشاعر سبيل الى الجمال الفنى ، وليس غاية فى ذاته ، ولا هو منتهى ما يصل اليه ، فهو يؤمن بقول مولينيه : **أن الشكل الذى لا خطر له ، لا جمال فيه وان الأثر من الآثار كلما زخر بالأسلوب زخر بالمعنى .**

من أجل ذلك كان اسماعيل صبرى يعيد النظر فى شعره ويبدل لفظة بأخرى ويقدم ويؤخر ، لأن عملية الأسلوب عنده ــ كما يقول مولينيه ــ ليست الا العملية التى تثقل متن اللغة بالمعانى .
ومن أجل ذلك نسمع اسماعيل صبرى يقول :

شعر الفتى عرضه الثاني فأحربه

ألا يشـــوه بالأقـــذار والوضر

فانقد كلامك قبل الناقدين تحـط

ثاني النفيسين من لغو ومن هـذر

وقد التزم الشاعر بهذه النصيحة وطبقها على نفسه فى شعره الى أبعد مدى ، فهو يدير الألفاظ ويقلبها ، ويخاف العثار ، ويرهب النقد ، ويتحرج أن يأتى بغير ما هو الأولى وأن يصدر عنه ما ليس بالأعلى ، دعاه ذلك الى أن يتريث فى شعره ويتمهل فى صوغـــه والغوص على المعانى ، كالغوص على اللآلىء ، ثم لا يقنع بأية لؤلؤة ، بل لا يرضى بها الا أن تكون غاية القصد ، وواسطة العقد ، فاذا عثر عليها وضعها فى الموضع اللائق لها حتى يعجب بها الذوق الراقى .

لقد تتسامى الألفاظ بين يدى الشاعر من مهمتها المألوفة فى الحياة العملية الى مهمة عليا مصدرها تسلسل المعـــانى فيها عـلى ائتلاف وتزاوج ، كأنما الشاعر اذ يرسل الألفاظ انما يرسلهـــا رقى وتعاويذ تأسر الحياة بقواها الساحرة وطاقات نورها المتجددة ، فما كان لشاعر أن يتناول الألفاظ الا وفق ما تهدف له معانيهـــا وقواها أيضا ، حتى تكون للغة الشعر على الحياة سيطرة كسيطرة المنطق والسحر معا . واذا كان الشعر مضطرا الى أن يؤدى هذه الرسالة المزدوجة رسالة المنطق ورسالة السحر ، فمن الواضح أنه اذا تخلى عنها فقد تخلى عن كيانه كله من حيث هو شعر ، فانمـــا طبيعة الشعر الفارقة قائمة على ذلك الازدواج فى الرسالـة ، فما يكون الشاعر شاعرا حين يضحى بالقوة فى الكلمة الشـعرية من

أجل المعنى اللغوى الدارج ، أو يضحى بهذا المعنى من أجل تلك القوة السحرية ، وأنت لا تجد شعرا الا حيث تجد لحم الحياة مصورا فى مادة الصنيع الفنى والا حيث تجد الكلمة مالكة ناصية الحياة من وراء القدرة المحدودة لمعناها . فلو أن شاعرا شاء أن لا يجول الا فى دنيا المنطق أو فى دنيا السحر ، لما كان شاعرا البتة ، وانما كان نظام بحور وأوزان على طريقة تلاميذ المدارس أو كان صاحب تمائم وطلاسم على طريقة المشعوذين .... ليس الخلق الشعرى حلما من الأحلام ، ولكنه يقظة قبل كل شىء ويقظة عميقة الى حد بعيد ، والرسالة التى يضطلع بها الشعر هى تمثيل الجانب المستكن فى الشىء المسمى ، أو تصوير الذى لا يصور من الأشياء . يجرى الى ذلك بوسائله من الألفاظ والعبارات وتبدو الأعمال الشعرية من خلال هذه الرسالة كأحسن أسلوب لتوضيح كل ما من طبعه فى هذا الوجود أن يأبى الدخول فى حيز اللغة ، فهى تحمل كل كلمة من كلمات اللغة المستعملة على أن تقول ما لم تقل ، وعلى أن تبلغ مداها أقصى الحدود .

فكأنما الأعمال الشعرية توسع من اطار شعورنا بالوجود ، ان لم نقل انها تعيننا على السيطرة عليه سيطرة آسرة محكمة .

فالشعر يحرر اللغة من هذه الحواجز العالية التى يختنق بها الكلام الدارج لينطلق فى فسحة الكون ، على نقلة بين صدى وصدى ، حتى يلامس آخر جوانب الدنيا. وحرى بنا ـ وهذا شأن الشعر ـ أن لا نسميه (فن الكلام) بل (فن السكوت) الذى يسمو باللغة الى موضع الجلال والجمال والمعرفة ؟ .... هنا يقول مولينيه : عد الى نفسك اذا خلوت وحدك ، ترى خلجات واضحة وخلجات معتمة ، ثم انظر الى الحياة من حولك تعرف شيئا وتجهل أشياء ... أنوارا تحف بها ظلمات ، ونهارا يمحوه

ليل · أنت تهتدى حينا ، وتضل أحيانا وما تزال تتأرجح بين الهدى والضلال ، حتى ترى آخر الأمر معرفة تسلك بك سبيل الفهم لنفسك وحياتك خيرا من هذا الضرب من المعرفة : الشعر ·

واضحك اذن من القائلين بأن مادة الشعر سوف تنفذ فى يوم من الأيام ان الشعر مستراد لأنفسنا نستمد منه متعا تتجـــدد ما بقيت الحياة عذراء ، قل أن الشعر أسمى ضروب المعرفة ، أو قل أن الشعر يعلمنا ما نجهل من الحياة ·· لقد آن الأوان لانقاذ الشعر من جملة المضحكات التى دسه فيها الخيال العامى وبعض الشعراء فليس بين الشعر ، وبين الجنون ، أو أضـــغاث الاحـلام ، صلة ولا قرابة ·

ولو قدر لنا أن نعترف بخطورة المعرفـــة الشعريـة ، كما نعترف بخطورة المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية ، لتبوأ الشعر مكانه الأول ، وهو الاضطلاع بتزويدنا من الحياة بأوفى مادة وأجمل صورة ·

الشعر العربى فى العصر الحديث

يدين الشعر الحديث للبارودى ، بأنه النموذج الرائع الذى نسج الشعراء على منواله من بعده ، وساروا على نهجه فى أسلوبه وأغراضه . وذلك لأنه أتى بشعر جزل رائق الديباجة عذب النغم ، فى حقبة غلب فيها على الشعر الضعف والصنعة وضحالة المعنى وعقم الخيال .

ثم أنه مثل عصره أتم تمثيل ، وكان صدى لحوادث بيئته ، فكان قدوة لمن جاء على أثره فى التجديد .

أضف الى ذلك ، أنه علمهم كيف يتجهون الى الأدب العربى فى أزهى عصوره يعبون من نبعه الثر ، ويغترفون من ذخائره مع احتفاظهم باستقلالهم وشخصيتهم فيما ينظمون من شعر ، فيقوى أسلوبهم وتشرق ديباجتهم ويبتعدون عن الحلى المتكلفة وبذلك سار الشعر من بعده الى الامام ولم يرجع أبدا الى عصور الضعف والركاكة .

وقد عرف البارودى كيف يعيد للشعر العربى الحديث ديباجته القوية ، وينهض به نهضة فارعة ، تخطت عدة قرون الى الخلف حتى رجعت الى عهود القوة والنضارة متجنبة الزخرف

والطلاء الغث والركاكة ، والتقليد لعصور الضعف والعجمة ، ثم نهضت البلاد نهضات قوية فى التعليم وأحياء التراث العربى القديم ، وأخذت المطبعة تزيد المتأدبين بنفائس الأدب العربى فى أبهى عصوره ، وكان من الطبيعي أن يحذو الشعراء حذوه فى أول الأمر ، فقلدوا الشعر العربى القديم فى أوج عزته كما فعل ، ولم يهتموا الا نادرا بما تخلف عن عصور الضعف ، من حلى وزخارف ومحسنات وتاريخ شعرى ٠

ويعد البارودى بحق زعيما ورائدا لما يطلق عليه • المدرسة التقليدية الحديثة ٠

خصائص هذه المدرسة :

متانة الأسلوب والعناية به عناية فائقة ، فقلما نجد خروجا على قواعد اللغة أو خطأ أو ركاكة ، وانما نجد شعرا مصقولا متينا ، مشرق الديباجة نجد هذا عند صبرى وحافظ والبكرى ومحرم والكاشف ونسيم ومن على شاكلتهم على اختلاف بينهم فى تقليدهم الشعراء الأقدمين الذين تأثروا بهم ، فمنهم من راقه شعراء العصر العباسى والشعر فى ازدهاره ، فقلدوا أبا نواس والبحترى والمتنبى وأبا العلاء وابن الرومى وعارضوهم فى قصائدهم ونسجوا على منوال أسلوبهم ، جزالة فى رقة الحضارة وعذوبة المدنية القديمة وولع بالتشبيهات والاستعارات وأنواع المجاز ٠

ومنهم من رجع الى الخلف أكثر من هذا فتوعر قليلا وحاكى شعراء العصر الأموى أو الجاهلى ، وجاء شعره بدوى النسج ، متين التركيب ، عليه سيماء الفتوة العربية قبل أن ترققها الحضارة مثل عبد المطلب ٠

ومن خصائص تلك المدرسة أيضا استخدام القصيدة بمظهرها المعروف ، ذات الروى الواحد ، والقافية الواحدة ، والوزن الواحد ، وكثيرا ما ابتدءوا تلك القصيدة بالنسيب كما كان يفعل شعراء العرب الأقدمون أو تركوا النسيب كما فعل ذلك من قبلهم بعض شعراء العصر العباسي حيث بدءوا بالغرض من غير تلك المقدمة الموروثة عن الجاهلية ·

على أن القصيدة الحديثة لا تختلف عن القديمة فى تعدد عناصرها ، فلم ينظروا اليها نظرتهم الى بناء متماسك الأجزاء · أو كائن حى · الا قليلا ، حين وضعوها فى الأسلوب القصصى كما ترى ذلك عند حافظ وعبد المطلب أحيانا ·

ولكن الغالب فى هذه المدرسة هو جعل البيت ـ كما كان من قبل وحدة القصيدة ويجوز فيها التغيير والتبديل ، من غير اخلال بالمعنى ، ولم يطرأ تجديد على موضوعات شعرهم اللهم الا ماتقتضيه خصائص العصر العامة ، فأغلبهم كان مداحا يمدح الخليفة وان لم يعرفه ، وان لم تكن بينه وبينه صلة ، أو ثمة أمل فى أن يعرفه ، ويمدح الأمير وحاشيته ، ويغير ولاءه كلما تغيرت الوجوه الحاكمة من غير حرج أو تردد ، فكان الأمير هو المحور الذى يدورون حوله : مثلهم فى ذلك الأدباء الانجليز والفرنسيون قبل أن تظهر الحركة الرومانتيكية (١) ·

---

(١) كانت الحركة الرومانتيكية فى أوائل القرن التاسع عشر ثورة على تلك التقاليد ومن أدباء الانجليز فى القرن الثامن عشر الذين مثلوا تلك المدرسة التقليدية وعنوا بالأسلوب ولم يلتفتوا الى الطبيعة ، وجعلوا للشعر ألفاظا خاصة به (درايدون Drydon بوب Bob ـ طومسون Thomson وغيرهم) وكلهم شاعر بلاط يغرم بالمديح ويتملق الحاشية ·

وقد صرفهم المديح كما صرف أسلافهم العرب من قبل ، عن الاهتمام بالطبيعة والحيـاة الانسانيـة ، وان التفتوا فى أخريات زمانهم الى بعض ذلك ، والى الشعب وآماله (نظرا لتطور الحياة فى مصر) ، لكنهم مع ذلك كانوا ينظرون من خلال ذواتهم ومقدار تأثرهم بالأحداث المحيطـــة بهم ، فلم يكن شعـرهم فى الشعب موضوعيا • وكانوا يهتمون بالطبقة الراقية من الأمة ، فيمدحون أعلامها ويرثون عظماءها ، ويتبادلون واياهم الرسائل الاخوانية •

وقد وصفوا بعض الأشياء ولكنهم ، قلمـــا أفردوا للوصف قصائد بذاتها ، وأهمل أكثرهم الطبيعة المصرية ، أو قال فيها الشيء القليل ، ونظر اليها نظرة عابرة من غير أن يقف عندها طويلا على الرغم من تنبه الشعور الوطنى والاحساس القـــومى فى أخريات عهودهم •

ونراهم يحاولون التجديد فى الموصوفات ، فيكثرون الكلام على البخار والطيارة وقد تخلف عند بعضهم شيء من الأغراض التى قضت عليها حركة التجـــديد ، فما زال مثلا الهجـــاء الشخصى والاجتماعى عند صبرى والفخر عند عبد المطلب وعلى كل ، فدائرة الشعر لديهم ضيقة وموضوعاتهم محدودة ، وان أفاضوا فى الشعر السياسى والاجتماعى متأثرين بالحركات القـــومية التى لم يجدوا مندوحة من التأثر بها •

أما معانيهم فليس فيها جديد الا النادر كما ترى عند توفيق البكرى ، ومعظمها مأخوذ من الأدب العربى القديم ، أو المعـــانى المتداولة ، وخيالهم تصويرى مبنى على الاستعارة والتشبيه والمجاز . بل كثيرا ما تكون تشبيهاتهم غير مجارية لزمانهم أو بيئتهم وانما نهجوا فيها نهج العرب الأقدمين ، متأثرين بالقوالب المحفوظـــة والعبارات المتداولة •

وكان أغلبهم متزمتا ، جادا في حياته ، واذا تغزل عف ولم يفحش وفي أدبهم تكثر الحكمة والموعظة والارشاد ، فهم يجعلون للشعر غاية يهدف اليها . ولم يعرفوا معنى « الفن للفن » .

والذين تتلمذوا على البارودى واقتفوا أثره ، عدد كبير من شعراء العربية اتخذوه امامهم غير مدافع ، كشوقي وحافظ والرافعي واسماعيل صبري وعبد المطلب والجارم والكاظمي والرصافي وأحمد محرم والكاشف ونسيم والزين وغيرهم ، على تباين بينهم في حظ كل منهم من التجديد والتأثر بثقافة الغرب ومذاهبه الأدبية .

وعلى الرغم من قيام مدرسة مجددة نشيطة تزعمها مطران وشكري والعقاد والمازني وأبو شادى ، فلا زال كثيرون من البلاد العربية بعامة وفي مصر بخاصة ، يحنون الى ديباجة البارودى وموسيقى مدرسته مع الأخذ بطرف من الجديد في المعاني والاخيلة والصور . وحسب البارودى فخرا أنه أحيا الشعر بعد مواته على غير مثال سبق من معاصريه .

حالة الشعر بعد البارودى

من الغريب أن الثورة الفكرية التى أحدثها السيد جمال الدين الأفغانى بمصر ، وحمل مشعلها تلاميذه من بعده ، قد أطفأها الانجليز بطريقتهم العقيمة فى الثقافة والتربية ، ولم ينج من شرهم الا نفر قليل شاهدوا هذه الثورة الفكرية فى عنفوانها ورضعوا أفاويقها ، فظلوا الى أوائل القرن العشرين يحملون المشعل ويهدون الامة سواء السبيل ٠

أما الشعراء فلم يتأثرو بهذه الثورة فى قليل أو كثير ، ولم يلتفتوا كما التفت الكتاب الى الشعب يفحصون عن علله وأدوائه وآلامه وآماله ، ويغذون فيه تلك الروح الوثابة بل انصرفوا الى الأمراء والوزراء ، وذوى الجاه والمال يتملقونهم ويستجدونهم ، لقد صار النثر بفضل جمال الدين ومحمد عبده وعبد الله النديم والمويلحي وأضرابهم معبرا عن حاجات الشعب ، بينما ظل الشعر بمنأى عن رغباته ومطالبه مكبلا بقيود الماضى ٠

حتى هؤلاء الذين تتلمذوا على البارودى لم يحاكوه فى نبل أغراضه ، وصدق عاطفته وجمال تصويره للبيئة ، لقد كان البارودى صادقا فى شعره حين يصف الريف المصرى وما فيه من مناظر وزرع نضير ، وهدوء ، وشمس ضاحية ، وظل وريف ، وحين يرثى

أحباءه وأقاربه وأصدقاءه ، وحين يصف بطولته وشجاعته في ميادين القتال ، ويصف بجانب هذا الميدان ، وطبيعته والأعداء وأحوالهم ، وحين يعبر عن ميوله السياسية وما قاساه على يد الخديوى من اغتراب ومحنة ، وحنين الى الأهل والوطن ، ولم يمدح البارودى الا نادرا ولم يرث الا صديقا أو حبيبا .

وعلى العكس منه نرى هؤلاء الذين انتهجوا نهجه في الأسلوب واغترفوا من تلك الينابيع العربية التى وردها ، نراهم مداحين ، هجائين ، ندابين لكل عظيم ، ويقول الدكتور طه حسين(١) (وأصبح الشعر بفضل الشعراء وكسلهم العقلى فنا عرضيا لا يحفل به الا للهو والزينة والزخرف ، فاذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناءه الجديد طلب الى شوقى قصيدة ، فنظم له شوقى هذه القصيدة ، واذا أرادت (دار العلوم) أن تحتفل بعيدها الخمسينى كما يقولون ، طلبت الى شوقى والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد ، فنظموا لها القصائد واذا مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه ، أو نبه نابه ، وأريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر فى المدح والرثاء ، فنظموه كما ينظمه القدماء فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسى الجميلة المزخرفة التى تتخذ فى الحفلات والمآتم وأما الشعر الذى يقال لنفسه ، الذى يقال ليجلو مظهرا من مظاهر الجمال الطبيعى الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذى يقال لا ليتملق عاطفة من العواطف ، أو هوى من الأهواء فلا تلتمسه عندنا ، ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها فربئوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة وكان جمهور المثقفين يطرب لهذا النوع من الأدب لأنه لا يعرف غيره ، ولأنه يحاكى تلك الألوان التى عرفها

---

(١) فى كتابه حافظ وشوقى ص ١٤٩ .

من الأدب العربى القديم ووعتها حافظته وفضلا عن هذا كله فان هذا النوع من الأدب كان نتيجة لازمة للتربية الانجليزية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى التى كـــان من أهم عناصرها تنميـة الذاكرة وقدرتها على الاستيعاب ، واهمالها المواهب الانسانيـــة الأخرى كالتفكير والتأمل ودقة الملاحظة ، والابتكار العقلى والحرية فى الرأى مما دعا الدكتور محمد حسين هيكل(١) أن يقول :

« ويجب أن نعترف ونفوسنا يملؤها الحـــزن والأسى ، أن تربيتنا وتهذيبنا لم يعد أكثريتنا للتأثر الفردى والاحساس الذاتى ، فهما لا يرسمان أمامنا مختلف صور الحياة ويتركان لحسنا ولفكرنا أن نميز من هذه الصور ما يأخذ بهما ، ويلفتهما لفتات خاصة بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة فى قوالب قررتها الجماعة من عصور سالفة فيطبعانها فى حسنا وفكرنا طبـعا يقيدهما بهـذه القوالب ، ويكرههما على الخضوع لها والايمان بها » .

لقد عمد الشعراء الى استظهار كثير من الأدب العربى القديم ، حتى يستقيم لهم الأسلـــوب ويتملكـــوا ناصية القوافى ، ويكثر محصولهم من الكلمات والتعبيرات ، بيد أن هذا الاستظهار أورثهم الجمود وتقليد الشعر العربى القديم ، فى أساليبه وصور بيانه من كناية واستعارة وتشبيه ومجاز ، وفى موضوعاته ، ولم يستخدموا اللغة التى أحاطوا بمفرداتها ، فى أغراض عصرهم وتصوير بيئتهم والتعبير عن خلجات نفوسهم وهزات مشاعرهم فى صور من البيان جديدة مستمدة من بيئتهم الحضرية ومدنيتهم الحديثة وانمـــا احتذوا الشعراء القدامى فى كل شىء وعارضـــوهم فى مشهورات قصائدهم .

---

(١) كتاب ثورة الأدب ص ٦٥ .

عصر اسماعيل صبرى

الحركة السياسية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر

كانت مصر قبيل ظهور الربع الأخير من القرن التاسع عشر مسرحا لألاعيب السياسة ، فهى فريسة الشد والجذب بين مطامع الدول الأوربية وأهواء الباب العالى ، وأثرة الأسرة الحاكمة ·
وكان الخديو اسماعيل آنذاك فى أواخر أيام حكمه ، وقد ناءت البلاد فى ظل حكومته المطلقة وارهاقها الأهالى بالضرائب والأحكام الجائرة ·

ومنذ انشاء قناة السويس ، وافتتاحها رسميا سنة ١٨٦٩ ، واعتبارها الشريان الحيوى للمواصلات بين الشرق والغرب ، وأعين الطامع الاستعمارية متفتحة متربصة ، تلتمس الفرصة للانقضاض على استقلال البلاد ·

وأخذت انجلترا وفرنسا تتنافسان فى استغلال مصر ووضع اليد عليها وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل بمظهر من لا يحسب حسابا للعواقب ، وذلك بأن فتح باب الاستدانة على مصراعيه ، وكبل مصر بقروض مالية ضخمة بالنسبة لثروةالبلاد فى ذلك الوقت ، وكانت بيوت المال التى تقرضه تفرض عليه أفحش أنواع الربا ؟؟ وقد أدت هذه القروض التى لا موجب ولاضرورة لها الى تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية ، واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضحت نية القوم ، وقلق

المصريون على مستقبلهم ، وقد تجلى ذلك القلق ابان الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ولم يكن اهتمام المصريين بهذه الحرب راجعا الى شعورهم الديني وتعلقهم بدولة الخلافة ـ التى كانت مهددة حينئذ بالاضمحلال ، ولكن الواقع الذى لاشك فيه ، أن اهتمامهم كان سياسيا أكثر منه دينيا ، لأن تقسيم الامبراطورية العثمانية كان معناه وقوع مصر فى قبضة انجلترا .

ثم بدأت الصحافة المصرية السياسية تظهر ، وبدأ الرأى العام يقوى أمام ضعف اسماعيل ازاء التدخل الأجنبى ، وظهرت فى البلاد حركة قومية دستورية تطالب بتغيير سلطة الحكومة المطلقة ، التى كانت فى الداخل رمز بطش وجبروت وفى الخارج رمز الضعف والاستكانة ، وتطالب أيضا باصلاح داخلية البلاد وماليتها لتخليصها من ربقة الأجنبى ، **وكانت الفكرة الدستورية** تستمد قوتها من العوامل الآتية :

١ ـ وجود مجلس نواب صورى سنة ١٨٦٦ كان آلة فى يد اسماعيل ، فلما تطورت الأحوال أراد المصريون توسيع سلطة المجلس واعطائه حق الرقابة الفعلية على أعمال الحكومة .

٢ ـ بعث المصلح الوطنى الكبير جمال الدين الافغانى فى نفوس المصريين منذ وفوده الى مصر سنة ١٨٧١ فكرة اقامة نظام دستورى لعلاج أحوال الشرق السياسية .

٣ ـ تمادى الأجانب فى أطماعهم وسطوهم على حقوق البلاد، لعدم اعتماد اسماعيل على حكومة شعبية ، مرتكزة على الأساس الدستورى ، وبالتالى فهى حكومة ضعيفة تعمل لمصلحة حاكم مستبد !!

٤ ـ كان للبعثات المالية الانجليزية التى وفدت الى مصر فى الفترة من (١٨٧٦ ـ ١٨٧٩) أسوأ الأثر فى التشهير بسوء

ادارة اسماعيل والنيل من روح ولاء المصريين نحوه ، واضعاف اخلاصهم له ، حتى يسهل بذلك للأجانب اغتصاب السلطة منه ٠

وقد لعبت بعثة السير ريفرزولسن (١٨٧٨) الدور الأكبر في هذه السياسة فنددت فى الأقاليم المصرية بأعمال اسماعيل ، وطلبت من المصريين أن يقدموا مظالمهم اليها ، ثم صرحت فى تقرير لها بأن الحكم المطلق هو أصل البلاء وحملت اسماعيل (بمرسوم صدر منه فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٨٧٨) على انشاء مجلس وزراء متضامن في مسئوليته ، برئاسة نوبار باشا وعضوية ريفرزولسن وزيرا للمالية ودى بلنيير وزيرا للأشغال ٠

ونخلص من هذا أن مصر فى تلك المرحلة العصيبة من تاريخها كانت تعانى من تدخل الأجانب وتغلغل النفوذ الاستعمارى فى جميع مرافقها سواء كانت أهلية (شركات) أو حكومية حيث كانت الادارة المصرية فى أيدى الأوربيين وترك الخديو اسماعيل البلاد سنة ١٨٧٩ وهى مثقلة بالديون ٠

كما شهد اسماعيل صبرى نهاية الثورة العرابية بل نهاية عرابى الثائر المصرى المخذول ، ورأى الانجليز يحتلون مصر ، ويفرضون على شعبها كابوس الاحتلال البغيض، فكان لهذه الأحداث أثرها المتباين فى نفسه ، وكانت مصر فى تلك الفترات ـ بالرغم من الاحتلال الانجليزى ـ ما تزال تابعة للخلافة العثمانية تدفع الأتاوة السنوية ويخطب فى مساجدها أيام الجمع بطول العمر للسلطان ، ولكن هذه التبعية كان شكلية ، لأن معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ قد حددت مركز مصر الشرعى الذى اعتزمت الدول احترامه ، فحين وقع الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ عصفت بالاستقلال المعترف به فى تلك المعاهدة ؟

وقد أثار الاحتلال البريطانى رد فعل قوى فى نفوس المصريين

الذين انشطروا شطرين ، فمنهم من كان يريد أن تظل مصر مرتبطة بالدولة العثمانية والاستفادة من علاقتها بتركيا فى تخليص البلاد من الاحتلال البريطاني ، ــ ومنهم ــ وقد ذاق حكم الاتراك البغيض وأتباعهم من الشراكسة ، ــ رأوا أن المصلحة الوطنية تدعوهم الى الدعوة بمبدأ « مصر للمصريين » .

كانت الوطنية المصرية اذ ذاك فى ابان نشأتها ، والدعوة اليها فى أشد قوتها بتأثير جمال الدين الأفغانى ، وكان أحمد عرابى وصفوة من أصدقائه المكافحين قد جعلوا شعارهم أن تكون مصر لأبنائها الخلص لا للدخلاء والمستعمرين ، الا أن اخفاق « الثورة العرابية » قد أدخل اليأس فى النفوس ، وران على صدور المصريين جوانب مظلمة من الخيبة والقنوط ، ذلك لأن ثورة عرابى التى قامت لأجل تحقيق حرية البلاد السياسية قد انتهت بفقدان هذه الحرية تماما ، ثم بفقدان الاستقلال الذى كانت تتمتع به من قبل ، وليس هذا فقط بل شهد المصريون خلال هذه السنوات التواء السياسة الانجليزية ونقضها عهودها فى الجلاء ، وشهدوا جمود الدول الأوربية ازاء المسألة المصرية ، وتركها انجلترا تعبث باستقلال مصر ما تشاء من العبث .

وشهدوا تهدم صرح الامبراطورية المصرية الواسعة الأرجاء التى أسسها محمد على باشا وخلفاؤه فى السودان .. بل شهدوا خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطانى والغاء الجيش المصرى وتأليف جيش جديد هزيل ، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين ، والنفوذ البريطانى يتغلغل فى شئون الحكومة كافة من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وادارية ثم شهدوا استسلام رجالات مصر لادارة العميد البريطانى وتقرب أكثرهم اليه والتماس الزلفى لديه .

وبينما مصر تتخبط فى خضم تلك الظروف العصيبة ، وقد بلغ اليأس من نفوس المصريين أقصاه ، ظهر على المسرح السياسى، شاب جرىء ، أخذ يبدد بخطبة ومقالاته اليأس والقنوط من نفوس مواطنيه ، ويثير فيهم روح التمرد والثورة على الاحتلال ٠٠ ذلكم هو الزعيم الخالد مصطفى كامل الذى ناصب المحتل الغاصب العداء ، وأثار موجة الغضب والكراهية والاحتجاج ضده ، فى جميع أنحاء العالم المتمدن ، طالبا جلاءه عن أرض مصر ٠

ورأى للوصول الى تحقيق أمنيته فى استقلال البلاد أن لايحارب فى جبهتين ، فهو فى ثورته ضد الاحتلال البريطانى رأى ان يصانع ولو مؤقتا الخليفة العثمانى للافادة من نفوذه وسلطانه الروحى ٠

ولكن هذا الاتجاه دفع خصومه أن يتهموه بممالأة السلطان والعمل على نقل مصر من حكم الاحتلال البريطانى الى الحكم العثمانى ، وهى تهم روج لها أنصار الاحتلال ولكنه رد عليهم بأسلوبه القوى اللاذع ٠

« أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد ، وانهم يطالبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد فهى دعوى لايقبلها ذو لب ، ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب حتى آخر لحظة من حياتنا » (١) ٠

---

(١) من مقالته فى جريدة اللواء الصادرة فى ٢ مايو سنة ١٩٠٦ ـ كتاب مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٤٣ ٠

وقد عاصر اسماعيل صبرى باشا الزعيم الوطنى مصطفى كامل منذ حداثته حين كان طالبا بمدرسة الحقوق الخديوية ، وظهرت أول بواعثه الوطنية ، وظل متابعا جهاده ، ملازما ومشجعا اياه ، مؤيدا جهاده حتى وافاه الأجل المحتوم فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، وسوف نفرد فصلا خاصا بالعلاقة الوثيقة بين مصطفى كامل والشاعر الكبير فى الأبواب التالية من الكتاب ٠

التطور الاجتماعى فى مصر فى عهد الشاعر

أدرك الشاعر فى طور التلمذة ، حكم اسماعيل وعهده (١)، ويعتبر عصر اسماعيل عصر التجدد الاجتماعى ، ففيه أخذت الهيئة الاجتماعية المصرية تقبس من أساليب المجتمع الأوربى وعاداته ، ومال المصريون الى محاكاة الأوربيين فى جميع طرائق المعيشة ، وبصفة خاصة الطبقة المثقفة، التى حظيت بالثقافة الأوربية، والعلوم الأجنبية ، فانها صارت فى طليعة الطبقات الأخرى فى تقليد الأوربيين واقتباس عوائدهم وأساليبهم ومنها النافع ومنها الضار ؟

ففى المسكن شرعوا يبنون البيوت على النظام الأوربى ، وهجر المتعلمون ومن حاكاهم من السراة والأعيان الملابس الشرقية كالجبة والعباءة والعمامة وارتدوا الطربوش والبدلات الافرنجية ، وتضاءلت الأزياء القديمة وحلت محلها الأزياء الاوربية ، فيماعدا القبعة فقد أعرض المصريون عنها ومن مظاهر التطور الاجتماعى أقبال الناس على الرياضة والتنزه ، فارتادوا المتنزهات والضواحى وخاصة بعد انتشار العربات التى سهلت المواصلات بين العاصمة وضواحيها ٠ فأخذ سيل المركبات لاينقطع عصر كل يوم فى طريق شبرا، ثم فى طريق الجزيرة والجيزة والاهرام وكان لانشاء «كوبرى» قصر النيل فضل كبير فى

---

(١) راجع كتا عصر اسماعيل جزء ٢ لعبد الحمن الرافعى بك ٠

عيل الجماهير الى التنزه لاجتلاء محاسن النيل وجسره البديع والتمتع برياض الجزيرة والجيزة والقناطر الخيرية وغيرها •

وبدا على المجتمع الميل الى المرح والحبور ، ويرجع هذا الميل الى الثراء والرفاهية ، ثم انتشار التعليم ؛ ومن هنا ظهرت النهضة الغنائية فى عصر اسماعيل ، وازداد اقبال الناس على سماع الأغانى والموسيقى ، وارتقت أساليب الغناء ، وزادت مكانة المغنين فى النفوس وفى مقدمتهم عبده الحمولى وارتقى الذوق الموسيقى فى المجتمع (١) •

وأقبلت الطبقات الممتازة على حضور المسارح ومشاهدة الروايات التمثيلية ، وابتدع الخديو اسماعيل عادات الرقص الافرنجى ، فكان يقيم فى سراى الجزيرة وعابدين حفلات راقصة (بالو) بالغة منتهى الفخامة وكان يدعو اليها الكبراء وذوى المراكز الاجتماعية الكبيرة (٢) • ورجال السلك السياسى ،وكانت«الوقائع المصرية » تعنى بنشر أخبار هذه الحفلات ، فى مكان بارز من صحائفها •

وكانت لحفلات الأفراح فى ذلك العصر بهجة بالغة ، فقد كان السراة والأعيان يفتنون فى تفخيمها وتنظيمها ، ويتنافسون فى مظاهر البذخ والاسراف فيها ، كما امتاز هذا العصر ببهجة الحفلات العلمية والمدرسية التى كانت تقام لمناسبة انتهاء العام المدرسى فى المعاهد العالية والمدارس الثانوية والابتدائية ، فقد كان يحضرها الخديوى أحيانا ويشهدها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والمكافآت على أوائل الناجحين • ولحفلات سباق الخيل فى ذلك

---

(١) سيأتى ذكر ذلك فى اسم الشاعر فى تأليف الأغانى لعبده الحمولى •
(٢) عهد اسماعيل جزء ٢ لعبد الرحمن الرافعى •

العصر مظاهر رائعة، اذ كان الجمهور يتسابق الى مشاهدتها فيالقاهرة (بالعباسية) وفي الاسكندرية ، واستمرت حفلات الموالد والأعياد الدينية موضع اقبال الناس ورعاية الحكام ٠

النهضة النسائية

وبدأت النهضة النسائيـــة في عصر اسماعيل ، اذ أنشئت المدارس لتعليم البنات(١) وبدأت المرأة تشترك في نصـيبها في النهضة ، الاجتماعية والأدبية ، فكانت الشاعرة « عائشة التيمورية» طليعة هذه النهضة ، وكان لرفاعة بك رافع الطهطاوى فضل كبير في ترقية المرأة المصرية ، وجاء بعده المصلح الكبير ورجل القضاء الشهير قاسم أمين ، فكتب كتابى « تحرير المرأة » ، « المرأة الحديثة » ودعا دعوته الكبرى بتحرير المرأة والغاء الحجاب ٠

الأسرة الحاكمة ـ (الخديوى والأمراء)

تفرعت الأسرة الحاكمة وكثر عدد أفرادها في عهد خلفـــاء محمد على ، وصـــاروا يمثلون طبقة ممتازة في المجتمع ، ورغم أن محمد على باشا عنى بتنشئة أنجـاله تنشئة صالحة ، فعلمهـم في المدارس وبعث بعضهم الى أوربا لاتمام علومهم ولم يقصر في تثقيفهم واعدادهم للقيام بالمهمات الكبرى ، الا أن خلفاءه قصروا في الاندماج في الشعب والاعتزاز بالانتساب اليه ، فمع أن محمد على هو باعث نهضة اللغة العربية وآدابهـا ، فان الأمراء والأميرات من آل بيته قلما كانوا يتعلمون اللغة العربيـة ، ويدرسونهـا ، وكانت اللغـة التركية هي لغة التخاطب والتفاهم في بيوتهم ٠ وقد عنوا بدراسة اللغات الأجنبية وبصفة خاصة اللغة الفرنســية ٠ وثمت ظاهرة أخرى بدت على الأمراء والأميرات من البيت العلوى ، وهى التنافس

(١) عهد اسماعيل جزء ٢ لعبد الرحمن الرافعى ٠

والتحاسد فيما بينهم ، مما أدى فى بعض المواطن الى بغض متبادل وعداء شديد ، ولو ساد الوفاق بينهم وصرفوا جهودهم الى مافيه خير البلاد وسعادة أهلها لنالت على أيديهم أطيب الثمرات .

الموظفون :

ارتقى مستوى الموظفين عما كانوا عليه من قبل ، لأن كثيرا من الوظائف قد شغلها خريجو المدارس فى عهد محمد على وخلفائه ، ولكن معظم الموظفين لم يضعوا نصب أعينهم الاخلاص فى أداء الواجب نحو البلاد ، وتوفير مصالح الأهالى ورعاية الحق والعدل واتخذوا الوظائف وسيلة للاستغلال والاثراء ومن هنا جاء سوء الادارة وانتشار الرشوة ومظالم الحكام وقلما كان الرؤساء من الموظفين والحكام ينظرون الى مصالح البلاد والأهلين بل أهملت هذه الناحية اهمالا جسيما ، حتى لم يكن للأهالى حقوق محترمة ولا مصونة أمام الموظفين .

(١) الزراع والصناع والتجار

أما الفلاحون فقد ساءت أحوالهم بما زاد عليهم من أعباء الضرائب ، وما اقترن بها من القسوة فى تحصيلها ، ولم يشعر الفلاح فى عهد اسماعيل بالراحة والرخاء اللذين كان يشعر بهما فى عهد سعيد ، وظلت السخرة قائمة حتى ذلك العهد ، ولم تكن قاصرة على المنافع والأعمال العامة بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان الخديوى وأطيان الحكام . وبقيت المظالم يرزح الناس تحت نيرها ، وقاعدة الحكام فى معاملة الفلاحين هى القهر والارهاق .

---

(١) عصر اسماعيل الجزء الثاني : تاليف عبد الرحمن الرافعى بك .

وكان الضرب بالكرباج عادة مألوفة فى جباية الضرائب والاقتصاص ممن يخالفون الأوامر أو يستهدفون لغضب الحكام لأى سبب ، ولم يكن ثمة قانون ولا قضاء عادل يحميان الضعيف وينصفان المظلوم ٠

ولا رقابة على الحكام من حكومة عادلة أو مجالس نيابية أو صحافة أو رأى عام ، ووقع على الأهالى ارهاق آخر من ناحية الأجانب ٠ من المرابين وغيرهم ٠ اذ وجد هؤلاء من حسن رعاية الحكومة ومن حماية الامتيازات الأجنبية ما جعلهم يستغلون الفلاحين والأهالى الى اقصى درجات الاستغلال ، حتى انتزعوا منهم الأملاك والأموال وكبلوهم بالديون الباهظة ، ولم يجد الفلاح من الحكومة حماية لحقوقه ٠

٢ ـ الأعيان

كان الأعيان أحسن حالا من الفلاحين وسائر الأهلين ، فقد اقتنوا الأطيان والضياع واستصلحوا أطيانهم القديمة ، وزادت ثروتهم بما أنشأته الحكومة من أعمال العمران كشق الترع واقامة القناطر وتسهيل وسائل الرى وانشاء السكك الحديدية وتعبيد طرق المواصلات ، فزاد دخلهم من أطيانهم ، وراعت الحكومة جانبهم ، وكانوا هم من ناحيتهم يخضعون لأوامر الحكومة ويتزلفون الى الحكام لينالوا رضاهم بالهدايا والرشا وما الى ذلك ٠ وكان الأعيان من الأسر الكبيرة يحتفظون بعصبيتهم العائلية ومراكزهم الاجتماعية . فازدادت منزلتهم وعظم جاههم وراعى الخديوى جانبهم ، وأنعم على كثير منهم بالألقاب والرتب ، وأسند المناصب الادارية والقضائية الى فئة منهم ، فكان منهم المديرون ورؤساء المجالس (المحاكم)

---

(٢) عصر اسماعيل الجزء الثانى : تأليف عبد الرحمن الرافعى ٠

الابتدائية والاستئنافية ، ومجلس شورى النواب كاد يكون مقصورا على طبقتهم ·

وامتازت طبقة الأعيان بالكرم وقوة الأخلاق ، واتسموا بالشهامة والمروءة والوفاء وقل منهم من كان يسىء معاملة فلاحيه ويلوح لنا من هذه الناحية انهم كانوا خيرا ممن خلفوهم فى العصر الحديث ·

تاريخ حياة الشاعر

ولد اسماعيل صبري بالقاهرة ، في ١٦ من فبراير سنة ١٨٥٤، من عائلة متوسطة ربها تاجر من تجار العاصمة هو امام قتندة ، ينتمي الى أصل حجازي ، وكان على جانب كبير من التقوى وان لم يكن على جانب كبير من اليسار ؛ وحرم العلم في صباه ؛ ولكنه عزم على أن يعوض ذلك في تعليم ابنه والانفاق عليه ، فعلمه أولا في المنزل على أيدي الفقهاء ، درس على أيديهم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم ، ثم اذا استوى عوده ، ألحقه بمدرسة المبتديان الابتدائية الأميرية في ٢٣ من أكتوبر سنة ١٨٦٦ ، وبعد أن أتم دراسته بها بنجاح وتفوق التحق بمدرسة الادارة والألسن سنة ١٨٧٠ ، وفي أثناء دراسته بهذه المدرسة ، ظهرت مواهبه الفنية في تجويد الكتابة العربية ، حيث أنه منذ حداثته كان على حظ وافر من اجادة الخط والخبرة بمواضع الحسن فيه ؛ حتى أن أساتذته رغبوه في الاشتغال بعد تخرجه ؛ بالتعليم في مدارس الحكومة لمادة الخط العربي ، وكاد أن ينفذ هذه الرغبة ، لولا أن علي مبارك باشا وزير المعارف في ذلك الوقت ، كان في زيارة للمدرسة ، وقدم اليه كأحد الطلبة النوابغ في الخط العربي ، وأنه بصدد تقديم طلبه للوزارة ، بعد تخرجه للالتحاق بوظيفة معلم للخط العربي ، ولما ناقشه علي باشا مبارك ، ووقف على تقارير

المدرسة ، ونتائج امتحاناته ، وتفوقه في المواد الدراسية ، أيقن أنه من الخسارة أن يهمل هذا الطالب وأن تقتصر الافادة منه على تعلم الخط العربى ، فأخذ فى اقناع الطالب للانصراف عن هذه الغاية وقال له (١) :

« انى ضنين بذكائك وعلمك أن تنقطع السبيل بها فيقفا عند غاية لاتخلق بمثلك ، وانى أعدك لما هو أسمى رتبة ، وأجدى على الأمة من الانتفاع بفضلك وكفايتك » ولم يزل يبالغ فى تعهده ورعايته حتى أتم دراسته وأرسل الى مدينـة اكس بفرنسا ، للتخصص فى دراسة العلوم القانونية بها » .

وأمضى سنى الدراسة بنجاح ، ونال شـــهادة الليسانس فى الحقوق من كلية مدينة اكس فى ٢٠ من مايو سنة ١٨٧٨(٢) ، وعاد الى مصر ليعين مســاعدا بمحكمة مصر الابتدائيـة المختلطـة فى ١٨٧٨/٧/١١ ثم نقل الى محكمة المنصورة المختلطة فى ١٨٧٨/١٠/١ ثم نقل الى محكمة الاسكندرية الابتدائية المختلطة فى ١٨٨٠/٤/٢٩ .

ثم عين نائبا فى محكمة المنصورة فى ١٨٨٣/٢/١٣ ، ثم وكيلا لمحكمة طنطا الأهلية فى ١٩٨٤/١/١ ، وأنعم عليه بالرتبة الثانية ثم رئيسا لمحكمة بنها فى ١٨٨٦/٣/١٣ ثم رئيسا لمحكمة الاسكندرية الأهلية فى ١٨٨٦/٦/٢٢ .

وأنعم عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة سنة ١٨٩١ ، ثم عين قاضيا لمحكمة استئناف مصر الأهلية فى ١٨٩١/١١/٣٠ ، ثم وكيلا لمحكمة استئناف مصر الأهلية فى ١٨٩١/١٢/٢٧ وأنعم عليه رتبة المتمايز فى سبتمبر سنة ١٨٩٢ ، ثم أضيفت اليه أعمال

---

(١) ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨ باشراف الاستاذ أحمد الزين .

(٢) ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨ باشراف الاستاذ أحمد الزين

النائب العام لدى المحاكم الأهلية فى ١٨٩٥/٤/٢١ · ثم رقى الى منصب النائب العام لدى المحاكم الأهلية فى ١٨٩٥/١٢/٥ ، وهو أول مصرى يرقى لهذا المنصب ، **وفى ذلك يقول المرحوم حفنى بك ناصف مهنئا :**

لم ينلها سواك من أهل مصر والمعالى بالخاطب الكفء تدرى
طمحت أنفس اليها فصانت حسنها عنهم صيانة بكر
وابتغت كفئها فكنت رضاها فهى شمس جرت الى مستقر

ثم عين محافظا للاسكندرية فى أول مارس سنة ١٨٩٦ ، ثم رقى الى وكيل الحقانية فى ٦ من نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، وهذا هو أرقى وآخر منصب شغله فى الحكومة حتى اعتزاله الخدمة فى ١٩٠٧/٢/٢٨ ·

وقد جاء فى ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٨ باشراف صديقه الأستاذ أحمد الزين · أنه أحيل الى المعاش فى ١٩٠٧/٢/٢٨ بعد انتهاء خدمة فى الحكومة ومدتها ، ٤١ سنة ، ٤ أشهر ، ٢٠ يوما ، وهذا خطأ بين ، لأن اسماعيل صبرى من مواليد ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ كما جاء فى نفس الديوان اذ يكون عمره وقت تركه الخدمة ، ٥٣ سنة و ١٢ يوما ، أى قبل وصوله الى سن المعاش الرسمى وهو ستون عاما ، ويصبح الموضوع هو اعتزال الخدمة وليس احالة الى المعاش ، **ونحن نرجح أسباب ذلك فيما يلى :**

أولا : اعتناقه مبادىء الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، واظهار تأييده له وتشجيعه ، علنا ، دون تحرج أو خوف ، ولم تكن حكومة الاحتلال الانجليزى تنظر بعين الرضا لأى موظف كبير أو ذى منصب رفيع فى الدولة ، يجاهر بتأييده مصطفى كامل وقد ترقى اسماعيل صبرى سلم الوظائف القضائية حتى وصل الى أعلاها وهى

وظيفة وكيل الوزارة ، وأصبح تجاوز هذا المنصب فى ذلك الوقت رهينا بشىء آخر أكثر من الكفاية والذكاء وهو مالم يكن مستعدا لأن يضحى بوطنيته وابائه وكرامته فى سبيله ٠

ثانيا : كان اعتزال اسماعيل صبرى الخدمة احتجاجا صامتا ، على انعقاد المحكمة المخصوصة صباح يوم ١٩٠٦/٦/٢٧ لمحاكمة المتهمين فى حادثة دنشواى (مما سيرد أمره فى موضع لاحق بهذا الكتاب) ، واصدارها أحكاما صارمة على المتهمين ، متجاهلة أبسط قواعد العدالة والانسانية ٠ (وقد استصدر اللورد كرومر فى ١٨٩٥/٢/٢٥ مرسوما من الحكومة المصرية بانشاء (المحكمة المخصوصة) لمحاكمة من يتهم من الأهالى بالتعدى على ضباط وجنود الاحتلال بمصر ، وينص المرسوم على تأليفها برئاسة وزير الحقانية (العدل حاليا) وعضوية المستشار القضائى (الانجليزى) وقاض انجليزى من محكمة الاستئناف الاهلية ، والقائم باعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال البريطانى بالقاهرة أو الاسكندرية ، ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسى محكمة مصر أو الاسكندرية الابتدائيتين ، وقد جعل لها نظاما خاصا فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات ٠ وكان انشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصرى وتثبيت لأقدام الاحتلال(١) ٠

وقد وجد اسماعيل صبرى فى تشكيل المحكمة المخصوصة ، باعتبارها محكمة استئنائية ، (لا دستور يقيدها (٢) ولا قانون يربطها ، ولقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات ، دون التقيد بالقوانين

---

(١) احتج الزعيم مصطفى كامل على تشكيل هذه المحكمة ، ونشر الاحتجاج بجريدة الاهرام فى عددها الصادر فى ٤ مارس سنة ١٨٩٥ ٠

(٢) مصطفى كامل باعث الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ص ٤١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ٠

المعمول بها ، ولا تستأنف أحكامها) اهانة كبيرة له باعتباره أكبر قاض فى البلاد ويشغل أكبر مركز قضائى بوزارة الحقانية ، فلم يطق السكوت ، وحيث أن الظروف لم تكن متاحة أمامه لكى يقوم بعمل كبير ازاء هذه الكارثة الوطنية الكبيرة ، فقد استقال باعتبار الاستقالة احتجاجا صامتا على هذا الحكم الظالم .

ولا مراء أن حادثة(١) دنشواى كان لها الأثر البليغ فى تطور الحركة الوطنية وفى مركز الاحتلال البريطانى ، فهى نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهـاد القومى ، عم فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال .

والفترة ما بين اعتزاله الخدمة ووفاته سـنة ١٩٢٣ ، كانت وقفا على نظم الشعر والاتصال بالهيئات الاجتماعية ، وتقديم الخدمات للأدباء الناشئين ، وغشيان المجالس الأدبية ، كما لم يؤثر عنه أى نشاط سياسى معاصر لثورة سنة ١٩١٩ لاصابته بالذبحة الصدرية وملازمته الفراش ، وقد كانت وفود الأدباء والشعراء (وعلى رأسهم أحمد شوقى بك) تعوده وتزوره من حين لآخر .

ثقـــافته :

درس التركية والعربية والفرنسية بالمدارس المصرية ، ثم أكمل تعليمه العالى بفرنسا كما أوردنا آنفا ، ويدلنا شعره المبكر على أنه ألم من العربية بقدر مكنه من نظم الشعر وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وقد تمرس بأشعار البحترى ، مدمنا لقراءته ، مفضلا له على غيره من الشعراء ، وقد أخذ عن البحترى الكثير من حلاوة التنسيق

---

(١) المصدر السابق .

وعذوبة الألفاظ ووضوح المعنى ، وعدا هذا فقد قرأ لشعراء كثيرين، وجمع من هذه القراءة ذخيرة كبيرة من الألفاظ والمعاني ، راضت قريحته ، وشحذت مواهبه ، أما اطلاعه على الأدب الفرنسي ، وقد اتيحت له فرصة ذلك حينما تلقى دراسته في فرنسا ـ وقد حاول الدكتور محمد صبرى أن يتلمس آثار ثقافته الفرنسية في أدبه ، وساق غير مثل على ذلك ، ولكننا نرى أن ما أورده له شبيه في الأدب العربى القديم ، ونكاد نجزم أن اسماعيل صبرى حينما فكر فيه ، لم يرد على ذهنه الأدب الفرنسي وانما أعانته ذاكرته الواعية بما استظهره سابقا ، حينما كان يروض القول ويحاكي الأقدمين ٠

اخلاقه :

نشأ الشاعر من أسرة كريمة ، تشبع منها بشمائل ممتازة ، يدلنا على ذلك ماظهر من أخلاقه وصفاته وطباعه على الملأ ، وما تحدث الناس عنه ، وآثرهم بالذكر صديقه الحميم أحمد الزين الذى قال عنه سنة ١٩٣٨ فى مقدمة ديوانه ٠

« أكتب عن هذا الصديق الكريم ، والدمع يسابق القلم فى التعبير عما لازم نفسى خمسة عشر عاما ، من لوعة مستعصية على العزاء ، وذكرى أبية على النسيان خمسة عشر عاما خلت على فجيعة المودات الكريمة بذلك القلب الذى ما خطرت به جفوة وذلك اللسان الذى لم تجر عليه هفوة ولعمرى ان فجيعة الأصدقاء بفراقه لأشد وانكى من فجيعة الشعر لصحبته ، وقديما شكا الناس قلة الوفاء والأوفياء وما شكا أحد من قلة الشعر والشعراء » ٠

وكان حليما متسامحا ، صورة رائعة لمكارم الأخلاق ، لايكيد لأحد ولو كان من ألد أعدائه لاعجزا ولاجبنـــا ، بـل محافظة على ما يقتضيه شرف الخصومة ، شديد الضن بحزمه وصبره ورجولته

على الشكوى • فما سمعه أصدقاؤه قد شكا آلام مرضه العنيف في أخريات أيامه ، ولاجحود الذين أحسن اليهم وغمرهم ببره ثم بعد ذلك يقابلون احسانه بالكفور ووفاءه بالغدر، ولم تكن تلقاه الا باسم الثغر مشرق الوجه منبسط المحيا •

كانت تعلو سيماءه الوقار ، ويزين شخصه المهابة ، يدل مظهره النبيل على مخبره الرضي، وكان ذا شخصية جذابة ، لها نفوذ عجيب وتأثير بالغ على محدثيه ومرافقيه ومع ذلك فهو بين أصدقائه وفي مجلس الألاف والسمار السمير الذى لا يمل سماعه ، والظريف الأنيس في مداعباته وفكاهاته ، حلو النادرة سريع البديهة ، حاضر النكتة ، يرسلها مهذبة مبتكرة فى لين صوت وحسن أداء ، وقرب مأخذ واصغاء من الجلساء •

وقد روى معاصروه من رجال القانون ، أن احكامه كانت تميل الى علاج المجرم لا الى الانتقام منه ، ففيها عطف وزجر ، مع مراعاة الظروف والملابسات التى تمت فيها الجريمة ، لأن قلبه ودماثة خلقه كانت لها أكبر التأثير فى تصرفاته ، فرب انســان دفعته ظروف قاهرة لارتكاب جرم ما ، لو راعى القاضى ظروفه وأوقع عليه حكما مخففا لخرج الى المجتمع دون حقد ولا موجدة ، ليستأنف حياته بين قومه ومعاشريه على أحسن ماتكون أساليب المعاملة والمودة •

وكان يرعى صغار الأدباء والشعراء ، وبصفة خاصة الناشئين منهم ، فهو يقربهم اليه ويفتح لهم أبهاء قصره يزورونه فى غير ما خوف ولا رهبة ، يعرضون انتاجهم ويعرضون عليه ظروفهم وأحوالهم ــ فكان عند حسن ظنهم من رعايته لأمورهم ومصالحهم ، وقد حدثنى صديقى الشاعر الكبير أحمد رامى (١) ، أنه حين كان

---

(١) مجموعة اقرأ عدد ٣٦٨ أحمد رامى تاليف دكتوره نعمات أحمد فؤاد ص ٩ •

موظفا صغيرا فى بدء حيـــاته الحكومية بدار الكتب كان يزور اسماعيل صبرى باشا فى قصره ويجد فى كنفه كل رعاية واكرام نعم كان اماما لافى أدبه فحسب بل فى أخلاقه ونبله وسموه وترفعه عن الدنايا وحفاظه على أسمى مايجب أن يتحلى به الأدباء .

ومن أدلة اعتداده بكرامته ، انه ما كان يقبل مدحا فيه يعلم كذب قائله ، زاره مرة أحد الكتاب وقرأ عليه مقالا طويلا فى مدحه والثناء عليه ، فألح عليه اسماعيل صبرى بعدم نشره ، ومنحه مبلغا من المال ليقبل رجاءه فسأله أحد أصدقائه عن ذلك فقال : انى اذا رخصت لهؤلاء فى المدح الكاذب فى حالة الرضا ، فقد رخصت لهم فى الذم الكاذب فى حالة الغضب (١) .

وفى أول مايو سنة ١٩٢٣ أقام الأدباء ورجال الفكر ، حفلة من أروع حفلات التأبين ، بدار المعلمين العليا بالمنيرة ، وكان ذلك بمناسبة ذكرى الأربعين ، وتحدث كل أديب عن الصورة التى كان يرى بها اسماعيل صبرى ، **وكان الحفل معرضا لاجود ماقيل من مراثى الشعر والنثر وكانت الصـــور التى ظهرت بهـــا ذكرى الفقيد هى :**

(أ) صورة صبرى الشاعر ، الذى كان يغوص « عمان » القريض ، ويعتاده دائبا لتهيئة دوره ، والذى كان يجىء بالقصـــار فيلبسها اعجاز قصار السور .

(ب) صورة صبرى الرجل السمح الذى روى عن شذى شمائله نسيم السحر .

(ج) صورة دار صبرى وقد ازدهر ناديها بزواره من علماء العقول وقد خطر بينهم حافظ وشوقى ومطران .

---

(١) من أقوال الاستاذ أحمد الزين فى كتاب ديوان اسماعيل صبرى ص ٢٥ .

(د) صورة صبرى السياسى الوطنى ، الذى أحاط الزعيم مصطفى كامل بحبه وتأييده وقد فقد الشـــباب بفقده نصـيرا من نصراء « رب اللواء » زعيمهم الأول ، **وفيما يلى أهم القصـائد التى** قيلت فى رثائه فى ذكرى الأربعين :

قصيدة حافظ ابراهيم في رثاء اسماعيل صبرى

نعـاك النعـاة وحـم القـــدر ولم يغن عنك وعنا الحـذر
طوت ذبحـة (الصـدر) صـدر الندى فلم تطو الا سجل العبر
فأمسيت تذكر في الغابرين وان قل مثلك فيمن غبر
اذا ذكرت سـير النابهين فسيرة « صبرى » تجب السير
لقد كنت برا بظل الشباب فلمـا تقلص كنت الأبر
فلم تستبق نزوة فى الصبا ولم تستتح غفوة فى الكبر

★★★

أهنى الثرى أم أعزى الورى لقد فاز هذا ، وهذا خســر
أأول يوم لعيد الربيـــع تجف الرياض ويذوى الزهر
ويذبل زهر القريض الثرى ويقفر روض القوافى الغـرر

★★★

رحمت فقد كنت حلو اللسـان جلى البيان صدوق الخبـر
قليــل التعجب جـم الاناة حكيم الورود حكيم الصـدر
شــمائلك الغرهن الـرياض روى عن شذاها نسيم السحر
لها مثل روح الدعاء استجيب فعـافى وآوى واغنى وسـر
اذا ما وردت لهــا منهـلا وردت نميرا لذيذ الخصـر

وفكرك فى خصبه ثروة ... لفكر الأديب (اذا) ما افتقر
وشعورك كالماء فى صفوه ... وشعرك فيهن مثل الحور
عيون القصائد مثل العيون ... على صفحتيه تراءى الصور
وكم لك شكوى هوى أو آسى ... نها نفثات تذيب الحجر
هتفت بها مرة فى الهجير ... فكاد يدب اليك الشجر
وكم كنت تشعل فحم الدجى ... بأنفاس حب طويل السهر
فيا ويح قلبك ماذا ألح ... عليه من الداء حتى انفطر
أيخفق تحت الدجى وحده ... لذكرى أليف سلا أو هجر ؟

الى أن قال :

زهدت على شهرة طبقت ... وجاه أظل وفضل سهر
خلعت الشباب فلم تبكه ... وساءك أنك لم تحتضر
وقد ذقت طعم الردى عندما ... أصيب قطارك يوم السفر
فأقسمت أنك ألفيته ... لذيذ المذاقة اذ يحتضر
تمنيت أن لم تعد للحياة ... ولكن أباها عليك القدر
وكم ساعة بين ساع الحياة ... سقتك المرار بكأس الضجر
فرحت الى أختها شاكيا ... أذاتك منها فكانت أمر
ففتشت أثناءها جاهدا ... بعينى بصير بعيد النظر
فلم تر فيها على طولها ... هنيهة صفو خلت من كدر
وما زلت تشكو الى ان أتت ... كما تشتهى ساعة لم تدر

فلا صد تخشاه بعد الوصال ولا ضعف تشكوه بعد الأشر

أريح فؤادك مما ضناه ... وصدرك مما عليه انكدر
تمنيتها خطوة للممات ... تفرج عنك كروب الغير
وها قد خطاها فنلت المنى ... فهل فى الممات بلوغ الوطر
صدقت ففى الموت نصر الأبى ... على الدهر ان هو يوما غدر

من قصيدة أحمد شوقى فى رثائه

أجـل وان طال الزمـــان موافي ... أخلي يديك من الخليل الوافي
داع الى حق أهاب بخاشـــع ... ليس النذير على هدى وعفاف
ذهب الشباب فلم يكن رزئي به ... دون المصاب بصـــفوة الالاف
جلل من الأرزاء فى أمثـــاله ... همم العزاء قليلة الاسعاف
خفت له العبرات وهى أبية ... فى حادثات الدهر غير خفاف
ولكل مـا ائتلفت من متكرم ... الا مودات الرجـال تلافى
ما أنت يا دنيا أرؤيا نائم ... أم ليل عرس أم بساط سلاف
نعماؤك الريحـــان الا أنه ... مست حواشـيه نقيع زعـاف
ما زلت أصحب فيك خلقا ثابتا ... حتى ظفرت بخلقك المتنافى
ذهب الذبيح السمح مثل سميه ... طهر المكفن طيب الألفـــاف
كم بات يذبح صدره بشكاته ... أتراه تحسبها من الأضـــياف
نزلت على سحر السماح ونحره ... وتقبلت فى أكرم الأكتاف
لجت على الصدر الرحيب وبرحت ... بالكاظم الغيظ الصفوح العافى
حملوا على الأكتاف نور جلالة ... يذر العيون حواسد الاكتاف
وتقلدوا النعش الكـريم يتيمـة ... ولكم نعوش فى الرقاب زياف
متمايل الأعــواد مما مس من ... كرم ومما ضم من أعطاف
واذا جلال الموت واف سـابغ ... واذا جلال العبقرية ضـــافى

★ ★ ★

الى أن قال :

فجعت ربى الوادى بواحد أيتها ... وتجرعت ثكل الغدير الصافى
فقدت بنانا كالربيع مجيدة ... وشى الرياض وصنعة الأفواف
ان فاته نسب « الرضي » أبوة ... فلقد أعاد بيان عبد مناف
شرف العصاميين صنع نفوسهم ... من ذا يقيس بهم بنى الأشراف
قل للمشير الى أبيه وجده ... أعلمت للقمرين من أسلاف
قاضي القضاة جرت عليه قضية ... للموت ليس لها من استئناف
ومصرف الأحكام موكول الى ... حكم المنية ماله من كافى
ومنادم الأملاك تحت قبابهم ... أمسى تنادمه ذئاب فيافى

قصيدة خليل مطران

شهب تبين فمـــا تؤوب ... فكأنهـــا حبب يـــذوب
أرأيت فى كـــاس الطـلى ... دررا وقد صعدت تصوب
هـــو ذاك فى لج الدجى ... طفو الـدرارىء والرســـوب
لا فـــرق بـين كبيرهـــا ... وصغيرهـــا فيمـــا ينوب
كل الى أجـــل وعقـــبى ... كـــل طالعـــة وقـــوب

★ ★ ★

اليوم نجم من نجـــوم ... الشـــعر أدركه الغـــروب
وثبت بـــه فى أوجـــه ... الأسنى فغالتـــه شـــعوب
لقى الحقيقـــة شـــاعر ... ما غره الوهـــم الكـــذوب
أوفى على عـــدن ومـــا ... هو من محاسنهـــا غريب
كم بـــات يشهدهـــا وقد ... شفت له عنها الغيـــوب

★ ★ ★

يا خطب اسماعيل صبرى ... ليس تبلغـــك الخطـــوب
جـــزع الحمى لنعيـــه ... وبكـــاه شبـــان وشـــيب
واجتاز بحـــرا من دمـــوع ... الخـــلق مشـــهده الرهيب
اى صـــاحبى لقد قضى ... أستاذنـــا البـــر الحبيب

فعــرا ـ قلادتنـــا ـ وكانت　　زينـــة الدنيا ـ شـــحوب
انى لأذكـــــــر والأسى　　بين الضـــلوع له شـــبوب
عهـــدا به ضمت فـــؤادا　　واحـــدا منـــا الجنـــوب
اذ بعضـــنا من غير مـــا　　نسب الى بعض نســـيب
وبغـــير قـــرب بيننـــا　　كـــل الى كـــل قـــريب
الشــــعر الفنـــا فمـــا　　اختلف العريق ولا الغبيب

الى أن قال :

يا مصر قام العـــذر ان　　يعـــلق مضـــاجعك الوجيب
وعـــلى فقيـــد كـــالذى　　تبكـــين فليـــكن النحيب
مـــات الأديب وانـــــه　　فى كل معـــــنى للأديب
مات المحـــامى عن ذمـارك　　مات قاضـــــيك الأريب
مـــات الأبى وتحت لين　　قـــوله الرأى الصـــليب
مات الذى تدعوه داعيـــة　　الولاء فيســـــــتجيب
مـــات الذى ما كان مثـــ　　ـــله يـــذم ولا المغيب
مـــات الذى ما كـــان فى　　أخـــــلاقه شىء يـــريب
مـــات الذى منظومـــه　　لأولى النهى ســـحر خلوب
الضـــــارب الأمثال ليـــ　　ـس له بروعتهـــا ضريب

★ ★ ★

الى أن قال :

فاذهب ابا الشـــــــعراء　　فخرك ليس ضائره الذهوب
اما بنـــوك فعنـــد ظن　　النيـــل أبـــرار نـــدوب
تم عنهمو ومقالك العـــالى　　وجانبـــــك المهيـــب
لك فى النهى بعد النـــوى　　شـــفق ولكن لا يغيـــب

فنــه الشعرى

يعتبر اسماعيل صبــرى أول الشعراء المثقفين فى العهــد الحديث ، نال حظا وافرا من الدراسة الأكاديميــة بكلية اكس بفرنسا حينما أوفد فى بعثة رسمية اليها عام ١٨٧٤ واكمــل دراسته القانونية بها وعاد الى مصر سنة ١٨٧٨ ليلتحــق بأول درجات السلم القضائى ، واطلع على الأدب الفرنسى آنذاك ، الذى كانت تسوده الرفاهية الباكية التى كان يمثلها لامرتين(١) واخوانه الأرقاء الناعمون • فلذلك تأثر اسماعيل صبرى بذوق المدرســة (اللامرتينية) فى أحسن ما كانت عليه من شعــور وتمييــز ، وجاء (٢) شعره لطيفا تغلب عليه الرقة والحزن •

كما وأنه ثانى الشعراء الذين طرقوا الشعر السياسى بعد محمود سامى البارودى باشا فى العهد الحديث كما أنه سار على نهج البارودى أول شاعر فى العهد الحديث أيضا هتف بأمجــاد الفراعنة وأشاد بعلومهم وحضــارتهم وتفــوقهم ، وغنى للأهرام

---

(١) الفونسى دى لامرتين ، شاعر فرنسا العظيم وكان كاتبا وخطيبا سياسيا ومجاهدا فى سبيل الحقوق المهضومة والمدافع عن الحريات فى كل قطر محــروم منها ولد ١٧٩٠ ومات ١٨٦٩ •

(٢) كتاب شعراء مصر وبيئاتهم : ص ٢٤ للكاتب الكبير عباس محمود العقاد •

وأبى الهول ولآثارهم الخالدة ، ودعا قومه أن يسيروا على نهجهم فى العلم والمعرفة حتى يصلوا مجدهم بأمجاد الفراعنة السابقين جدودهم وحول تيار الكراهة عنهم فى عصرنا الحديث ، بعد أن استبعدنا وهم التفسير الخاطىء للدين ، فصببنا جام الكراهية عليهم ، وأخذناهم جميعا بجريرة فرعون واحد طرد موسى وبنى اسرائيل من مصر •

ويعد اسماعيل صبرى بحق أحد أقطاب حركة التطور فى الشعر العربى الحديث التى طلعت فى سماء الشعر طلوع الفجر الجديد ، وكان رائدها الأول محمود سامى البارودى ، فقد اخرجت الشعر من ظلمات الهاوية التى تردى فيها أكثر من خمسة قرون ، تلفه أكفان الصنعة ، وجدب القرائح وفساد الذوق ، الى نور الفطرة السليمة ، وبهجة الديباجة ، وصحة التركيب ، بموهبة ثرة ، واستعداد فنى وأدبى متين •

كما واتجهت باسماعيل صبرى موهبته الشعرية وثقافته الأوربية القانونية ، وتكوينه الفنى والأدبى الى رحاب الكلاسيكية ، فبدأ بها شعرنا الحديث طورا جديدا من جلال الصياغة ورنين الموسيقى والاطار الأسلوبى القديم لتعبر عن عواطف الشاعر وتجاربه أو تتصل بأحداث عصره صراحة أو رمزا ، ورغم أنه تمثل القديم ورمز به لعواطفه فى بعض أشعاره الا أنه احتفظ بشخصيته وأثار به جوانب عصره فرد الى الشعر العربى أساليبه الناصعة التى كادت أن تندثر ، يعبر بها عن الحاضر فى مجالاته المختلفة ، فيسحر بشعره الألباب ويأخذ به مجامع القلوب •

ومع أن اسماعيل صبرى عاش فى عصر البارودى ، ويعد من رواد مدرسته الشعرية ، بل قد تألق نجم البارودى وهو لا يزال

فى مهده ، ومع ذلك نحس عنده أنه لا يجرى فى أثره ، فقد كانا من طبيعتين مختلفتين .

فالبارودى كان يعنى بمعارضة القدماء ، ويحاول أن يتخذ لنفسه اطارهم الجزل الرائع ، وان يعيد للشعر سيرته القديمة من خلال الأسلوب وفخامته ، ولذلك لم يكن فى قرض أشعاره تاركا نفســه على سجيتها ، بل يأخذها بمحاكاة القــدماء ويعلن ذلك اعلانا ، وما زال يحاكيهم حتى أطرد له أسلوب قوى رائع يلائم فيه بين القديم والجديد . فهو يحافظ على الصياغة التقليدية والفصاحة والجزالة والرونق والرصانة ، وهو يجدد فيضمن شعره خواطر نفســه وشجونها وأحــداث بيئته وشئونها ، وبذلك اســتأنف البارودى لشعرنا العربى حياته الخصبة القديمة وهى حياة تقــوم على التمسك بالأصول التقليدية من جهة ــ (فالبارودى يبقى عليها بل لا ينحرف عنها لا فى وزن ولا صياغة ولفظ) ــ وتقوم من جهة أخرى على تصوير البارودى لذات نفسه وعصره والظروف الكثيرة المختلفة التى أحاطت به وأثرت فى شعره وقد تبعه حافظ وشوقى فسارا فى نفس الاتجاه .

أما اسماعيل صبرى فبدأ حياته مقلدا ، ولكن لم يكد يتقدم به سن الشباب حتى ذهب الى فرنسا فى بعثة ، فدرس القانون وعاد من بعثته ليتقلب فى المناصب القضائية المختلفة حتى صار وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) ، فحياته كانت سهلة ميسرة ، وانحرف منذ نضجه الفنى عن طريق البــارودى وصاحبيه شوقى وحافظ، فلم يكن يعنى مثلهما ومثل أستاذهما لمحاكاة القدماء ، بل كان يرسل نفسه على سجيتها ، فالشعر ينبغى أن يكون صورة لصاحبه قبل أن يكون صورة القدماء ، وينبغى أن يعبر عن حياته وأفكاره بدون معوقات من ألفاظ بيانية أو أساليب قديمة ، وحسب الشاعر أنه

ينظم البيتين والأبيات القليلة ، ويسجل خاطرة أو لمحة أو معنى من المعانى ، ولذلك لم يكن من أصحاب القصائد الطوال ، وانما كان من أصحاب للقطعات والقصائد القصار .

وكان شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحوير فيه . حتى اذا استقام على ما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه . ورغم أن صبرى تفكه فى شعره بعض الشىء ولكنه لم يعرف الفكاهة الخالصة التى تنتهى الى الضحك ، لا تتجاوزه الى شىء آخر ، وانما عرف هذه الفكاهة التى تصدر عن النفوس المحزونة الكئيبة ، فتدفع الى الضحك والى الاغراق فيه ، ولكنها تعقب مرارة مستقرة مؤلمة . لأن حياة هذا الشاعر الرقيق الأنيق المترف لم تخل من صراع صامت ، فيه شىء من العنف الأليم بين نفس قوية ذكية ، وأسباب للرقى والسؤدد لا تكتفى بالنبوغ والتوثب ، وانما تريد اليها خصالا أخرى من النفاق والمصانعة ، والتقرب الى الحكام وأنصار الاحتلال البريطانى الجاثم بكابوسه على البلاد فى ذلك الحين ، ولم يكن من طبيعة الشاعر الحر الأبى أن يتصف بهذه الخصال . فقد تنقل فى المناصب القضائية – كما ذكرنا سابقا – حتى اذا انتهى الى وكالة وزارة العدل ، وأصبح تجاوز هذا المنصب فى ذلك الوقت رهينا بشىء آخر غير الكفاءة والامتياز !! وقف الرجل عنده ولم يتجاوزه ، ونظر ذات يوم فرأى أترابه وولدانه يصاعدون من حوله الى مناصب الوزارة ، وفيهم من كان دونه علمـــا وثقافة وخبرة ، ولعل نفسه أحست بعض الميل الى هـــذا الصعود ولكن الأسباب لم تمد له ، أو مدت اليه فلم يستطع أن يأخذ بها اباء وحياء . كما كانت هناك أسباب أخرى تدفع للأسى وهى تنكر ذوى قرباه رغم ما مد لهم من أسباب الوفاء ومهما يكن من شىء فقد استسلم صبرى للشـــعر ، ولكن فى قصد واعتدال . فلم يتخذه صناعة ولم يتخذه أداة للتفوق به على غيره ، ولم يتوسل

به للكسب أو ابتغاء غرض ، ولم يتوسل به للرقى ، ولكنه مع ذلك مدح ورثى وجامل مؤديا للحق أو مشاركا فى الفن .

أهم الأغراض التى قال فيها الشعر :

أجاد صبرى فى الحب والموت والوطن وقصر فيما دونها .

١ ـ الحب :

فالحب هو أقوى العواطف وأقربها الى القلوب ، بل يقول الفلاسفة أنه أساس كل عاطفة حتى البغض ، ولقد كانت هذه العاطفة العامل الأكبر فى شاعرية هذا الشاعر الفذ ، فأوحت اليه بالأبواب الخالدة التى سوف يتمثل الناس بها ، لأنها كانت فى صدره عاطفة قوية راسخة خالصة من كل الشوائب ، بل كانت شاملة لكل ما تنطوى عليه من المعانى الكثيرة من المحبة الى الوداد الى التسامح والاخلاص والوفاء .

٢ ـ الموت :

حدق اسماعيل صبرى الى الموت مرارا ، فنظر فيه كثيرا واستوحاه الحكمة الرائعة ، بكلتا عينيه فكان تارة ينظر اليه قلقا وجلا فيقول :

أتزودت من ضياء البدور لليال كثيفة الديجور

وتارة ينظر اليه مرحبا مطمئنا فيقول :

يا موت ها أنذا فخذ ما أبقت الأيام منى
بينى وبينك خطوة ان تخطها فرجت عنى

وقد رسمت هذه العاطفة المزدوجة ، تلك الابتسامة الحزينة

على محياه حتى كأن الناظرين اليه ، يخالونها زفرة وقفت عند شفتيه ، ودمعة جمدت فى عينيه .

٣ ــ الوطن :

وقد تجلت عاطفته الوطنية بأجلى بيان ، فيما نظمه فى مصر ورجالها المخلصين ، وزعمائها الميامين ، وما نظمه فى أمجاد مصر الخالدة ، وعزيمة أبنائها وعظمتهم منذ آلاف السنين . وكان يدعو المصريين الى اقتفاء آثارهم .

مستنجدا من بنى مصرأولى شمم   اذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبروا

وقد وصف آثار مصر الرائعة ، وصــفا تتمشى العظمة فى جميع أجزائه ، ولا يتمالك من يقرؤها عن هزة اعجاب تدفعه الى السير قدما فى طلب العلا واقتفاء آثار الأجداد .

أما أثر تلك العوامل الثلاثة فى شعره ، فكان أطيب الأثر ، أكسبته من روعة المعانى ورقة العواطف جمالا زاد سناه حسن الديباجة وفصاحة اللفظ ، فكانت السلاسة والعذوبة والانسجام وسلامة الذوق من العوامل اللفظية فيما نظمه من القصائد وما وضعه من الأغانى ، التى كانت مصدر ــ البهجة والطرب أيام كان يتغنى الشعب بها فى مجالس أنسه وطربه .

وهكذا فالحب والموت والوطن . هى العوامل التى كانت تحرك فيه الشعور الفياض وتنطقه بالحكمة الرائعة وتثير فى صدره الحماسة الشريفة .

وقد كانوا يلقبونه بلقب « أستاذ الشعراء » آنا وآنا « شيخ الشعراء » لأنه كان المثال المحتذى والعلم يهتدى به ، ولمكانتــه الاجتماعية ومركزه القضائى المرموق ، ولامتيازه وتفرده بالمناقب

السامية والشمائل الصافية ، وبعده عن الصغائر وسموه عن الدنايا !!!

شعره الوصفي :

لم يصلنا من شعره في الوصف الا مقطوعات قليلة جدا ، وهـذا غريب من شـاعر رقيق امتاز بخفة الروح ورقة الحس ، كأنه لم يولد بالقاهرة على ضـفاف النيل ، وتنقل بين ربوعه وأرباضه فشهد من روائع لوحاته وعظيم مشاهده ما يبهر الطرف في الاصـباح والامسـاء . تشرق عليه الشمس فتنبعث الألوان زاهية ترقص على أمواهه وتختال بين الظلال من خـلال النخيـل الباسق وتغيب عنه فتسبح العين في سحب رقيقة تحيط بقرص الشمس الحمراء وهي تحتضر مع المغيب ، فتعيش النفس في سحر مثير ووحي جميل .. !

وتمتد الصحراء المنبسطة الى غير نهاية على شطآن النيـل ، وتنعكس عليها أنوار الشمس ، وتضيع في طياتها ألوان السراب فتبدوا كأنها الأبدية أو كأنها البساط الذى يغطى أرض مصر في رفق ودعة ، وسحر وفتنة . أو كثيرا ما تحفل الصحراء من جليل الآثار وعظيم المعابد ؟

ولبحر الأبيض المتوسط يتلقف مياه النيل العذبة ، ويبتلع ما يحمل اليه هذا النهر ، فيسكر البحر بالغذاء والنماء ، ويظل أبدا بين مد وجزر ، يقبل أقدام مصر ويرتد عنها ليعود اليها ، مسحورا مفتونا .. وهذا كله مساعد للوحي والالهام . كل هذه المشاهد الخلابة ، باعثة على الشعر ، جديرة بالخيال ، خلدت منذ فجر الانسانية وشباب الدنيا شعراء وكتـابا وفلاسـفة وفنانين كانوا مفخرة التاريخ المصرى وقلادة الثقافة الانسانية .

وكل هذه المشاهد كانت جديرة بأن توحي الى الشاعر المصري المعاصر لوحات تخلده بين أقرانه ، فيها اعتزاز بالقديم ، وفيها جمال وفتنة تحركان النشوة في النفس والموسيقى في الشعر والفتنة في القول ، ولكنها مع ذلك لم تبعث في شاعرنا اسماعيل صبري الا أبيات متفرقات انفلتت من لسان الشاعر ، فكأن الطبيعة لم تنقش في ذهن هذا الشاعر ذكرى قوية الا كما ينقش الأزميل في الماء أو القلم في الصحراء !!

ومع أنه تنقل في عمله بعض التنقلات المحدودة ، تبعا لظروف مناصبه القضائية والادارية التي توزعت عليها مسئولياته ، أثناء عمله بوزارة العدل ، ولكنه كان يستقر أغلب أوقاته بالقاهرة وفيها قصره المنيف ، وناديه الأدبي الوثير ، ومجمع الأصدقاء والخلان ، فمر بالأزبكية والخليج المصري ، ورأى الماء والشجر يتعانقان ، ثم وقف على الجسور يشهد النيل والأنوار ترقص على أمواهه ـ ألم يثر فيه ذلك أية قافية ؟

حتى يخيل لقارىء الديوان أن شاعره عاش في المقهى أو في منزل الامام محمد عبده ، أو أخلد الى بيته أو دار الكتب !! فلم تكتحل عيناه بمشهد الفلاح يغترف ماءه من النيل ، أو منظر الفلاحات يحملن جرارهن على رؤوسهن في طول فارع وقامة فاتنة ولم يخلبه مرأى القوارب على النيل أو مشهد الأشرعة ينعكس عليها نور الشمس أو ضياء القمر فترسم أبرع اللوحات الطبيعية وكأنه لم يسهر ليلة على ضوء البدر يرسل نوره على عشرات المآذن ، وهي كالمسلات المزروعة في قلب الأحياء ينعكس عليها الضياء وتنبثق من خلاياها صيحات الايمان في جوف الليل .

كل ذلك لم يكن لصبري اليه من سبيل ، كأن الطبيعة لا تحدثه ولا يحدثها ، أو كأنه وهب خياله وشعره للمصريين يناضل عن عيشهم بلسانه ، يهنىء البعض ويجامل البعض ، أما هؤلاء الذين

كانوا يقعون فى ساحات الموت من أصدقائه ومن الأفذاذ من بنى قومه فكان يبكى لبعدهم عن ميدان الكفاح وقد جالوا فيه وصالوا فيترحم عليهم ويسجل مآثرهم ، ثم ينبرى الى نفسه فيجد فى الموت مهددا لا يبعد أن يقرع البـــاب وما هو الا أن يستجيب النداء ، فهى سنة الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(١) وقال الشاعر حافظ ابراهيم فيه :

(صبرى) استثرت دفائنى وهـــززتنى
وأريتنى الابداع كيف ينســق
فابحت لى شكوى الهوى وســـبقتنى
فى مدح (عباس) ومثلك يســـبق

وفى سنة ١٩١٣ قال فى شوقى وصبرى وهو يهنىء خليل مطران :

وتلونا آيات شوقى وصبرى ... فرأينا ما يبهر الأفهاما
ملآ الشرق حكمة وأقامــا ... فى ثنايا النفوس أنى أقامـا
غنيا المشرقين ما تـرك الأفلا ... ك حيرى وأذهل الأجرامــــا
وأعادا عهد الرشيد لعبا ... س فكانا يراعه والحساما

★ ★ ★

وقد نشر اسـماعيل صبرى بواكير شعره فى مدح الخـديو اسماعيل وهو طالب بمدرسة الادارة بالعدد رقم ٢٠ من الســنة

---

(١) من كتاب شاعر الشعب ص ١١٢ تأريف الدكتور سامى الدهان .

الأولى (١٨٧٠) بمجلة (روضـة المـدارس) (١) ، فى قصيدة مطلعها (٢) ·

سفرت فلاح لنا هلال سعود ونوى الغرام بقلبى المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد رقم ٥ من السنة الثانية (١٨٧١) قال فى مطلعها (٣) ·

أغرتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية استهلها بقوله (٤) :

لا والهوى العذرى والوجـد عذل عذولى فيك لا يجدى
انى مع الصد وطول الجفا باق على الميثاق والعهد

وتعتبر مجلة روضـة المـدارس من المجـلات الأدبية الرائدة فى الربع الأخير من القرن الماضى ، فقد شجعت نبهاء التلاميذ بنشر قصائدهم المبكرة على صفحاتها ومنهم « الشاب النجيب اسماعيل أفندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الادارة (وقتذاك) وكان ينشر صبرى قصائده أيضا فى جريدة الوقائع والمؤيد · وكان يذيل كثيرا من قصائده بتوقيع الشاعر المصرى القديم بنتاؤر ·

---

(١) مجلة روضة المدارس أنشأها العلامة على مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان وزيرا للمعارف ، وهى من أجل أعماله ·

(٢) غاية شوال سنة ١٢٨٧ هـ ·

(٣) ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ ·

(٤) ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ ·

(٥) أنظر ص ٣٤٧ · كتاب عصر اسماعيل جزء ١ لعبد الرحمن الرافعى ·

اهم المؤثرات التي تأثر بها :

أولا : قراءته في سن مبكرة ديوان ابن الغارض ، كما كان معجبا بشعر البحتري ، مدمنا لقراءته ، مفضلا له على غيره من الشعراء ، وقد روى عنه أنه حين قرأ ديوان البحتري ، خيل له انه لم يقرأ شعرا قبله ولذلك يعقد الدارسون مقارنة بين قصيدة البحتري في الخليفة المتوكل والتي مطلعها :

اخفى هوى لك في الضلوع وأظهر
وألام في كمد عليك وأعذر

ومن قصيدة اسماعيل صبرى في الخديوى عباس حلمي الثاني التي يقول فيها :

بعلاك يختال الزمان تبخترا وبقدرتك يتيه تكبرا

وقد ذهب البعض الى حد استقصاء المعاني والألفاظ في شعره في مقارنة له بشعر البحترى وابن الفارض ، ومع ذلك فاننا حين نقرأ شعر اسماعيل صبرى نجد أنه يذكرنا في أماكن مختلفة بشعر الشريف الرضى في عفته وسماحته . والبهاء زهير في خفة روحه وسهولته ، وابن الفارض في صفاته وصدقه وشفافيته ، والبحترى في ايقاعه الموسيقى وجماله ورقته وليس معنى هذا أننا نذهب الى البحث عن شاعرية اسماعيل صبرى في هؤلاء من شعراء العرب وفي لامارتن شاعر فرنسا الكبير ، وانما نقف كما وقف الدكتور محمد مندور عند حد تسجيل التجاوب بينه وبينهم وذلك بقول

« تأثيرهم فيه لا يعدو ان يكون قد عزز اتجاهات نفسه وساعد على نمو البذرة التى فطرت فيه » .

ثانيا : تأثر شعره الوطنى بالنشاط السـياسى العظيم الذى قام به الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل ، وتابعه منـذ نشأته وهو طالب بمدرسة الحقوق الخديوية يرتاد النـوادى الأدبية والسياسية حتى سطوع نجمه فى سماء الحياة السياسـية ووفاته فى ريعان شبابه ٠

ثالثا : ارتياده الصالونات الأدبية التى تعقد فى منازل الأميرة اسكندرة أفيرينيو بالاسكندرية وصالون الأديبة الكبيرة مارى خير زيادة (مى) بالقاهرة ، ما عدا صالون الاميرة نازلى فاضل فلم يتصل به ٠ لأن اللورد كرومر كان من المترددين عليه ، وخشى أن يرتاده فيظن به أنه يتقرب للاحتـلال ؟ وهو الأمر الذى يتجنبه ويحاربه ؟

آراء النقاد فى الفن الشعرى لاسماعيل صبرى

قال الأستاذ الكبير المرحوم عباس العقاد (١) في شعر صبرى: « ان شعره لطيف لاتعمل فيه ، ولكنه كذلك لاقوة فيه ولا حرارة ، وان شئت فقل : أن أدب الرجل كان أدب الذوق ولم يكن أدب النزعات والخوالج ، وأدب السكون ، ولم يكن أدب الحركة والنهوض وأدب الاصطلاح الحسن ، ولم يكن أدب الابتكار الجسور » وضرب مثلا على أن صبرى ناعم يمثل الترف فى حزنه وحماسته وعاطفته ، وأنه تنقصه الحرارة والانفعال والعاطفة بقوله « اذا قال شاعر أن عزيمة البطل الممدوح تصدم الصخر الأشم فتهده وتمهده ، قال صبرى أن عزيمة بطله تلامس الصخر فتنبت فيه الأزهار .

وعزيمــة ميمونة لولا مست صخرا لعاد الصخر روضا ازهرا

ويقول بعض النقاد أن صبرى شاعر مقلد ، لم يوهب تلك الملكة الشاعرية المبدعة المبتكرة وأنه كان قصير النفس ، لايستطيع نظم القصائد الطويلة ، وأنه لم يكن شاعرا محترفا انما كان يقول الشعر لخطرات ترد على ذهنه . **وقد وصف الشــاعر(٢) الخالد**

---

(١) كتاب شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٣٤ بقلم عباس محمود العقاد .

(٢) ديوان اسماعيل صبرى باشراف الاستاذ أحمد الزين .

خليل مطران الطريقة الفنية التي يجرى فيهـــا اسماعيل صبرى في نظمه فقال :

« أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدهما أو خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه ، ولما كان لاينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه اليه ، فالغالب فى أمره أن يقول الشعر متمشيا • وربما قاله فى حضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنة تمثل ما تنطق لفظة « ايه مستطيلة » • ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى ستة ، وقلما يزيد على هذا المقدار الا حيث يقصد قصيدة وهو نادر •

شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحويل فيه ، حتى اذا استقام على ما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسبه ، وهكذا يمر به الان بعد الان فيجيش فى صدره الشعر فيرسل ببيتيه ، كما يطلق انسان زوجى الطائر فى الفضــاء فيذهبــان فيه ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتمعة ، شاديين على توقيع العروض الى أن يتواريا وينقطع نغمهما ••• ذلك هو الشعر للشعر » •

وقال عنه المرحوم الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى (١) :

«ولم يكن فى مصر مما يحس ذوق البيان ، ويميز أقدار الالفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودى وصبري وابراهيم المويلحى والشــيخ محمد عبده رحمهــم الله جميعا ••• والبــارودى يذوق بالسليقة ، وصبرى بالعاطفــــة ، والمويلحى بالظــرف ، والشــيخ محمد عبده بالبصــيرة النافذة •• وذلك شيء ركبــه الله فى طبيعة صبرى ولم يحصله بالدرس أكبر مما حصله بالحس ، ومن أجله

---

(١) عدد المقتطف مايو سنة ١٩٢٣ •

كان يفضل البحترى على غيره «ويقول الشاعر أحمد محرم عنه(١)»:

« وصبرى منذ القديم شاعر مقل ، فهو لا يستطيع المطولات ، ولايكاد يجيدها وقد نضجت شاعريتـه فأبدع فى مواضع كثيرة ، ولكنه بقى الشاعر المحدود • والفنان الذى يأخذ من الفن مايعجبه • ويأبى أن يعطيه ما يحبه وما يرضاه » •

« فصبرى شاعر مقل ، لا يكاد يجيد المطولات ، وذلك لأنه لم يحترف الشعر وان أراد أن يكون شاعرا معروفا » •

ولم يكن شعر صبرى أول عهده بالأدب يبشر بشـاعر مقتدر يحدث أثرا يذكر فى عالم الشعر وأرى أن صبرى على الرغم مما أسبغ عليه معاصروه من ثناء ومديح ، وما أطروا به شعره ـ ولاسيما ذلك الذى قاله بعد عودته من فرنسا ـ وعلى الرغم من أنهم كانوا يلقبونه تارة بالرئيس وتارة بشيخ الشعراء ، من أنهم أثنوا على صـدق عاطفته ودقة معانيه ورقتها لم يأت بجديد يذكر فى عالم الشعر ، وأنه فهم الشعر كما كان يفهمه الشيخ على الليثى وان كان أجود منه لفظا وأحسن معنى وأفتن ديباجة) •

ونحن لانستطيع أن نقر الشـاعر أحمد محرم على نقده هذا لشعر صبرى فان فيه لغمطا وأن فيه لكثيرا من الانتقاص، ولا نوافقه فى أنه كان يفهم الشعر كما كان يفهمه الشيخ على الليثى لأن ذلك فيه انكار كبير لموهبته وشاعريته وعنت بالغ برجل كان امام الشعراء وقبلتهم فى عهده •

ولنسمع الآن رأى عميد الأدب العربى والكاتب المبدع الكبير الدكتور طه حسين فى شعر صبرى وشاعريته (فى مقدمته لديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨) :

---

(١)مجلة أبولو سبتمبر سنة ١٩٣٤ •

« ان نشر هذا الديوان يرد الى التاريخ الأدبى فصلا من فصوله القيمة ، وما أحب أن يظن بى الغلو فى ذلك أو الاسراف ، فقد أجمع الجيل الذى عاصر صبرى على أنه كان شاعرا ممتازا ، وعلى أنه كان علما من أعلام الشعر فيه ، ولم يكن هذا الجيل يذكر الشعراء الممتازين الا ذكر معهم صبرى ، فكانت الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث اذا ذكرت لم تخل من ذكره ، وقد يكون الجيل مصيبا وقد يكون مخطئا ، ولكن الحقيقة الواقعة أنه كان يضع صبرى فى هذه الطبقة ، لا يختلف فى ذلك ولا يجادل فيه » (١) ٠

وقد ذكر فى مقدمته الطويلة للديوان ، ان اسماعيل صبرى بدأ شعره مصطنعا ألوان البديع مثلما كان يصطنعه الشعراء فى عصره ، متكلفا أحيانا ، معتدلا أحيانا أخرى ، ومع ذلك فقد امتاز شعره بخفة الروح ورقة الحس ودقة الخيال وامتياز الطبع وحدة المزاج وارتفاع الذوق ٠

وعن شعره السياسى ، فانه يمثل الروح المصرى الذى نعرفه فى شعر حافظ ابراهيم وأحمد شوقى ، ونعرفه فى حياة الجيل كله، هذه الوطنية الطامحة الى مثل أعلى غير محدود » وساق بعض الأبيات (تدليلا على ذلك) من قصائده الوطنية ٠

★ ★ ★

وقد غصت جميع الكتب التى تعنى بالأدب والشعر ، سواء كانت كتب عامة أو مدرسية باعتراف أغلب الشعراء (الذين عاصروه) له بالصدارة وبصفة خاصة أعلامهم فى العهد الحديث وهم شوقى وحافظ ومطران ، وذلك واضح فى مراثيهم له فى ذكرى الأربعين ، والاعتراف سيد الأدلة (كما يقولون) ٠

---

(١) مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع فى سنة ١٩٣٨ ٠

وقد أتاحت الظروف لأحمد شوقي أن يتصل بأستاذه الكبير في وقت مبكر ، وأن يتردد على داره التي كانت منتجعا لكثير من شعراء عصره ، منذ أن كان موظفا في قلم السكرتارية بقصر الخديوي ، يعرض شعره على أستاذه « فيبصره بكل غميزة يجدها فيه ، من لفظة قلقة ، أو معنى متهافت أو صورة سوقية ، ومازال شوقي يعالج شعره تحت اشراف استاذه ؛ حتى استوت عنده ملكة الفن ، ودان له سلطان القريض وأصبح لا يشعر بحاجته الى مراجعة أستاذه » .

ولا يؤثر ذلك في شهرة شوقي بعد ذلك وبلوغه شأوا عاليا في مضمار الشعر حتى غدا أعظم شعراء مصر بل أميرهم في العهد الحديث .

وقال عنه انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام

كانت القوافي تجول في خاطره فتصغى اذنه لحفيفها ، فيوقع نغمها ايقاعا شائقا .

واذا ماذكر اليوم أو غدا اسم صبري في عالم الأدب ، وجدناه كالشمس التي تترك وراءها شفقا ذهبيا ، تاركا أشعة من رواء المعنى وصفاء المبنى ، ولكنه الشاعر الذي لايبهرك نور شعره ببريق خاطف يؤذي عينيك ، بل يبسط عليك من على مهل فيشملك بهالة من اللمعان لذلك لاتجد في شعره ماقد نجده في شعر غيره من التعب والعناء ـ لأنه ماتكلف نظم الشعر ، بل كان كلما هزته عاطفة ، يجود بمنظومة ربما لا تجاوز البيتين كالشجرة الناضجة الثمر تسقط ثمرة كلما هزها الهواء .

وقال عنه أيضا : ان شعره كالماسة الصافية الماء الطاهرة اللالاء السليمة من كل كدر وعيب ، ينسينا جمالها عناء من قطعها وصقلها

فنحن نقف عند جماله ناسين الشاعر وما لقى من عناء فى تصفية شعره ، وتخليص نظمه من كل شائبة » (١) ·

ويقول أحمد امين فى شعره : (٢)

كان يغار على شعره غيرته على عرضه ، لقد كان فى عرضه يحرص على أن يطيب فى المحافل نشره ويخلد فى الصحائف ذكره ويأتى بالمكرمات يملأ مسامع الدهر وتتناقلها ألسنة الشكر، يترفع عن النقيصه ، ويتصون عن الدنايا، وهو فى شعره مثله فى عرضه، يخاف العثار ويرهب النقد ويتحرج ان يأتى بغير ماهو الأولى ، وأن يصدر عنه ماليس بالأعلى ، ويعد البيت يصدر عنه كالعقل المشهور ، والأثر المأثور ، يجب الحيطة له والتوفر على الاحسان اليه· دعاه ذلك أن يتريث فى شعره ويتمهل فى صوغه ، يغوص على المعانى كالغوص على اللالىء ، ثم لايقنع بأية لؤلؤة بل لايرضى بها الا أن تكون غاية القصد ، وواسطة العقد ، فاذا عثر عليها تعب فى أن يتخير لها مسلكها ووقفها ، حتى تخرج كاملة ، يعجب بها الذوق الراقى والفنان الخبير ، فهو يتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف واللفظ القوى للمعنى القوى ، واللفظ الرقيق للمعنى الرقيق ·

ويقول فى موضع آخر :

« فما كنا نلقبه الا بلقب (أستاذ شعرائنا) أو (شيخ شعرائنا) لأنه كان مثالا يحتذى وعلما به يهتدى (٣) ·

---

(١) فى مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨ ·

(٢) فى مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨

(٣) كان اسماعيل صبرى مشهورا بلقب شيخ الشعراء ـ اعلام العرب ـ أحمد شوقى تاليف د· ماهر حسن فهمى ص ١١٥ ·

أما الأستاذ أحمد حسن الزيات **فيقول فى كتابه وحى الرسالة**

جزء (١) عن صبرى :

« أما صياغة حافظ ابراهيم فهى موهبته الأولى وهو فى ذلك ثانى الخمسة ، البارودى وحافظ وشوقى وصبرى ومطران » الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر وتحددت على صفتهم بلاغة القصيد » .

الباب الثانى

الشعر الوطنى والسياسى

- تنديده بالظلم والاستعمار الايطالى
- الدعوة الى مجد الوطن
- علاقة اسماعيل صبرى بالزعيم الشاب مصطفى كامل
- تمثال مصطفى كامل
- حادثة دنشواى
- دعاباته السياسية .

شعره الوطنى والسياسى

كان اسماعيل صبرى شاعرا وطنيا من الطراز الأول ، فهو فى شعره الوطنى يصدر عن شعور صادق غير متكلف ، وشعور طبيعى يرد من روحه المتشبعة بحب بلاده ، وتقدير كل مخلص فى الجهاد لأجلها ، ورغم أنه كان مقيدا بقيود الوظيفة ويشغل منصبا من مناصب القضاء – ومناصب القضاء على مانعلم من المناصب التى تلزم أصحابها تقاليد خاصة ، وقواعد معينة من السلوك ، أكثر مما تلزمهم بها أنواع المناصب الأخرى . فالقاضى محدود الحركات والصلات ومحروم من كثير من نواحى الحرية الشخصية التى يتمتع بها باقى الموظفين ، وبالنسبة لما لمنصب القضاء من وقار واحترام ، فان القضاة يؤثرون التضحية ببعض حرياتهم على أن يندمجوا فى المجتمعات العامة فيكونوا مثارا للشبهة أو الاشاعة لذلك لم يخض اسماعيل صبرى غمار السياسة كما خاضها حافظ وشوقى ، وان لم يقل عنهما وطنية ، ينم عنها ما قاله فى بعض الحوادث التى هزت مشاعره هزا عنيفا فلم يجد من القول بدا .

والملاحظ فى شعره السياسى أنه مدح الخديويين جميعا اسماعيل وتوفيق وعباس وحلمى وحسين كامل فقط ، ولم يمدح السلطان عبد الحميد أو سواه من الأتراك بينما نلاحظ أن كثيرا من شعراء المدرسة التقليدية الحديثة مدحوا السلطان عبد الحميد

أمثال حافظ وشوقي وعبد المطلب ولسنا نرى أن امتناعه عن مدح عبد الحميد راجع الى خشيته من الانجليز وهو الموظف الكبير فى الحكومة المصرية التى تسيطر انجلترا على شئونها ، والتى كانت تسعى سعيا حثيثا لقطع الصلة بينها وبين تركيا حتى يخلو لها الجو، وتثبت أقدامها فى وادى النيل ٠

وقد عرف عنه طيلة حياته ، أنه كان موظفا أبيا ووطنيا معتدا بذاته ٠ ووطنيته صادرة عن جذور عميقة فى تكوينه ، فهو لم يخش الانجليز ولم يسع للتقرب اليهم ٠ عزوفا عن المناصب الكبيرة اذا كان سبيله اليها التنكر لمبادئه الوطنية ، وليس أدل على ذلك أنه يوم كانت دار السفارة البريطانية مقصد الكبراء والعظماء ، لم يفكر يوما فى زيارتها ، ولا تلبية لدعوة الحاكم الانجليزى الأعلى للبلاد آنذاك وهو اللورد كرومر ، الذى طالما استماله الى زيارته ليكسبه الى صف المناصرين للاحتلال ٠

ورغم ان اسماعيل صبرى كان طموحا الى المجد ، ويشعر أنه مغموط الحق وأن من هم دونه ثقافة ومناقب قد وصلوا الى مناصب الحكم ، فقد أبى أن يصل الى هذه المناصب عن طريق لايتفق مع علو نفسه ، ونبل خلقه ٠

وقال عنه أحمد الزين :

« وقد قيل له لما استعصم وأبى زيارة اللورد كرومر ، لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيسا للوزراء قال : وما تفيدنى رئاسة الوزارة غير اغضاب ضميرى وارضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه » ٠

قصيدته فى خلع السلطان عبد الحميد

« والذى لاشك فيه أنه لم يكن راضيا عن حكم عبد الحميد واستبداده ، وكان ينظر الى مصر وأهلها في الاستقلال نظرة قومية. فلا يمدح الا أمراءها الذين تولوا الملك ، شأن الرجل المستنير الراغب في نهضة بلاده ، مستقلة عن كل نير أجنبى والبرهان على ذلك قوله بمناسبة الانقلاب العثمانى وخلع السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد الخامس سنة ١٩٠٩ **فى قصيدة مطلعها** » :

يانااظر الترك قد فارت مراجلهم
بين الدروب وفى عرض الميادين

قل للبراكين كفى نحن فى شغل
ذا اليوم عنك ببركان البراكين

هل الجبال الرواسى عندها خبر
بما تصدع من شم العرانين

وهل رأى النسر شيئا في السماء حكى
ماهز يلدز من باس الشواهين

قالوا :

لقد خر من صرح العلا وهوى
ذو السلطتين ورب الكاف والنون

اهول به صيحة فى الكون قاصفة
تزلزل الأرض من حين الى حين

وتقشعر لها التيجان من فزع
فوق العروش على هام الخواقين

تا لله ان صدقوا فى قولهم كذبت
القاب ذو الملك من عز وتمكين

ثم يعتبر ذلك عظة بالغة لكل حاكم مستبد ، فيقول لعبد الحميد :

(عبد الحميد) سيحصى ماصنعت غدا
من الآثــام ويلقى فى الموازين
ان يرجح الخير ـ نعم الخير من عمل
دخلت فى زمرة الغر الميــامين
أو يغلب الشر ـ لا كانت عصابته
عددت في صرحه أقوى الأساطين
ان لم تكن ـ لاثناك الدهر عن أمد
شيخ السلاطين كن شيخ الفراعين
لا يرهقنك حكم الناس فهو غدا
مستأنف عند سلطان السلاطين

ثم يعود اليه ذاكرا أفضــاله

يا مقفر الملك الا من جـــلالته ... وملبس القوم ثوب العز والهون
وجاعل الأمر والأحكام بينهــم ... سر الملائك أو سر الشياطـين

كما لا نراه يهلل ويكبر ، حين تعلن تركيا الدستور فى سنة ١٩٠٨ ، فما الذى يعود على مصر من ذلك ، اذا لم تنل هى الدستور وحكم الشــورى ؟ فليست مصر فى نظره مقاطعة عثمانيــة ، حتى ينالهـــا ما نال تركيــا ، ولكنها محكومة حكما غريبا ، تتنازعه سلطتان ، وأهلها يعانون الاستبداد والبغى ٠

لذلك كان شعره فى هذه المناسبة استنهاضا للأمة المصرية للتشبه بالأمة التركية فى المطالبة بالحكم النيابى ٠

يا مصر سيرى على آثارهم وقفى ... تلك المواقف فى أسنى مجاليها
لا يؤيسنك ما قالوا وما كتبوا ... بين البرية تضليلا وتمويهـــا
ان يمنعوا الناس من قول فما منعوا ... ان ينطق الحق بالشكوى ويبديها
الحق اكبر من أن تستبد بــه ... يد وان طال فى بطل تماديهـــا

ما ضـيع الله ظلما أمة نهجت | **الى المفاخر نهجا وهو هاديهـا**
فقلدوا الأمة الكبرى وقد ركبت | **متن الفخار وكان المجد حاديهـا**
تماسكت وهى شتى فهى واحدة | **في القصد حين رأت كثرا أعاديها**
يا آية الفخر هلا تنزلين ـ كما | **نزلت ثم ـ على مصر وأهليهـا**
كيما تجر ذيولا منك جرهـــا | **من قبلنا الترك فى أوطانهم فيها**
(يا عابدين)لأنت اليوم مصدرها | **وفى ذراك ـ باذن الله ـ موحيها**

كما لم يكن اسماعيل صبرى راضيا أيضا عن الاحتلال البتة ، رغم أنه لم يفصح عن ذلك علانية فى قصائده ، وان دلت مواقفه العديدة على الوطنية المضطرمة بين جوانحـه وان لم يعلن عداءه لانجلترا سافرا فاننا كذلك لا نستطيع أن نمسك عليه أى سقطة فى شعره الوطنى ، أو منحرف انحرف اليه كما انحرف غيره من الشعراء فى مدح الدولة المحتلة أو التزلف لها !!!

تنديد بالظلم والاستعمار الايطالى

منذ ان بدأت أوربا السعى الى اقتسام افريقيا ، ورأت ايطاليا أن انجلترا وفرنسا صارتا صاحبتى النفوذ فى مصر وتونس ، قويت أطماعها فى طرابلس ولم تأت سنة ١٩١١ حتى أغارت عليها تريد انتزاعها من تركيا ، ولما نشبت الحرب ، قال الشاعر قصيدته التالية يندد فيها باعتداء ايطاليا على طرابلس (ليبيا) ويندد بما فعلته من الغدر ونقض العهود والمواثيق ·

ثم يندد بالامتيازات الأجنبية التى منحتها الأمم العربية للمستعمرين ·

بعض هـذا الجفـاء والعدوان ... راقبى الله أمـة الطليـان
قد ملأت الفضاء غـدرا وجهـلا ... وتسنمت غـارب الطغيـان
وبعثت السفين ترمى طرابلـ ... ـس بحرب مشبوبة النيران
تخرق البحر والمواثيق والعهـ ... ـد جهارا وذمـة الجيران
سيرتها أضغان قـوم لقـوم ... سلموا من دناءة الاضغـان
من رآها تجرى توهـم ان الـ ... قوم هبوا للثأر للاوطـان

الى أن قال :

ليست الحرب للعدو الذى بـا ... ت عزيزا بالرجل والفرسـان
انما الحرب للألى حفظوا العهـ ... ـد فنامت جيرانهم فى أمـان

وأباحوا أبوابهم حاتميـــــا ت لمن أمهم من الضيفـــان
وأنالوهم حقــوق بنيهـــم فعل أهل المعروف باللهفـــان
ويحهـــم ما لصنعهم أبطـر القو م فعقوا ما كان من احســـان
ولماذا تمخض السلم عن حـر ب لظاها يشوى الوجـوه عوان
منح قد بذرن فى شر أيد كن مذكن منبت الكفـــــران
هكذا فلتك المروءات فى عصـ ـر البهاليـل من بنى الرومان

وله قصيدة آخرى قالها فى سـنة ١٩١١ يذكر الايطاليين بمصرع الدولة الرومانيـة فى ررما ، حـين طغوا وغرهـم المجد والسلطان واتساع الملك فظلموا وبغوا حتى زالت دولتهم وقال فى مطلعهـا :

يا بنت روما لا تلومى كمـــا كانت أثينا بين قيل وقـــال
دفنت عدل الله فى أرضـــــه فاستوثقى من شر ذاك المـآل
أهلك قــوم يبحثون الدمـــى ويزجرون الطير طير الخيـــال
لابدع أن طاروا بألبابهـــــم وأصبحوا من غيهـــم فى خَيال
هذى طرابلس وأبناؤها الشجـ ـعان يزجون صفوف القتـــال

الى أن قال :

حلمت يا ليث ولما تثـــــب فازأر فقد حان وضوح الهلال
فى يدك المنجل فاحصد بــه أعمار أقوام طغـــوا فى الضلال

وترى الشاعر فيما قاله فى حرب (طرابلس ايطاليا) لا يصدر عن عاطفة دينية حادة كما يصدر شوقى مثلا ، وكما كان يشعر كثيرون من شعراء ذلك الجيل ـ وانما كان ينظر الى هذه الحادثة نظرة انسانية ، فيها اعتداء قوى مدجج بالسلاح ، على ضـعيف أعزل ، وفيها تنكر للمثل العليا الانسانية وفى هـذه الآبيـات يتسامى الشاعر الى مراتب الفكر الحر العالى .

الدعوة الى مجد الوطن

حث الأمة المصرية على طلب المجد : وذكرها بماضيها . فى قصيدة عصماء قالها على لسان فرعون يخاطب قومه ونشرت فى سنة ١٩٠٩ .

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى
اذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
ولست ـ ان لم تؤيدنى فراعنة
منكم ـ بفرعون عالى العرش والشان
ولست جبار ذا الوادى اذا سلمت
جباله تلك من غارات الموانى
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا
فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة كدا دون مورده
أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم
لا تتركوا بعدكم فخرا لانسان
لا تتركوا مستحيلا فى استحالته
حتى يحيط لكم عن وجه امكان

ثم يذكر المصريين بمجد ملوكهم القدامى وعزمهم فيقول :

مقالـــة هبطت من عرش قائلهـــا
على مناكب أبطـــال وشـــــجعان

مادت لها الأرض من ذعر ودان لهـا
ما فى المقطـــم من صخر وصـوان

لو غير فرعون ألقـاها على مـــــلا
فى غير مصر لعـــدت حلـم يقظـان

لكن فرعون ان نادى بهـا جبـــلا
لبت حجارته فى قبضـــة البانـــى

وآزرته جماهير تســـيل بهـــــا
بطـاح واد بماضى القـوم مـــلآن

يبنون ما تقف الأجيـال حائـــرة
أمامه بين اعجـــاب واذعـــــان

من كل ما لـــم يلـد فكر ولا فتحت
على نظائره فى الكـــون عينـــان

اهرامهم تلك حى الفــــن متخــذا
من الصخور بروجا فوق كيوان (١)

قد مر دهر عليهـــا وهى ساخـــرة
بما يضعضع من صـــرح وايـــوان

لم يأخذ الليل منها والنهار ســـوى
ما يأخذ النمل من أركان ثهلان (٢)

---

(١) كيوان : اسم لكوكب زحل ، وهو لفظ معرب .
(٢) اسم جبل فى بلاد العرب (بلاد بنى عنبر بنجد) .

جاءت اليها وفـــود الأرض قاطبـــة
تسعى اشتياقا الى ما خلد الفانـــى

فصغرت كل موجـود ضخامتهـــا
وغض بنيانهـــا من كل بنيـــان

تلك الهياكل فى الأمصـار شاهدة
بأنهم أهل سبق ، أهل امعـــان

وأن فرعون فى حـول ومقـــدرة
وقوم فرعون فى الاقدام كفـؤان

الى أن قال :

اين الألى سجلوا فى الصخر سيرتهم
وصغروا كل ذى ملك وسلطـــان

بـادوا وبـادت على آثارهــم دول
وأدرجـوا طى أخبـــار وأكفـان

وخلفوا بعدهـم حربا مخلـــدة
فى الكون ما بين أحجار وأزمـان

وتصـور هذه القصيدة ما كان لمصر فى تاريخهـا القديم من جبروت وسلطان وما كان لعزائم أبنائها من حول وطول ، والقصيدة تعرض هذا فى منظر حى يقف فيه فرعون مصر خطيبا فى قومه ، مستعزا بهم ، واثقا من استجابتهم ، مطالبا اياهم أن يقوموا بحق النيل عليهم من الجد والعمل ، مناشدا اياهم أن يصلوا حاضرهم بماضيهم وأن يبنوا كما بنت الأجيال قبلهم ٠

هذه المقـالة التى هبطت من عرش قائلهـا لم تقع على آذان صماء ، ولا على عزائم واهنة ، ولكنها هبطت على منـاكب أبطال وشجعان استجابوا لها ، واستجاب معهم الصخر والجبل ، فلبت

حجارته ، وسال الوادى بجماهيره ، وارتفع البناء فى الفضاء فأصبح أعجوبة الزمان ، وحيرة الأجيال ، ومعجزة من معجزات الخلق والابداع ، والشاعر هنا حريص على أن ينصف الشعب ، وان ينفى عنه صفة الخوف والطمع وأن يثبت له صفات البر بفرعونه ، والرغبة فى الاجادة والاتقان · وليس أدل على هذه الصفة الأخيرة من تلك الأهرام ، التى وقفت على صفحة الأيام شامخة شموخ البروج فوق الكيوان تهزأ بالدهر ، وتسخر بما يضعضعه فى صرح وايوان واذا كان الليل والنهار لا يكران على شىء الا أبلياه فأنهما لم يأخذا منها الا بقدر ما يأخذ النمل من أركان جبل من الجبال ، وانها الوثيقة الخالدة لمجد مصر القديم ، تحج اليها الوفود من أقطار الأرض لتقرأ فيها أسطار العظمة والجلال ، ثم ترتد عنها وقد عرفت فضل المصريين بعد أن كانت تنكره ، وشهدت ما كان لهم من سبق وامعان ، ولو أن هذه الوثيقة استحالت صوتا ناطقا لأسمعت من به صمم من الأنس والجن ، بل لروعهم صداها بقوته ورهبته ·

أما عن الفن الشعرى لاسماعيل صبرى ، فانه بهذه القوة فى الاسلوب والاجلال فى النظم والتخير للعناصر الموحية بالعظمة ، عرض على الأذهان صورة لمجد الفراعين تبهر العيون والآذان ، وتثير فى نفوس الأحفاد شعور العزة والفخر بمآثر الأجداد وتوجه الوطنية المصرية الحديثة وجهة البناء والاتقان ، ولن يقوم لمصر بناء حتى تستكمل سيادتها وتسترد حريتها · (والحمد لله فقد تم للبلاد استقلالها وللأمة حريتها فى عهد الثورة المجيد) ·

وقد حشد الشاعر لهذه الدعوة الى الأحياء الوطنى كل ما شاء له فنه المتخير من موسيقى ولغة وصور بيانية ، فأما الموسيقى فانها تمثلت فى البحر الذى اختاره لقصيدته ، وهو بحر زاخر جياش ، يتسع للفكرة ، ويسمح للشعور أن يأخذ مجراه وينهض بما يحمله الشاعر من عناصر القوة والتأثير · وأما اللغة فهى تتمثل فى تلك

القوالب التى ترمز الى العظمة والخلود ، والعلو والارتفاع ، والجبروت والسلطان والملك والطاعة والبطولة والشجاعة ، وخضوع الصخر والجبل ، وتلبية الحجر فى قبضة البانى ، وسيل البطاح بالجماهير ، ووقــوف الأجيال حائرة بين اعجاب واذعان ، وشــموخ الاهــرام وسخريتها من الأيام ، ووقوف الليل والنهار منا موقف النمل من جبل ثهلان ، وضخامتها التى صغرت كل موجود وغضت من كل بنيان ٠

وأما التصوير البيانى فهو يتجلى فى تلك اللوحة الناطقة التى عرضها الشاعر لا عرضا اجباريا ـ ولكن عرضا تأثيريا ، تتحدث أشخاصه ، وتعبر هياكله وأطواده وتشيع الحركة فى كل جوانبه ٠

علاقة اسماعيل صبرى بالزعيم الشاب مصطفى كامل

كانت الوطنية (١) الصادقة الحارة أظهر شيء في حديثه اذا نطق ، غالبة على تفكيره اذا صمت ، رائدة في جميع أعماله كلما حل أو عقد ، وولى أو عزل مستولية على ميول قلبه واحساسات نفسه كلما رضى أو غضب ٠

ولم يكن احساسه الوطنى احساس فرد يشعر بآلام أمة ذات ملايين هو واحد منها ، وله نصيب ضئيل من آلامها وآمالها ، بل كان شعوره باستعباد الأمة كأنه استعباد لشخصه ، مقصور عليه ، واحساسه بمذلتها كأنها مذلة موجهة اليه . وتمنيه لتحرير وطنه كأنه تحرير له ، وتلك رتبة في الشعور الوطنى وفناء الفرد فى المجموع قلما يرقى اليها شعور زعيم من زعماء الوطنية فى أى شعب ٠ ولعل أهم صفحة من صفحات اسماعيل صبرى خلودا ، هى الصفحة الخاصة بعلاقته بالزعيم الشاب مصطفى كامل ٠ بل لعل الصورة الوطنية الكاملة لهذا الشاعر لا تتم ملامحها ، وتشكل زواياها بدون دراسة هذه العلاقة وآثارها ونواحيها المختلفة وذلك بالنسبة للآثار الكبيرة التى انطوى عليها جهاد الزعيم مصطفى كامل ، ان العمل

---

(١) من أقوال أحمد الزين فى مقدمة لديوان اسماعيل صبرى باشا المطبوع ١٩٣٨ ٠

الوطنى الكبير الذى اضطلع بأعبائه ، ذلك الزعيم قد وضع بينه وبين جميع قادة البلاد الذين كان من سياستهم مهادنة الاحتلال واسترضاؤه حاجزا كبيرا ، فقاطعوه وأعلنوا عليه حربا شعواء ماعدا قلة من القـادة المخلصين ، آزروه وأيدوه ، وشـدوا أزره بأموالهم وجهودهم ، وانضمت لهم القوة الجماهيرية الشعبية التى التفت حوله ، وناصرته فى الجهاد وكان من هذه الصفوة اسماعيل صبرى ·

كيف تعرف بالزعيم مصطفى كامل : ؟

كان من رفاق مصطفى كامل فى دراسة الحقوق ، فؤاد بـك سليم ، تلاقيـا لأول مرة بمدرسـة الحقوق الخديوية ، فتعارفت روحاهما وائتلفا ائتلافا قلبيا وروحيا وقويت بينهما من ذلك الحين أواصر الصداقة والمحبة ، وتعرف بوالده لطيف باشا سليم ، وكان علما من أعلام الحركة الوطنية ، تخرج من مدرسة أركان الحرب ، وتثقف ثقافة علمية وحربية عالية ثم تولى مهمة التدريس فى المدارس الحربية ، فكان خير معلم وأستاذ ثم عين مفتشا بوازارة التربية والتعليم ، ثم مديرا للفيوم ، ثم رئيسا فخريا للمحكمة المختلطة ، واشتهر بأخلاقه العالية ، ووطنيته الصادقة وشجاعته واستقلاله ، كان عالما واسع الاطلاع شـغوفا بالعلم والأدب ترك مكتبة حوت نفائس الكتب ، قديمها وحديثها ، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا على وزارة نوبار باشا فى عهـد الخديوى اسـماعيل فى فبراير سنة ١٨٧٩ ، وكان وقتئذ أسـتاذا بالمدرسـة الحربية ، وقد انتهت هذه الثورة بسـقوط وزارة نوبار الأولى ، وكان من أكبر أنصار مصطفى كامل ، عرفه مصطفى كامل منذ كان طالبا ، بواسطة نجله السابق الذكر ، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية بعد ما انتكست البلاد بهزيمة الثـورة العرابية وانتصـار الانجليز ، فكان يقـول عنه لنجله ، قبـل أن يعظم

شـأنه : (انه الشعلة الوطنية) وقد صحت نبـوءته ، وحققت الأيام فراسته وصدق نظره ، وظل طول حياته معضدا ومؤيدا له فى جهاده ، ولما مات حزن مصطفى كامل عليه حزنا عميقا كان له أثر فى انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير :

كتب فى هذا الصدد الى مدام جولييت آدم بتـاريخ ٧ من يناير سنة ١٩٠٨ (أى قبل وفاته بشهر واحد)

يقول :

انى مريض جدا منذ السابع عشر من شهر نوفمبر ، وقد بذلت مجهودا فوق الطاقة لالقاء خطبتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطنى « ...... الى ان قـال : أمـا صحتى فهى بين اليـأس والرجاء ، والأطبـاء مطمئنون الآن ، والسبب فى انتكـاسى بعد خطبتى ، راجع الى مفاجأة المنون صديقا حميما لى ، كان من أشد وأكبر نصرائى هو المرحوم لطيف باشا سليم » .

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ولم يبلغ الخامسة والخمسين وقد نعـاه مصطفى كـامل وهو عريض بجريدة اللواء فقال عنه :

« آخانا رحمه الله على صغر سننا ، فكان أخا رءوفا ، وصديقا حميما ، ومواطنا محبا لبلاده ، لا قدرة لكاتب أن يصفه » . وقد انتقلت صداقته لمصطفى كامل الى نجله فؤاد باشا سليم فظل حافظا لمودته وعهده على مر السنين » .

وكان للطيف (١) باشا سليم صالون أدبى ، تعقد فيـه الندوات الأدبية والسياسية ، يجتمع فيه كبار القـادة والأدباء

---

(١) مجموعة اقرأ ـ مصطفى كامل لفتحى رضوان .

والعلماء ، وصفوة الطبقة المثقفة في البلاد ، وكان مصطفى كامل على صغر سنه ، وحداثة عهده من المترددين عليه بانتظام ، وقد استفاد من هذا الصالون ما جعله من صميم خططه فى الكفاح الوطنى وهى أنه لا سبيل لجلاء الانجليز عن البلاد ، بعدما قضى على القوة العسكرية بها الا بعمل سياسى ، أى بالدعوة فى الخارج والاتصال بكبار رجال السياسة الأوربية ·

وقد غلبت على هذا الصالون النزعة الأدبية ، وسادته العقلية السياسية ففتح مصطفى كامل عينيه بشدة على هذه الحقائق الغريبة التى تكشفت لعقله ، وقد تعرف الى كبار رجال السياسة والأدب بواسطة هذا الصالون ، وتوثقت صلته بهم ، ونذكر منهم الشيخ على الليثى الشاعر والأديب الكبير ، الذى كان له الفضل فى توثيق صلته بالخديوى عباس ، وعلى بك فخرى وأمين باشا فكرى واسماعيل بك شيمى وآخرين من أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية ثم بصفة خاصة تعرفه بالشاعر الكبير اسماعيل باشا صبرى ، الذى أولاه حبا واخلاصا وآزره بروحه وشعوره ، ولم يحل فارق السن بينهما (أكثر من عشرين عاما) من أن يظاهر اسماعيل صبرى صديقه الشاب فى جهاده وكفاحه الوطنى ، فتراه دائما يثنى عليه فى مجلسه ، ويقوى من شأنه ، ويدفعه الى المثابرة رغم ما واجهه من ظروف واحن كانت كفيلة أن تثنيه عن الجهاد وتضعف من عزيمته وتوهن من ارادته ·

وقد أشار أحمد شوقى فى رثائه لاسماعيل صبرى ، بهذه العلاقة العميقة التى بينهما حيث قال :

ويح الشباب وقد تخطر بينهم
هل متعوا بتمسح وطواف
لو عاش قدوتهم ورب « لوائهم »
نكس اللواء لثابت وقاف

فلكم سقاه الود حين وداده
جرب لأهل الحكم والأشراف

لا يوم للأقوام حتى ينهضوا
بقوادم من أسهم وخوافي

وكانت روح اسماعيل صبرى وأفكاره تبارك جهاد ذلك الزعيم الشاب ، وتحيطه بالتعضيد منذ كان طالبا فى المعاهد العليا فقد أولاه صدق معونته وهو يجاهد فى سبيل مصلحة بلاده وكأن اسماعيل صبرى يقول لنفسه (لو لم أكن قاضيا ، لاشتركت مع مصطفى كامل فى العمل الوطنى ، ولكنت معه جنبا الى جنب) رغم أن الوظائف القضائية الكبيرة التى تسنمها لم تحل دون أن يظهر تشجيعه وتأييده له عمليا وعلنيا كلما حانت الظروف المناسبة • ومن الأحداث التى أظهرت حقيقة اسماعيل صبرى وتقديره له ، أنه حينما كان محافظا للاسكندرية وكان الزعيم مصطفى كامل عازما على الخطابة فى احدى الحفلات السياسية التى نظمها لذلك الغرض ، أوعزت الحكومة اليه أن يمنع اقامة هذه الحفل ، وبالتالى منع مصطفى كامل من الخطابة ، محتجة بالخوف على الأمن من أن يختل نظامه ، والقانون ان تنتهك أحكامه ، فأبى صبرى على الحكومة كل الاباء وخلى بين مصطفى وشعبه يخطبه كما شاء **وقال لولاة الأمور فى الحكومة :**

((انى مسئول عن الأمن فى المحافظة ، وسوف يخطب مصطفى كامل وأنا واثق من عدم حدوث ما يخل بالأمن) !! وان هذا التصرف من موظف كبير ، مرموق الشأن ليعد جرأة وشجاعة فائقة بالنسبة له ، لأن الحكومة لم تكن تنظر بعين الارتياح لأى شخصية مسئولة تتصل بمصطفى كامل أو تصادقها وكان بتصرفه هذا يعلنها على الملأ بصراحة وبغير مواربة أو تخاذل ، أنه بقلبه وروحه يؤيد مصطفى كامل •

ولما مات مصطفى كامل ، جزع لفقده أشد الجزع ، وحزن عليه أبلغ الحزن ، وأعد قصيدة لرثائه ووقف على قبره وهو يوسد الثرى ، وبدأها بقوله :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا
هددت القوى اذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ملكته العبرة ، وغاب عن الوعى ، وأجهش فى البكاء ، فلم يتمم تلاوة القصيدة وفقدت منه بعد ذلك ، ولعمرى أن هذا أبلغ مظهر لحبه ، وحزنه الشديد على الزعيم الشاب ، الذى راح فى عنفوان الشباب وشرخ الصبا محترقا بجذوة الوطنية ، ولو أنى سمعت من بعض قدامى المثقفين رأيا هذا مؤداه : (١) .

حين انفعل اسماعيل صبرى انفعالا شديدا وهو يلقى قصيدته ، ولم يستطع اكمال القائها ، أكملها نيابة عنه شاعر النيل حافظ ابراهيم ، ثم نسبت اليه خطأ .

وأوردها المؤرخ الوطنى الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل منسوبة الى حافظ ابراهيم ولكن اذا عرفنا طباع اسماعيل صبرى وعدم اكتراثه بشعره ، وعدم احتفاله كثيرا بالعناية به ، وجدنا أن الأمر ليس من الصعب وقوعه ، فاذا كانت القصيدة نسبت الى حافظ إبراهيم باعتباره أنه الذى القاها ، وأن الصحف المعاصرة ذكرتها على هذا الأساس ، ولم يقم من الناس من يصحح الأمر ويجلو الحقيقة ، فهذا لا يمنع ان تكون القصيدة هى

---

(١) ذكر هذا الرأى الأستاذ محمد المرحوشى من كبار سراة وتجار القاهرة ورئيس الغرفة التجارية سابقا ، وهو من أعضاء ندوة الأستاذ الكبير توفيق الحكيم . وقد نقل لى هذا الرأى عن الأستاذ راغب الدكرورى وكيل وزارة الداخلية السابق وكان ضمن الذين اشتركوا فى تشييع جنازة مصطفى كامل .

قصيدة اسماعيل صبرى والأمر لا يعدو الالتباس ولا بأس أن نورد هنا الأبيات الأولى من هذه القصيدة وهى من نفس الوزن والروى الخاص بالبيت الأول الذى ألقاه الشاعر : وسواء كان هذا الزعم صحيحا أو غير صحيح فلا جناح من ايراده ٠

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة
فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا

عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى
شهيد العلا فى زهرة العمر زاويا

ايا قبر لو أنا فقدناه وحده
لكان التأسي من جوى الحزن شافيا

ولكن فقدنا كل شىء بفقده
وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا

فياسائلى أين المروءة والوفا
وأين الحجا والرأى ويحك هاهيا

هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح
فقد اسكت الصوت الذى كان عاليا

ومات الذى أحيا الشعور وساقه
الى المجد فاستحيا النفوس البواليا

اما قصيدته فى ذكرى الأربعين فهى فيما يلى :

اجل انا من أرضاك خلا موافيا
ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيا
وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل
كما ذقت منه الحب والود صافيا

ويعثر في بعض الخطـوب اذا مشى
الى بعض ما يهوى فيرجع داميـــا
وان رامه سرب المسرات لـم يجـد
محلا به من لاعج الهم خاليـــا
ألا عللاني بالتعـــازي وأقنعـــا
فـؤادي أن يرضى بهـــن تعازيـــا
والا أعيناني على النوح والبكـــا
فشأنكما شأني وما بكمـــا بيـــا
وما نافعي أن تبكيا غـــير انـــني
أحـب دموع البر والمرء وافيـــا
أيا (مصطفى) تا لله نومك رأبنـا
أمثلك يرضى أن ينـــام اللياليـــا
تكلم فان القـــوم حولك أطرقـــوا
وقل يا خطيب الحي رأيك عاليـــا
لقد أوشكت من طول صمت وهجـرة
تخالك أعـــواد المنـــابر فانيـــا
وتبكيك ، لولا أن فيـــها بقيـــة
تعللها من ذلك الصـــوت داويـــا
فهل الفت ما بين جفنك والكـــرى
محالفـــة أم قد امنت الأعاديـــا
★★★
فقدناك فقدان الكمي سلاحـــــه
وسارى الدياجي كوكب القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاتك في الثرى
سـقاها الحيا تستبطىء الدمع هاميا

ولولا تراث من أمانيك عندنـــا
كريم بكينا اذ بكينـا الأمانيــــا
اطواك الردى طي الكتاب تضـمنت
صحائفه من كل فخر معانيــــــا
مضـاء اذا البيض انتمت لأصولهـــا
غضبنـــا اذا سماك قـــوم يمانيـــا
ورأى يجلى اليأس واليأس ضـارب
على الأفـــق ليلا فاحم اللون داجيـا
اذا ما تقاضينا ولم تك بيننـــــا
ذكرناهما حتى نجيد التقاضــــيا
فليتك اذ أعييت كل مسـاجل
قنعت فلم تـعى الطبيب المداويـــا
وليتك اذ ناضلت عن مصر لم تفض
مع الحبر قلبا ـ يعلم الله ـ غاليـــا

★★★

لقد ضاع اخلاص الطبيب وحذقـــه
سدى فبكى الفخر الذى كان راجيـــا
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصــــة
ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديا
يحييك سيفا بات فى الترب مغمدا
تقلده ـ فيما مضى الحـق ماضيـــا

وهذه القصيدة تعبر عن عاطفة جياشة ، وتنبىء عن لوعـة صديق محزون هده الحزن وأمضه الأسى ، الا أنه لم يصــور فيها مصطفى كامل المشتعل حماسة ، والثائر على قيود الرق وأغلاله بما

يليق به ، واكتفى بذكر الشجن والأسى والحسرات لفراقه ، وليس فيها من نبأ عن وطنيته الا اشـارات عابرة ، **ويبدأ القصيدة بهذا البيت :**

أجل أنا من أرضاك خلا موافيـا ....

ثم يقول :

تكلم فان القوم حولك أطرقـــوا ....

ويخيل اليك أن سـيفيض فى ذكر مزاياه ، ثم يتحـدث باسهاب عن وطنيته ولكنه يشير بعد أبيات فى ايجاز شديد ، الى أن مصطفى كامل كان سلاح مصر وكوكبها المضيء فى دجنة الحوادث . وأنها فقدت هذا السلاح وهى أحوج ما تكون اليه . وهذا الكوكب ، وهى تتخبط فى الظلماء ، ولولا ما خلفه من الأمانى فى نفوس مواطنيه لكان فى بكائهم عليه بكاء على أمانيهم ·

ويرى بعض النقاد أن اسماعيل صبرى لم ينطلق على سجيته وأنه يمشى بحذر ، خائفا يترقب ــ فثمة الانجليز وثمة القصر . وكلاهما غير راض عن مصطفى كامل ولكنه كان على كل حال أجرأ من أحمد شوقى فى هذه المناسبة · ولكن هذا الرأى مردود ، لأن الشاعر قد اعتزل خدمة الحكومة فى ١٩٠٨/٢/٢٨ ، وأنه لم يكن يخشى بأس الانجليز سواء أثناء خدمة الحكومة أو بعدها وكان شجاعا فى ابداء رأيه ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانى ·

تمثال مصطفى كامل

انتهت حياة مصطفى كامل كنا تنتهى حياة الشهب الخاطفة ، نلمحها حين تمر بمجالنا الجوى ، ذات نور ساطع خاطف ، ثم تعبر وتختفى ، ووجمت النفوس من هول المصاب ، وهلعت القلوب . لاختفاء هذه الشخصية الفذة فى تاريخ الوطن الى الأبد ، وخلا المنبر من خطيبه الشاب الوطنى العظيم ، وحرمت الجماهير رؤية هـــذا المحيا الساطع المضىء ، فكان لا بد من اتخاذ اجراء لتخليد ذكره ، حفاظا على عهده ومبادئه ؛ وتخليد صورته وشخصيته الملهمة لكى تراها الأجيال القـادمة التى حرمت من سماعه ورؤياه ، فاتجهت الأفكار الى اقامة تمثال له ، وتلك هى قمة التقدير الوطنى للزعيم الشاب الوفى ، المؤسس للحركة الوطنية الحديثة فى هذا القرن ·

ولأول مرة فى تاريخ مصر ، منذ الاحقاب العريقة فى القدم ، منذ كان المصريون يشيدون التماثيــل الضخمة لملوكهم المعبودين ، يشترك المصريون عن طواعية واختيار ، فى اقامة تمثال لواحد منهم ، لم يكن ملكا ولا أميرا ولا حاكما · ومن أموالهم الخاصة لا من أموال الدولة الحاكمة ، وجميع التماثيل المقامة بالبلاد حاليا هى من عمل الحـكومات لا من عمل الأفراد ؟؟) ولذلك كان لهذا العمل مغزاه ودلالته العظيمة ·

ويشرف تاريخ الشاعر اسماعيل صبرى أنه كان على رأس اللجنة التى شكلت لتنفيذ هذا المشروع الوطنى ، فى ١٦ من فبراير سنة ١٩٠٨ أى بعد وفاة مصطفى كامل بأيام قلائل ٠٠ (١) وضمت فى عضويتها محمد بك فريد خليفة مصطفى كامل العظيم ومكمل رسالته ، والناسج على منواله ، والدكتور محمد علوى باشا ، وأحمد لطفى السيد بك (صاحب الآراء المخالفة لصاحب الذكرى تماما ولكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بوطنيته) وحسن باشا عبد الرازق ومحمود بك أبو النصر ، وعلى بك فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ٠ ومرقس حنا باشا وويصا واصف بك عضوا اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى (ومن زعماء حزب الوفد المصرى بعد ذلك) وعبد العزيز فهمى باشا من أصدقاء مصطفى كامل (ورئيس حزب الاحرار الدستوريين فيما بعد) وفؤاد بك سليم ويوسف صديق باشا والياس بك عوض ، وعمر بك سلطان ، واحمد بك عبد اللطيف ٠

أى أن هذه اللجنة تمثل خلاصة الطبقة المثقفة الممتازة فى مصر مسلمين ومسيحين ولعمرى فان ائتلاف هذه النخبة الممتازة برئاسة اسماعيل صبرى ليشهد له بالشخصية التى اكتملت فيها مقومات الوطنية ، والنبل ، والمناقب العالية على أسمى مستوى ٠

نشاط اللجنة ٠

اجتمعت اللجنة المذكورة لأول مرة في مبنى ادارة صحيفة (الجريدة) وكان مديرها احمد بك لطفى السيد فى يوم الاحد ١٤ محرم سنة ١٣٢٦ الموافق ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ فى الساعة ٣ بعد الظهر باعتبارها لجنة هذا المشروع ـ الجليل واصدرت قرارا للامة نشر فى جميع الصحف المصرية وتناقلته صحف العالم كله وهذا نصه :

(١) كتاب مصطفى كامل باعث الوطنية ص ٣٠١ لعبد الرحمن الرافعى ٠

أولا : اختيار سعادة اسماعيل صبرى باشا رئيسا للجنة والدكتور محمد علوى باشا والياس بك عوض وكيلين ، ويوسف صديق باشا أمينا للصندوق .

ثانيا : تخصيص المبالغ التى تجمع من الاكتتاب لاقامة تمثال للمرحوم مصطفى كامل باشا بالقاهرة ويخصص ما يتبقى من ذلك لمدرسة مصطفى كامل المعدة لقبول جميع الطلبة المصريين بلا تمييز فى الدين على الطريقة التى تقررها اللجنة فيما بعد .

ثالثا : جميع المبالغ التى تجمع من الاكتتاب تسلم لأمين الصندوق لايداعها بأحد البنوك وهو البنك الألمانى الشرقى .

رابعا : تقبل اللجنة كافة المبالغ المكتتب بها مهما قلت قيمتها وسواء ذكر اسم صاحبها أو لم يذكر .

خامسا : يقفل الاكتتاب بعد مضى شهرين من تاريخ اليوم أى فى ١٩٠٨/٤/١٦ .

سادسا : تجتمع اللجنة بمركز ادارة الجريدة كل يوم أحد فى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر وتكون قراراتها نافذة متى حضر الاجتماع خمسة من أعضائها بما فيهم الرئيس .

وبناء على ذلك أقفل المحضر ووقع الحاضرون .

★ ★ ★

على أثر نشر هذا القرار فى الصحف العربية بعث المواطنون من جميع أنحاء البلاد اكتتاباتهم لكل من جريدتى اللواء والجريدة،

ولم يكن مؤثرا فيهم الا شعورهم الوطني ومجرد الدعوة في الصحف ولم ترسل اللجنة مكتوبا واحدا لأى مصرى لتحثه على الاكتتاب ولا الفت لجانا متعددة لهذه الغاية كما يفعل القائمون بأمثال هذا المشروع.

فجاء الاكتتاب دليلا على ان هذا العمل قد تم بمحض شعور الأمة وارادتها أما ما ورد من الاكتتاب لتخليد أثر الفقيد العظيم وما صرف في سبيل صنع هذا التمثال فهذا بيانه :

مليم	جنيه	
٠٠٠	٢١٠٠	ما ورد من اكتتاب اللواء
٠٠٠	١١٥٠	ما ورد من اكتتاب الجريدة
٠٠٠	٣٢٥٠	المجموع الكلى
٠٠٠	٢١٢٠	مصاريف صنع التمثال ونقله الى مصر
٠٠٠	١١٣٠	الباقي وقد قرر على بك فهمي كامل صرف هذا المبلغ على شراء عين مثمرة تكون وقفا على التعليم المجانى بمدرسة مصطفى كامل

صنع التمثال :

كلفت اللجنة محمد بك فريد الاتفاق مع أحد مشاهير المثالين على صنع هذا التمثال فعرض أمره على مسيو لابلاتى مدير مدرسة الفنون الجميلة التى أسسها بالعاصمة الأمير يوسف كمال وهم جنابه بصنعه لولا أن حالت ظروف قصر المعدات الموجودة بمصر عن تنفيذ المشروع مما حدا بمحمد بك فريد على أن يتصل بأحد كبار المثالين بباريس وهو المثال الكبير المسيو ليوبولد سافين ، على أن يصنع تمثالا بالحجم الطبيعى لمصطفى كامل من البرونز ؛ وقد أتم

عمل نموذج للتمثال من « الجص » وعرضه فى معرض الفنون الجميلة بباريس فى شهر مايو ١٩١٠ فنال هذا النموذج الجائزة الأولى وأثنت جميع الصحف الفرنسية عليه ٠

وأتم صنع التمثال الحقيقى فى أواخر عام ١٩١٣ ووصل القاهرة فى أول يناير ١٩١٤ ٠

جهود اللجنة لاقامة التمثال :

قام اسماعيل صبرى بوصفه رئيسا للجنة بالاتصال بالحكومه فى شأن هذا التمثال ونصبه فى أحد الميادين العامة بالقاهرة ، وكان الاتصال الأول بوزير الأشغال حسين فخرى باشا فى وزارة مصطفى فهمى ، الذى طلب من اللجنة بيانا عن المكتتبين وما اكتتبوا به ولما تأكدت الحكومة ان عدد المكتتبين فى هذا التمثال بلغ ٢٣٤١٦ مكتتبا وكلهم يمثلون جميع طبقات الأمة تأكدت انه من عمل الأمة ووعدت بنظرها فى الأمر عند قدوم التمثال ، أما الاتصال الثانى فكان فى وزارة بطرس غالى باشا وكان صديقا للشاعر فوعد بانجاز الموضوع حالما يصل التمثال ، والمرة الثالثة فى وزارة محمد سعيد باشا وقد كانت فى أواخر أيامها فلم تبت فى الأمر ٠

ثم جاءت وزارة حسين رشدى باشا التى دهمتها الحرب الكبرى الأولى فسكت الناس جميعا عن التمثال ٠

وما ان وضعت الحرب أوزارها وتنفست الأمة الصعداء ونادت باستقلالها التام حتى عاد الاحتفال بذكرى مصطفى كامل سيرته الأولى وتساءل الناس من كل حدب عن تمثال مصطفى كامل صاحب الفضل الأكبر فى اليقظة الوطنيـة الأولى وقد ظن أغلبهم انه لم يصنع أو أنه ان كان قد صنع ليس موجودا فى مصر ٠

لذلك رأى علي بك فهمي شقيق ، مصطفى كامل حسما للأمور وردا على أسئلة الجماهير ، فتح الصناديق المحفوظ بها التمثال واقامته فوق منصه من منصات كلية مصطفى كامل وعرضه على الشعب في الاحتفال بالذكرى الثالثة عشرة لوفاة «مصطفى كامل».

وما ان علمت اللجنة التنفيذية للحزب الوطني بالكشف عن صناديق التمثال حتى قررت ان يكون الاحتفال بالذكرى في ذلك العام (١٩٢١) يوم الخميس ١٠ فبراير سنة ١٩٢١ لحفلة السيدات ويوم الجمعة ١١ فبراير لحفلة الرجال وناطت تنسيق الحفلة الى لجنة من خيره أعضاء الحزب فكانت أثيرة في البهجة والكمال ـ وخرج علي بك فهمي كامل للصحفيين في هذا الاحتفال وقال ان نصب التمثال في كلية الفقيد هو عمل مؤقت لأن الأمة ما اكتتبت في صنعه ليكون بين أربعة جدران بل ليكون في أكبر ميدان في العاصمة وما كشف عنه في كلية مصطفى كامل الا لأنه كان مخزونا فيها ، وليتأكد الناس جميعا ان التمثال موجود في مصر منذ سبع سنين وأنه ينتظر كما انتظر تمثال ميرابو خطيب الحرية في فرنسا ليخرج من سجنه ويقف حرا رفيع الرأس على مرأى من أمته الحرة المستقلة .

حفلة السيدات :

ما وافت الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس العاشر من شهر فبراير ١٩٢١ حتى توافدت سيدات مصر على دار كلية مصطفى كامل زرافات زرافات من فضائل العقيلات وربات البيوت ، كذلك اشتركت في الحفل بعض مدارس البنات يحملن أعلامها ، حتى اكتظ المكان بهن فجلسن أمام التمثال وجلال الذكرى يحف بهن وروح مصطفى كامل يرفرف عليهن **وكان برنامج الحفلة باختصار كالآتي :**

١ ـ الساعة ٣ مساء افتتاح الحفل بتلاوة من آيات الذكر الحكيم .

٢ ـ كلمة رئيسة الحفلة السيدة لبيبه هانم أحمد رئيسة جمعية نهضة السيدات .

٣ ـ كلمة السيدة نفسية هانم كامل شقيقة مصطفى كامل .
٤ ـ قصيدة شعرية تشيد بالتمثال وذكرى مصطفى كامل .
٥ ـ كلمة السيدة أمينة غازى هانم .
٦ ـ كلمة الأنسة عائشة هانم الحلفاوى .
٧ ـ كلمة الأنسة سعاد هانم الحلفاوى .
٨ ـ كلمة السيدة وحيده هانم الطوبجية .
٩ ـ كلمة الأنسة نبوية هانم محمد فهمى .

١٠ ـ قصيدة من الآنسة روقيه ناظرة مدرسة البنات الابتدائية بالجيزة .

وجميع القصائد والخطب كان محورها ذكرى مصطفى كامل ومبادئه الخالدة والاحتفاء بعرض التمثال على الملأ ، وكان الحفل جميعه مظهرا رائعا للوعى الوطنى النسائى فى مصر منذ خمسين عاما .

حفلة الرجال :

وقف كبار رجال الحزب الوطنى فى الساعة ٩ من صباح يوم الجمعة ١١ فبراير سنة ١٩٢١ على باب كلية مصطفى كامل بالقاهرة يستقبلون القادمين للاحتفاء بذكرى الزعيم وتحية للتمثال **وكان برنامج الحفل بعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم كالآتى :**

١ ـ كلمة من الاستاذ محمد زكى على سكرتير الحزب بافتتاح الحفل وتقديم الخطباء والشعراء .

٢ ـ خطاب على بك فهمى كامل وكيل الحزب الوطنى بمناسبة الذكرى .

٣ ـ قصيدة الشاعر الكبير مرسى شاكر الطنطاوى .

٤ ـ قصيدة الشاعر محمود محمد صادق باسم شباب مصر ٠

وكان في مقدمة الذين حضروا الحفل اسماعيل أباظة باشا ومحمود باشا أبو حسين والياس بك عوض وأعضاء الحزب الوطني ووفد من الحزب الديمقراطي مؤلف من ابراهيم دسوقي أباظة وابراهيم الشواربي باشا وحسن نافع وجمهور كبير من المثقفين وطلبة المدارس العليا والثانوية والقضاء الشرعي والمعاهد الدينية والصناع والعمال ٠

وكان من المأمول أن يكون على رأس هذا الحفل شاعرنا الكبير اسماعيل صبري كيف لا ـ وهو صاحب المجهود الأكبر فى اقامة التمثال والدعوة اليه ، ولكنه لم يحضر ولم يتحف الجمهور بقصيدة وطنية من قصائده الروائع فى هذه المناسبة الخالدة التى طالما كان ينتظرها ، ويتحرق شوقا اليها ـ نعم لم يحضر شاعر مصر العظيم فى حفل اقامة تمثال مصطفى كامل وهو الذى كان من أكبر معاونى مصطفى كامل ٠٠٠٠٠

لقد كان رقيد الفراش أضناه المرض وبرح به الداء ، وأعجزه عن الحضور ومع ذلك فقد أرسل كتابا يعتذر فيه الى على فهمى كامل عن الحضور لمرضه وجاء فيه :

« لو أن الذبحة الصدرية تركت لى شيئا من الصحة يمكننى من وجودى بين المحتفلين بذكرى عزيزنا فقيد الوطن العزيز لما تأخرت أبدا عن حضورى بين المعجبين بصفاته العالية النادرة ، ولكننى أمضيت شهر يناير طريح الفراش وأصبحت غير قادر على الحضور ، فاذا لم تجدنى بينهم أيها الصديق الحميم فاعلم اننى أكثرهم اعجابا بذلك الفقيد العظيم » (١) ٠

---

(١) من كتاب « ذكرى مصطفى كامل الثالثة عشرة » المطبوع فى سنة ١٩٢١ تاليف على بك فهمى كامل (شقيق مصطفى كامل) ٠

ثم مات اسماعيل صبرى ولم تكتحل عيناه برؤية التمثال فى أحد ميادين العاصمة التى كانت مسرحا لجهاد مصطفى كامل .

ثم توالت الأيام والتمثال باق فوق منصة كلية مصطفى كامل الى أن حان الحين وقررت الحكومة فى عهد المرحوم على ماهر باشا اقامته في ميدان سوارس (تغير اسم الميدان بعد ذلك الى ميدان مصطفى كامل سنة ١٩٤٠) .

واحتفلت البلاد شعبا وحكومة فى مايو سنة ١٩٤٠ بازاحه الستار عن ذلك التمثال الخالد الذى ظل سجينا زهاء ستة وعشرين عامـا .

حادثة دنشواى

ان حادثة دنشواى من الأحداث التاريخية فى تاريخ مصر . لما كان لها من الآثار البالغة فى تطور الحركة الوطنية ، وفى مركز الاحتلال الانجليزى ، والحادثة باختصار أن خمسة من ضباط الاحتلال رغبوا يوم ١٣ من يونيو سنة ١٩٠٦ فى صيد الحمام فى بلدة دنشواى التابعة لنقطة بوليس الشهداء ، بمركز شبين الكوم ، وفى أثناء اطلاقهم بنادقهم على الحمام حدث أن أصاب أحدهم امرأة هى زوجة محمد عبد النبى المؤذن فى القرية كما أصاب الجرن فسقطت المرأة جريحة ، تتخبط فى دمائها ، واشتعلت النار فى الجرن ، فصاح أحد الفلاحين مستغيثا ، وهجم على الضابط الذى أطلق النار ، وتجاذب واياه بندقيته وأقبل الرجال والنساء والأطفال هائجين صائحين : الخواجه قتل المرأة ، وحرق الجرن ، وأحاطوا بالضابط ، وجاء بقية الضباط لانقاذ زميلهم فتكاثرت جموع الاهلين ، ووصل فى نفس الوقت شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع وانقاذ الضابط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شرا ، فأطلقوا عليهم العيارات النارية فأصاب أحدهم شيخ الخفر فى فخذه فسقط على الأرض ، وأصاب عيار آخر اثنين آخرين أحدهما من الخفراء فصاح الجميع ، شيخ الخفر قتل فهجموا على الضباط بالطوب والعصى الغليظة واثخنوا من لحقوا بهم ضربا فاصيب أحد

الضباط بكسر فى ذراعه ، وجرح آخران بجروح خفيفة ، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم ، وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ البوليس وأوصلهم الى المعسكر ٠

أما الكابتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى وهما من أعضاء فريق الصيد فقد تركا مكان الواقعة ، وكان الأول منهما قد أصيب اصابة شديدة فى رأسه ، وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانيـة كيلو مترات فى حمارة القيظ ، فلم يكد الكابتن بول يصل الى باب سوق « سرسنا » حتى سقط من الاعياء ، ومات بعد ذلك متأثرا من ضربة الشمس ، ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل الى معسكر الكتيبة بناحية كمشوش على شاطىء الترعة الباجورية ٠ فأخطر الجنود الذين هرولوا الى مكان الواقعة ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا « سرسنا » وظنوا أنها دنشواى وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى ، ورأوا فلاحا هو « سـيد أحمد سـعيد » يقدم اليه قدحا من المـاء فظنوه من الضاربين ، فأخذوا يطعنونه ويضربونه ببنادقهم حتى هشموا رأسه ومات بين أيديهم وذهب دمه هدرا ولم يحاكم أحد من قتلته ٠

ثار الاحتلال لهذه الحادثة علما بأن المسئول الأول عنها هم الضباط الذين اقتحموا بدون حق غيطان الأهالى وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم ، وذهب المستر ميتشل مستشار وزارة الداخلية الى مكان الحادثة يوم وقوعها وجرى التحقيق بمنتهى السرعة وأخذ ولاة الأمور يقبضون على الأهالى جزافا ، وأعدت المشانق وأرسلت لمكان الواقعة قبل أن ينتهى التحقيق ، وانعقدت المحكمة المخصوصة صباح ١٩٠٦/٦/٢٧ وقضت بأفظع الأحكام وهى الاعدام شنقا على أربعة من المتهمين هم حسن على محفوظ ويوسف حسن سليم والسيد عيسى سالم ومحمد درويش زهران والأشغال الشـاقة على محمد

عبد النبى وأحمد عبد العال محفوظ والسجن لمدة ١٥ سنة ، ٧ سنوات على عدد آخر من المتهمين مع الجلد ٠

وقد قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته ، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون وخلا من كل انصاف وعدل ٠

مصطفى كامل وحادثة دنشواى :

رغم أنه كان وقتها فى أوربا للاستشفاء ، وتصح له الأطباء بالتزام الراحة والهدوء فانه لم يكد تصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه ، وتحرك قلبه الكبير الى العمل والجهاد ونهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر ، ويعلنها حربا شعواء على الاحتلال وسياسته فكتب فى جريدة « الفيجارو » الفرنسية المشهورة فى عدد ١٩٠٦/٧/١١ مقالة كبيرة نشرت فى صدر الجريدة بعنوان (الى الأمة الانجليزيةوالعالم المتمدين) شرح فيها ظروف الحادث وعرضها على الضمير الانسانى فى العالم ، فكانت من أبلغ وأقوى ما كتب مصطفى كامل بلسان مصروقد استطرد فيها الى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال وأبان أن حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه ، من أن الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الانجليزى ٠

وأحدثت المقالة فى أوربا دويا عظيما ، وتناقلتها جميع الصحف العالمية فى مختلف البلدان ، وكان لبلاغتها وعبارتها المؤثرة ، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية ، والتعليق عليها فى معظم الصحف الأوربية والبريطانية صدى بعيد فى الرأى العام الأوربى والانجليزى وتزلزل بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا ونصحت جريدة (التربيون) الانجليزية وجوب منح مصر حكومة مستقلة والغريب أنه لم يحتج واحد من المصريين

المسئولين فى مصر على هـــذا الحكم الفظيع ولم يستقل وزير من الوزارة المصرية اظهارا لاستيائه وشعوره وانبرى مصطفى كامل ــ وحده عن الأمة المصرية جمعاء يعرض قضية بلده المظلوم على محكمة العالم أجمع · وقد نجح فى هذه المهمة أبلغ نجاح ·

وكان من نتائج استغلال مصطفى كامل فظاعة هـذا الحادث للتنديد بمساوىء الاحتلال البريطانى ، أن أثير الجدل بسبب مأساة دنشواى والأحكام الفظيعة التى قضت بهاالمحكمة المخصوصة ، فى مجلس العموم البريطانى ؛ وعدل رجال الاحتلال بعدها عن سياستهم التعسفية نحو مصر ، وأجبر اللورد كرومر على الاستقالة عقب هذه الحادثة ، وهى نهاية عهد كان من مراحل الجهاد القومى ، عم فيها الشـعور الوطنى ، بعد أن كان الظن أن ســواد الأمة راض عن الاحتلال ·

تأثر اسماعيل صبرى بتلك الغضبة الصاخبة التى غضبها مصطفى كامل حين وقعت حادثة دنشوادى ، ولكنه لم يقل حـين وقوعها شيئا وآثر الصمت ، ولا يعتقد أن صمته كان تقية منه أو حرصا على وظيفته ، لأنه لم يكن بالشديد الحرص عليها خصوصا وقد كان فى أواخر أيامه فى الحكومة ، لأنه أحيل على المعاش بعد وقوع هذه الحادثة بسنة واحدة ·

ولما نجحت جهود مصطفى كامل وحملته على المعتمد البريطانى كما سبق ذكره ، وصدر العفو عن المسجونين ، انطلقت الألسنـة التى احجمت عن الكلام فى ابان المحنة ، والتى كانت تترقب الفرصة المواتية لتفصح عن الثورة المكبوتة ومن هؤلاء أحمد شوقى ، أمـا اسماعيل صبرى فقد انتهز فرصة تهنئته للخديوى عباس بمناسبة عيد الاضحى بعد مرور عامين على الحادثة ، وذكر انطباعــاته عن الظروف التى حدثت فى دنشواى ، وشكره لعفوه عن المسجونين ·

وبدأ هذه القصيدة بقوله :

١ ـ لو أن أطـلال المنـازل تنطلق
ما ارتد حران الجـوانح شيق

٢ ـ هل عند ذاك السراب أنا بعـده
في الحـى من آماقنا تتدفـق

٣ ـ او ان اضلعنا على ما استودعت
يوم الفراق ـ من الجوى تتحرق

٤ ـ أمنـازل الأقمار أهلك أسرفوا
في النأى اسراف الغنى واغرقوا

٥ ـ لو انهم قـد انصفوك منـازلا
ما حازهم في الكون بعدك مشرق

★ ★ ★

ثم دعا الى منح الأمة دستورا يضمن حقوق المواطنين بقوله :

٦ ـ سدد سهام الرأى (بالشورى) يحط
بك منه في ظلم الحـوادث فيلق

٧ ـ واسبق بـه واضرب وافتح بـه
ما شـئت من باب امامك يغلـق

٨ ـ عوذت مجـدك ان تنام وفي الحمى
أمـل عقيم أو رجـاء مخـفق(١)

---

(١) يريد في هذا البيت تحقيق أمل الامة اذ ذاك ورجاءها الدستور والحكيم النيابي .

٩ ـ ولرب محـــل فى النهى متحـــكم
قد كان يخترم النفـــوس ويـــوبق(٢)

١٠ ـ ارسلت فيه نظـــرة ضمن الحجـــا
والعلم نصرتهـــــا وقلب مشفـــق

١١ ـ واخـــذت رأى الى النهى مستوثقـــا
مستوزرا وكـــذا الحـــكيم يدقـــق

١٢ ـ ووهبت فابتكر النضـــار سحـــائبا
تهمى وتفتقـــد المحيـــل وتفـــدق

١٣ ـ وان أمرعت تلـــك المـــوات وأورقت
فيهـــا الريـــاض فانما لـــك تـــورق(٣)

١٤ ـ واقلت عثرة قريـــــة حـــكم الهوى
فى أهلهـــا وقضى قضـــاء أخـــرق

١٥ ـ ان أن فيهـــا بائس ممـــا بـــه
وأرن رجـــاويه هنـــاك مطـــوق

١٦ ـ وارحمتـــا لجنـــاتهم ماذا جنـــوا ؟
وقضاتهم ما عـــاقهم أن يتقـــوا ؟

١٧ ـ ما زال يقـــذى كـــل عـــين ما رأوا
فيها ويـــؤذى كـــل سمع ما لقـــوا

١٨ ـ حتى حكمت فجـــاء حكـــمك آيـــة
للنـــاس طى صحيفـــة تتـــألق

---

(١) المحل : الشدة والجدب : الاسكك هنا لعقم العقول وقلة ما يصدر عنها .
(٢) يوبق : يهلك .
(٣) أمرعت : أخصبت ، الموات من الأرض ، مالا نبات فيه .

١٩ ـ نزلت ترفرف جـــول كاتب نصهـا
زمــرا ملائكة الرضــا وتحــلق

٢٠ ـ شكرتك مصر على ســـلامة بعضهـا
شــكرا يغــرب فى الورى ويشرق

٢١ ـ ذكرت لــك الصفح الجميل ولم تزل
تـــرمى الى أمر أجـــل وترمـــق

٢٢ ـ قانون (دانشـــواى) ذاك صحيفـة
تتلى فترتـــاع القلـوب وتخفـــق

٢٣ ـ هل يرتجى صفــو ويهـــدأ خاطـر
والموت حـــول نصوصهــا يترقرق

٢٤ ـ ومضاجـــع القـوم النيام أواهـــل
بمعذب يودى وآخـــر يرهق

٢٥ ـ لن تبلـــغ الجرحى شـــفاء كامـــلا
ما دام جـــارحها المهنـــد يبـــرق

٢٦ ـ فاحكم بغـــير العنف واكسر سيفـــه
فالحلم أجمل والمكـــارم أليق

٢٧ ـ لك مصر ماضيها وحاضرهـــا معـــا
ولـــك الغـــد المتحتـم المتحقق

٢٨ ـ والله عونـــك أن ركبت الى العـــلا
طرقا تضـــل بهـــا الهـــداة ونفرق

٢٩ ـ والأمر أمـــرك لا يشـــاب بريبة
والحكم حـــكمك والا له مصـــدق

وفى هذه الأبيات يصور اسماعيل صبرى فظاعة الحادث . ونراه لا يكتفى بهذا ولكنه يشير بعد ذلك فى الأبيات (٢١ ، ٢٢ ، ٢٧) الى أن هذا القانون الظالم الذى طبق فى هذه الحادثة ، سيظل يبعث الفزع والرعب فى القلوب ، وان ما ارتكبه من مآثم وماطعن به مصر من جراح لن يكفر عنها شىء ، ولن تلتئم هذه الجراح مادام الاحتلال قائما ، وجنوده تبرق وترعد وكنى فى بيت(٢٥) عن المحتل الغاصب بالجارح المهند ، فلم يصرح به ، ولا نرى له شيئا آخر فى الانجليز من قريب أو بعيد ·

مقطوعاته الوطنية :

وتقرأ له مقطوعات قصيرة فى البيتين والثلاثة يضمنها رأيه فى وزراء مصر قبل الحرب العالمية الأولى ، بدعابة مسرحية ، كأنها صورة هزلية فكهة مما تنشره الصحف اليومية من ذلك قوله فى مصطفى فهمى الذى كان من الموالين للانجليز مخلصا لهم ، فلما سقطت وزارته (التى طال عليها الأمد ، وملها المصريون وضاقوا بها ذرعا) فى سنة ١٩٠٨ قال اسماعيل صبرى ·

عجبت لهم قالوا (سقطت) ومن يكن
مكانك يأمن من سقوط ويسلم !
فانت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى
وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو اسقطوا من حيث انت زجاجة
على الصخر لم تصدع ولم تتحطم

ثم تمر بمصر أحداث ، ويطوح الانجليــز بعباس ، ويأتى السلطان حسين كامل بعد اعلان الحماية فيهنئه ، ولكنه كان أشد وطنية من صاحبيه حافظ وشوقى فلم يشر الى الانجليز أى اشارة ، ولم يدع الى التعاون معهم ، أو يثن عليهم ، بل اكتفى بأن هنأه ، وذكر أن الامارة لم تزل فى أهلها ، وأنهم يتناوبون العرش ماجدا بعد ماجد ، وأن أهل مصر لا يزالون على الود القديم ، الى غير ذلك من المعانى التى تذكر فى مثل هذه المناسبة ٠

ولكنه يفضل حسينا على عباس ويحتج لاختياره ، ولو أنه اكتفى بماقاله فى البيت الأخير لكــان خيرا له ، لأن عباسا حظى منه بأمداح شتى ، رفعته الى السماكين وكان واجب الوفاء يدعو ، ألا يذم صاحبه الذى مدحه بالأمس ، وألا يدعو الناس للشكر على أن جاء حسين بدلا منه ٠

وفى هذه التهنئة يقول :

اليوم آن لشــــاكر أن يجهرا ... بالشكر مرتفع العقيرة فى الورى
ان الامارة لم تزل فى أهلهــــا ... شماء عاليــة القواعــد والذرا
والتاج مقصــــور عليهم ينتقى ... منهم كبيرا للعــلاء فأكبــــرا
والعرش ان أخلاه منهم ما جـد ... ذكر الأماجد منهم وتخيـــــرا
أحسين حبك فى القلوب محقق ... قد أظهر الاخــلاص منه المضمرا
فاحرص عليه فهو ملك آخــر ... ان شئت ملكا جنب ملك أنضرا

الى أن قال :

والبيت (بيت محمد) قد شاده ... لبنيه لم يســـتثن منهم معشرا
والعم أكبر حكمة ودرايــــــة ... بالأمر لو أن الكــابر فكرا
حال اذا نظر الأريب جمالهـــا ... شكر الاله وحقه أن يشكرا

ويرى بعض النقاد أن تقلب اسماعيل صبرى فى المديح يدل على أنه لم يكن صادقا فى مديحه لعباس أو حسين ، وانما يدل على أنه مع الحاكم أيا كان شأن معظم شعراء المديح الذين لا يصدرون فى شعرهم عن عاطفة جياشة صادقة وانما يعبرون عن مراءاة ونفاق ، ورغبة فى الحظوة والمكانة لدى ولى الأمر أيا كان خلقه ووطنيته .

ولكننا لا نميل للأخذ بهذا الرأى لأسباب عديدة ، لأن صبرى لم يكن وصوليا فى شعره ، فقد كان عزوفا عن المناصب ، التى تأتى عن طريق غير وطنى ، والتى يتحتم عليه فى سبيل الوصول اليها أن يتخلى عن مبادئه الوطنية ، واذا كان فضل حسينا على عباس فلأنه رأى ما فعله عباس بصديقه مصطفى كامل ، وكيف تنكر له وتنكر للحركة الوطنية ، وترامى على أقدام الانجليز ، مما أدى الى قطع مصطفى كامل علاقته به نهائيا (١) . وقد استهان الخديوى عباس حلمى بعواطف المصريين وآثر الدعة والاستقرار على الكفاح فى سبيل تحرير بلاده .

هذا اسماعيل صبرى ،الشاعر الوطنى الصادق عبر بشعره عن وطنيته ولكن فى هدوء وحذر ، يريد الاصلاح والرقى لوطنه عن طريق التعليم والنهضة الصحيحة ، ويخشى التيارات السياسية المتلاطمة ، وتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن وللعاملين المخلصين فى سبيل عزته وكرامته ، والشجو الحزين على مآسيه والاستمساك بمناقب الغيرة والكرامة والشمم والاباء .

---

(١) كتاب مصطفى كامل باعث الوطنية ص ٣٣٠ لعبد الرحمن الرافعى .

دعاباته السياسية

ويستخدم فيها صبرى الشعر الرمزى ، رمزية الكلمة ورمزية الجملة ورمزية الصورة وهذه الدعابات كتبها عندما استقالت وزارة مصطفى فهمى وتألفت وزارة بطرس غالى سنة ١٩٠٨ منها ما قاله على ألسنة الوزراء المستقيلين ، ومنها ما قاله على ألسنة الوزارات تحية من كل وزارة لوزيرها الجديد فى وزارة بطرس غالى ونشرها بعنوان « على أبواب الدواوين » ، ونشرت جميع هذه الدعابات ممهورة باسم بنلتاؤور ، وهو الشاعر المصرى القديم ، وقد أودع هذه المقطوعات من فكاهاته الطريفة مما ينبىء عن ظرفه النادر .

على لسان مصطفى فهمى باشا عند استقالته

انني استغفر الله لكم ... آل مصر ليس فيكم من رجال
فل غربى ما أرى من نومكم ... ورضاكم بوجود الاحتلال
بح صوتى داعيا مستنهضا ... صارخا حتى تولانى الكلال
لم أجد فيكم فتى ذا همة ... ان عدا الدهر عدا أوصال صال
رحم الله وزيرا سامه ... قومه ما ليس يرضى فاستقال

على لسان بطرس غالى باشا

بعد ما استقالت وزارة مصطفى فهمى باشا الأخيرة ، وكان بطرس غالى باشا وزير الخارجية فيها ، ويعرض فى هذه الأبيات بما كان يشاع عن مصطفى فهمى باشا من ممالأته المحتلين ، كما يشير الى وطنية بطرس غالى .

أصبحت فى حيرة وهم ... ما بين مصر وبين فهمى
هذى تنادى نداء عان ... تلاف أمرى وداو سقمى(١)
وذاك يرجو رجاء خل ... له أياد على تهمى(٢)
دعها تنادى بما تنادى ... وكن على خطتى ورسمى
فالسلم درس وقد علمنا ... مغبة السلم كيف تحمى(٣)
يارب بابن البتول حطنى ... وزن مقامى وطهر اسمى
فاننى ان بررت خلى ... عققت ـ لا شك ـ خير أم(٤)

على لسان عبانى باشا

وزير الحربية والبحرية بعد استقالته مع النظارة الفهمية

يا جنود البر والبحر أشهدوا ... واسمعوا منى كليمات فصاح
ذى يدى قد مزقتها لقم ... تجتنى من فوق أطراف الرماح(٥)
ذاك جسمى رسم الدهر على ... كل عضو منه أهوال الكفاح،

---

(١) العانى : الاسير ، تلاف أمرى : أى تداركه .

(٢) الايدى : النعم ، تهمى : أى تهطل .

(٣) مغبة السلم ـ عاقبته .

(٤) خير أم : أى مصر .

(٥) تجتنى من فوق أطراف الرماح ـ كفاية عما لاقاه من المصاعب فى سبيل العيش وتعذر الرزق فى المناصب العسكرية .

انني عفت تكاليف العـــلا   بينكم والعيش فى ظل الصفاح
رحم الله وزيرا عامـــلا   ملئت فخرا يـداه فاستراح

على لسان حسين فخرى باشا

ان بناء (الخـزان) أنهكنى   وهد جسمى وزاد فى سقمى(٢)
استودع الله كـل ما صنعت   يدى وشادت من بـاذخ هممى

على لسان أحمد مظلوم باشا
وزير المالية المستقيل

انا اذا سلبت وظائفنـا   وتـألفت من غيرنـا دول
نبنى كما كانت أوائلنـا   تبنى ونفعل مثـل ما فعلوا

على لسان ابراهيم فؤاد باشا
وزير الحقانية

أستغفـر اللـه من عصر تـكنفنى
فيـه الخبيثـان من جـاه ومن مـال
استغفر اللـه من (فهـمى) وشيعتـه
ومن (عبانى) ومن فخرى ومن (غـالى)
لو استطعت ركبت النـاس كلهـم
الى الحجـاز ركوب الراحـل القالى

---

(١) عفت : كرهت ومللت ـ الصفاح : السيوف .
(٢) يشير الى ان بناء خزان أسوان كان فى عهد توليه وزارة الاشغال .

على ابواب الدواوين

وهي دعابات شعرية نشرها تحية من كل وزارة لوزيرها الجديد .

على بـاب الخارجية

تحية لوزيرها الجديد بطرس غالى باشا رئيس الوزراء

اهـلا ببطرس اهـلا   بالمتـوى المسـتقيم
قديم كـل جديـد   جـديد كـل قـديم

على باب الداخلية

تحية لوزيرها الجديد محمد سعيد بك

(سعيد) أهـلا وسـهلا   أنت الكبـير الصـغير (١)
دعنـا نقـل عن قـريب   أنت الـكبير الـكبير(٢)

على باب المعـارف

تحية لوزيرها الجديد سعد زغلول باشا

اهـلا بسعـد وسهـلا   بالحـاذق الفيلسـوف
رجـعت بـدرا منيـرا   مستهتـرا بالكسـوف(٣)

---

(١) يشير بقوله (الصغير) الى حداثة عهده بتولى منصب الوزارة اذ ذاك .

(٢) يتفاءل الشاعر لقوله (أنت الكبير الكبير) لمحمد سعيد بأن يتولى رئاسة الوزارة في المستقبل .

(٣) يشير بقوله (مستهترا بالكسوف) الى ما حدث في شأن تولى سعد لوزارة المعارف من أن الخديوى كان يأبى دخوله في وزارة بطرس غالى باشا ، لظروف خاصة بينهما اذ ذاك ، حتى اقترح اللورد كرومر ادخاله فيها فكان ما اقترح .

على باب المالية

تحية لوزيرها الجديد أحمد حشمت باشا

ابعدوا (أحمدا) وجاءوا بشان ظلمـــوه كما أراد الغشـــوم
فتسلت خزائن المـــال مظلـو م تولى وجاءها (مظلوم) (١)

على باب الأشغال

تحية لوزيرها الجديد اسماعيل صبرى باشا

قالت الأشـــغال لمـــا أفلت أنـــوار (فخـــرى)
هنئـــوتى هنئـــونى جـــاء من يعـــرف (سرى)

على باب وزارة الحربية والبحرية

عسكـــــرى انجـــليزى ....

على بـــاب الحقانيـــة

تحية لوزيرها الجديد حسين رشدى باشا

(أرشدى) سلام مرحبـــا بك مرحبـــا
وأهلا بصا فى الروح والقلب والقصـــد
سيفرح قـــانونى وتـــرضى شرائعى
اذا زدت من شـــأنى وأبلغتنى رشـــدى

---

(١) تسلت : تعزت : يقول ان خزائن المال تعزت عن وزيرها السابق مظلوم باشا بناظر آخـر مظلوم فى اسناد هـذا المنصب الكبير اليه اذ ليس أهلا له فقد ذهب مظلوم وجاء مظلوم ٠

الباب الثالث

الشعر الفلسفي والصوفى

- الشعر الفلسفى
- اخلاق الناس
- الدواة
- الالهيات

الشعر الفلسفى

مقدمة

اختلف النقاد من قديم الزمن فى شأن العلاقة بين الشعـــر والفلسفة ، فرآى بعضهم أنها علاقة خصــومة وعداوة ، ورأى البعض الآخر أنها علاقة صداقة وتزاوج وكان افلاطون من الفريق الأول ، فقد سلم زمام جمهوريته للفلاسفة ، ونفى منها الشعراء ولم يقبل من الشعر الا تلك الأناشيد التى تتمدح بالآلهة وعظماء الرجال ، كما لم يقبل من الموسيقى الا الأنغام التى تعبر عن الشجاعة وتلهم الاعتدال وحكم النفس ٠

أما الفريق الآخر ، فكان منهم الشاعر والناقد الانجليزى ، « كولردج Coleridge » وقد قال هذا الناقد (لم يستطع انسان أن يصبح شاعرا كبيرا دون أن يكون فيلسوفا عميقا ، لأن الشعر نتاج معارف الانسانية جميعا) ثم استطرد قائلا (أرى أن لا سبيل الى الوصول الى التفكير العميق الا بواسطة انسان عميق الشعور ٠ كما أرى أن جميع الحقائق أنواع من الالهام) وهو من ذلك لم ير أن الشاعر ينبغى أن يكون فيلسوفا فحسب ، بل رأى أيضا ان الانسان لن يكون فيلسوفا صادقا الا اذا كان شاعرا ٠

واعتاد الناس أن يصلوا بين الفلسفة والتفكير العميق ، وان

يصلوا كذلك بين الشعر والاحساس العميق ، وكانت الفلسفة ـ وهي حب الحكمة ـ تعنى البحث عن الحقيقة العارية المجـــردة ، بواسطة التفكير المنطقى ، أو كما قـال الفيلسوف الامريـكى وليم جيمس William James (وهي مجهود متواصل غير عادى للتفكير الواضح) واعتاد الناس كذلك أن يروا أن الشعر يستهدف الحقيقة أيضا ، ولكنها حقيقة لا تتعلق بالأشياء والأفكار قدر تعلقها بالشعور أى أن الشعر يستهدف حقيقة الشعور ، فالشعراء يدركون الحقيقة ، بالقاء أضواء من أخيلتهم على العالم الخارجى ، ويعتقدون أن ما يراه الخيال جمالا هو الحقيقة ٠

على أننا نستطيع أن نقول بشكل عام ، أنه بينما يحاول العلم والفلسفة تسجيل الحقيقة والواقع تسجيلا موضوعيا مجـــردا ، يحاول الشعر تسجيل حالات الشعور الانسانى ، وكذلك تسجيل الأشياء والأفكار ملونة بالعواطف والانفعالات وذكرنا من قبل أن الشاعر « كولردج » قال أن الشاعر الكبير ينبغى أن يكون فيلسوفا كبيرا ، وأن جميع المحاولات الناجحة للنفـاذ الى الحقيقـــة كانت مصحوبة بالشعور العميق أى أن الحقيقة لا تنكشف الا للانسان بأكمله لرأسه ولقلبه معا ٠ وقد يكون هذا معناه أن أفكار الفيلسوف المجردة مثلها مثل جسد خلا من الحياة يحتاج الى الشـــاعر حتى يبعث فيه الحياة ، ولكن لن يصل الى الصورة الكاملة للتجربة ، الا من تعتلج نفسه بالعواطف والانفعالات فالشاعر الـــذى يصف موجة من موجات البحر ، يصل الى أكثر مما يصل اليه العـــالم ، الذى يصف هذه الموجة لأنه يسجل الحقيقة غنية بقيمها وبآثارها فى النفوس ٠

أخلاق الناس

قصيدة بعنوان « النجم هالى » .

في سنة ١٩١٠ ، كان النجم المعروف « بمـذنب هالى » ، يقترب من الكرة الأرضية يوما فيوما ، آتيا من حـدود العـالم الشمسى ، منذ ظهوره آخر مرة فى سنة ١٨٣٥ م ، وهذا المـذنب لا يظهر لسكان الأرض الا مرة كل خمس وسبعين سنة ، وقـد زادت حركته وضوحا من ابتداء شهر مارس سنة ١٩١٠ ، وفى التاسع عشر من شهر أبريل من تلك السنة وصل المذنب الى أقرب مسافة من الشمس ، ثم استمر فى مسيرة متجها الى عالمنا ، وذكر الفلكيون أن لهذا المذنب ذيلا طويلا مكونا من غازاتسامة وقيـل أيضا ان الشمس ستدفعه الى عالمنا فيصير جـو الأرض خانقـا ومميتا .. وحددوا لذلك يومى ١٨ ، ١٩ من مايو سنة ١٩١٠ . وساد الذعر والهلع نفوس الكثيرين ، وأيقنوا أن فى ذلك البـلاء المستطير والفناء لجميع الأحياء على الأرض ، وقد سمى النجـم « هالى » نسبة الى مكتشفه الاستاذ « هالى » الفلكى الشهير .

ويتحدث الشاعر هنا عن الأخـلاق الاجتماعية فى عهده ، وكيف انحدر الناس الى مهاوى الرذيلة ، وكيف استهـانت الأمم

المستعمرة القوية بالأمم الضعيفة العزلاء ، وضاعت القيم العالية ، ورخصت المثل العليا بين الناس فى معاملاتها بعضها البعض •

وقد جاء فى هذه القصيدة ما يلى :

١ ـ غاض مـــاء الحياء من كـل وجـــه
ففـدا كالح الجـــوانب قفـــــــرا

٢ ـ وتفشى العقـــوق فى النـــــاس حتى
كـــاد رد الســـــلام يحسب برا

٣ ـ أوجه مثلمـــــا نثرت على الأجـــــــ
ـداث وردا ان هـــــن أبـــــدين بشرا

٤ ـ وشفاه يقلن « أهـــــــلا » ولـــــــو
ادين ما فى الحشـــــا لمـــا قلن خيرا

٥ ـ عمرك اللــــــه هـــــل ســـــلام وداد
ذاك أم حـــــاول المســــلم أمـــــرا

ثم يذكر الدول القوية التى دانت لها الشعوب خوفا واستسلاما فيقول :

٦ ـ عميت عن طريقهـــا أمم تعـــامت
أمم فى مغـــاوز الجهــــل حيرى

٧ ـ غرهـــا سعدهـــــا ومن عـــادة السعـ
ـد يواتى يوما ويخـــذل دهـــرا

٨ ـ فتجنت عـــــلى الشـــعوب وشنت
غارة فى البلاد من بعد اخـــرى

ثم يهدد هذه الشعوب المستعمرة الغاشمة

٩ ـ حاذری يا ذئات صولـــــة أســـد
منك أقـــوى نابا وأنفـــذ ظفـــرا

١٠ ـ لا تنـــامی يا أســـد ان ذئابـــا
لم تنم من روابـــض الغيـــل أضرى

١١ ـ عبر كلهـــا الليـــالى ولـــكن
أين من يفتح الـــكتاب ويقـــرأ

١٢ ـ أنت نعم النذير يانجـــم « هـــالى »
زلزل السهـــل والرواسى ذعـــرا

١٣ ـ ظن قوم فيـــك الظنون وقـــالوا :
آيـــة أرســـلت الى الأرض كبرى

١٤ ـ ان يكن فى يمينـــك الموت فاقـــذ
فه شواظا على الخـــلائق طـــرا

ثم يخاطب النجم هالى فيقول :

١٥ ـ هل تلقيت من لـــدن خـــاذل البا
غى وحـــامی الضعيف يانجم سرا

١٦ ـ أغـــدا تستوى الانـــوف فلا ينـــ
ظر قـــوم قـــوما على الأرض شذرا

١٧ ـ أغدا كلنـــا تراب ولا نملـــك
خـــلاف التراب برا وبحـــرا

١٨ ـ ان يكن ما يقولون يا نجم فاصـــدع
بالذى قـــد أمـــرت حييت عشرا

في هذه القصيدة تتدفق الحكمة والمعاني العالية من بين ثناياها، ففي البيت الأول يندد بالاستهتار الأخلاقي الذي ساد في عهده وفي السادس يندد بالامم الاستعمارية التي انتشت بخمرة النصر والمجد، فهان أمامها أمر الشعوب الضعيفة واغتالت حقوقها وأنكرت وجودها، ولكنه يعود في البيت التاسع فيحذر هذه الأمم الغالبة الباطشة من نتيجة استهتارها ، وان هذه الشعوب الضعيفة سوف يحين يومها لتثور وتبطش بمن استباحوا حقوقها ، وكأن الشاعر يتنبأ بما سيجري بعد نصف قرن من تصفية الاستعمار ومن ثورة الشعوب ضده واستقلال أمم عديدة في أفريقيا وآسيا ، وبصفة خاصةالنهضة العظيمة التي نهضتها الدول العربية في الشرق الأوسط .

وفي البيت الرابع عشر يفيض الشاعر غضبا على سكان هذه الأرض لتماديهم في الشر وترديهم في هوة الموبقات والمعاصي ويرى أن خير علاج هو ابادة الأرض ومن عليها ولعله يصور في هذا البيت الجانب المتشائم من نفسيته .

وفي البيت السادس عشر يشير الى أن الموت هو المساواة بين جميع الأحياء يستوي في ذلك الظالم المستعلي ، والضعيف المسالم والغني والفقير والأمير والحقير .

وكأنه بذلك يقول : ان الظالم مهما طغى وبغى فلابد له من يوم يذل فيه ، يدفن طي الثرى ، فليتعظ الانسان ولا يغتر بالدنيا اذا أقبلت عليه ولا بالأيام اذا ابتسمت له .

الدواة

ومن قصائده الفلسفية ، تلك القصيدة التى نشرت فى سنة ١٩١٠ يخاطب فيها الدواة قائلا :

يا دواة اجعــلى مدادك وردا
لوفـــود الأقـــلام حينا فحينا
وليكـــن كالزمـان حـــالا فحـــالا
تـــارة آسنا وأخرى معينـــــا
أكرمى العـــلم واعنـــحى خادميـــه
مـــاءك الغـــالى النفيس الثمينـــا
وابذلى الصـــــافى المطهـــر منه
لهــــداة السرائر المرشدينـــا
واذا الظلم والظـــلام استعانـــا
يـــوم نحس بأجهـــل الجاهلينـــا
واستمـــدا من الشرور مـــدادا
فاجعليه من قسمـــة الظالمينـــا
واقذفى النقطــــة التى بات فيهـا
غضب القاهر المـــذل كمينـــا

لبراع امـــرىء اذا خط ســـطرا
نبـــذ ألحق وارتضى المين (١) دينـــا
واذا كان فيـــك نقطـــة سوء
كونت من خباثـــــة تكوينـــا
فاجعليها قسط الذين اســـتباحوا
فى السياسات حرمـــة الأضعفينـــا
واذا خفت أن يـــكون من اللفـــ
ـــظ جلاميـــد ترجم السامعينـــا
فابخـــلى بالمـــداد بخـلا وان أعـــ
طيت فيه المئين ثم المئينـــا
فاذا أعـــوز المـــــداد طبيبـــا
يصف الـــدواء دائبا مستعينـــا
فامنحيـــه المـــــداد منا وعرفـــا
واستطيبى معـــونة المحســـنينا
واذا مهجة الحمـــــائم أســـــدت
نقطـــة سرهـــا الزكى المصـــونا
فاجعليهـــا على المودات وقفـــا
وهبيهـــا رسائـــل الشيقينـــا
فاذا لم يـــكن بقلبـــك الا
ما أعد الاخـــلاص للمخلصـــينا
فاجعليه خـــطى لاكتـــب منـــه
شرح حـــــالى لسيد المرسلينا

(١) المين : الكذب •

وهنا يسرح الشاعر بخواطره فى الظروف التى يستعين فيهـا الانسان بالدواة ، لأن الدواة تحوى المداد ، والمداد غذاء الأقـلام ، والأقلام يحرر الانسان بها ما يشاء من محررات ٠

فالمحامى يسجل دفاعه في مذكراته ، والقاضى يسجل أحكامه بعد بحثه القضايا والحاكم الظالم ينفذ سلطانه واستبداده بمـــا يصدره من أوامر وقوانين صارمة ، ممهورة بتوقيعه والا لما كانت لها قوة النفاذ ، والأديب يكتب نفثات روحه ، وحبات آماله المتعطشة للحرية والعدالة ، والطبيب يحرر بطاقة الدواء لشفاء المريض المعنى الذى يتقلب على فراش من قتاد ؟ والطالب يدون دروسه ومعارفه الى جميع هؤلاء : يرسل الشاعر حكمته ومشورته ، وآماله وأحلامه ، وليس غريبا أن تصدر منه هذه الفلسفة وهو القاضى النزيه الذى عرف قوة الكلمة المكتوبة وأثرها ، سواء كانت لنشر الســـلام أو لاشعال الحروب وما تسببه من موت ودمار وخراب ، العقوبـــات الرادعة ؟ أم الاحكام المخففة المهذبة ؟ الكلمة ٠٠٠ هى الكلمـــة أيا كان أثرها ٠٠ ؟ فكم شعوب طغت واتخذت من المعاهدات المكتوبة ٠٠ قناعا مؤقتا ٠٠ حتى تعد نفسها وتكون على أهبة البطش بالأمم الضعيفة المسالمة ؟ وكم من قرار وقعه ملك شديد أو طاغية جبار ، كان فيه القضاء على مصائر الملايين من العباد ، والفناء لهم وذراريهم جميعا ؟

وكم من كلمة صدرت عن داعية للسلام ، أقام بها شعوبا ، وأرسى قواعد البناء لممالك طامحة الى الحياة و ٠٠٠٠ كم من كلمة رفعت ظلما وأقامت دعائم للعدل والحرية ، وكم من كلمة كانت أس الويلات والمظالم ، ولنا فى أحداث التاريخ المعاصر أقوى دليل على قوة الكلمة من التصريحـــات والقرارات ٠٠٠ التى تصدر عن الساسة والأقطاب والزعماء ٠

وفى المقطوعة التالية ذات الخمسة الأبيات يتجلى الشاعر وهو مرتد زى المعلم المرشد ، يهدى الناس ويحذرهم من طيش الشباب ، وغروره ولهوه ويحذرهم أيضا من تمسكهم بعاداته ورذائله ، حتى بعد أن أفلت منهم زمامه . وولت أيامه ، وعدت شهوره وأعوامه ... فكم من شيخ فقد عقله ، ونسى وضعه وجهل مكـــانه من أجيال الحياة وبدا بمظهر مزر بكرامته وانسانيته ، حين يلهو اثر الشباب يحاول مجاراتهم فى مضمار عبثهم ومجونهم ، وهو يعلم حق العلم أن زمان العبث والمجون ولى وانقضى .

الشباب والمشيب

نشرت فى ١٥ من يوليو سنة ١٩٠٠

لم يـــدر طعم العيش شبان ولـم يدركــــــه شيب
جهل يضـــل قوى الفتى فتطيش والمـــرمى قريب
وقـــوى تخـــور اذا تشبث بالقـــوى الشيخ الأريب
بينا يقـــال كبا المغفل اذ يقـــال خبـــا اللبيب
أواه لو عـــلم الشبـــا ب وآه لو قـــدر المشيب

الحـلم والانـــاه

سنة ١٩٠٩

اذا ما دعا داع الى الشرمـــرة وهزت رياح الحادثات قناتى
ركبت اليه الحـلم خير مطية وسرت اليـه من طريق أناتى

وهذان البيتان جمعا من الفطنـــة والعبرة ما تقصر عنـــه

المقالات الطويلة والخطب البليغة والمواعظ العديدة ، ويوضحان فى بلاغة وايجاز كيف يطفىء الحلم نار الخصومة والشر .

شكوى الحياة

كم ساعة آلمنى مسهـــــــــا وأزعجتنى يدهـــا القاسـية
فتشت فيها جاهدا لم أجـــد هنيهـــة واحدة صافيـة
وكم ســـقتنى المر أخت لهـــا فرحت أشكوها الى التاليــــة
فاسلمتنى هذه عنــــوة لساعـــة أخرى وبى مابيـه
ويحك يا مســـكين هل تشتكى جارحة الظفـر الى ضارية
حاذر من الساعات ويل لمـــن يأمن تلـــك الفئة الطاغيـــة
وان تجد من بينها ساعـــــة جعبتها من غصص خاليــــة
قاله بها لهـو الحـــكيم الذى لم ينسه حـــاضره ماضيـــه
وامرح كمـا يمرح ذو نشـوة فى قلة(١) من تحتها الهاويـــة
فـــهى وان بشت وان داعبت محتالة ختالــــة عاديـــة
عناقهــــا خنق وتقبيلهـــــا كما تعض الحيـة الباغيـــــة
هذا هو العيش فقل للـــذى تجرحــه الساعـــة والثانية
يا شاكى الساعات أسمع عسى تنجيك منها الساعة القاضيـــة

انفعل الشاعر بمشهد رآه فى أثناء زيارته لكنيسة فى فرنسا، وهو شاعر جواب آفاق ، ومنتجع للجمال يسعى لرؤياه أينما كان، ففى كنيسة ريمز ، (من الكنائس المشهورة بباريس) وهى أيضا من الكنائس الأثرية العريقة بأمجادها الفنية . شاهد ضمن ما شاهد فيها ساعة حائط كبيرة ، مكتوبا على عقربها بالفرنسية ما معناه « كلهن جارحات والأخيرة القاتلة » أى أن ساعات العمر جميعـــا

---

(١) القلة : القمة العالية .

طافحات بالجروح والآلام ، والساعة الأخيرة هى الساعة التى ينفذ فيها سهم القضاء بل هى ساعة المنون . . . . .

تأثر الشاعر لهذه العبارة أيما تأثر ، وألهمته هذه القصيدة التى يفوح منها شكوى الحياة ، ولكنهـا مـع ذلك عامرة بالفطنة والعبرة ..

والحق أن هذه الأبيات قد بلغت من رقة اللفظ ودقة المعنى ، وجمال التصوير ورشاقة التعبير وبراعة السبك وتمام الانسجام حدا بعيدا .

اسماعيل صبرى والموت

راحــة القبر

نشرت فى سنة ١٩٠٢

ان سئمت الحياة فارجع الى الار — ض تنم آمنا من الاوصـــاب
تلك أم أحنى عليـــك من الأم — التى خلفتــك للاتعــاب
لا تخف فالممات ليس بمـــاح — منك الا ما تشتكى من عـذاب
كل ميت باق وان خالف العنوا — ن ما نص فى غضون الكتــاب
وحياة المرء اغتراب فان مــا — ت فقد عاد سالما للتـــراب

موت الحياة

نشرت فى سنة ١٩٠٦

مقابر من ماتوا مواطن راحـــة — فلا تك اثر الها لكين جزوعـــا
وان تبك ميتا ضمهالقبر فادخر — لميت على قيد الحياة دموعـــا

التزود من الاحباب المودعين
نشرت فى ١٩٠٩

١ ـ تزود من الأقمـــار قبل أفولهـــا
لظلمـــة أيام الفـــراق وطولهـــا

٢ ـ فرب وداع ينفـــع المـــرء بعضه
اذا رضيت نفس امـرىء بقليلهـــا

٣ ـ غـــدا تفعل الأشجان بالركب فعلها
وتجتث هاتيك المنى من أصولهـــا

٤ ـ ويدرى أخو الأشـواق سر هلوعـه
لذكر النوى والخوف قبل نزولهـــا

٥ ـ لقد بوغتت تلـــك المنى فتصرمت
ولم تقض منها النفس : أيسر سؤلها

٦ ـ أأنت رزين أيها القلب فى غـــد
كعهدك أم ســـار وراء حمولهـــا

ولقد نظم الأبيات الأربعة متأثرا ببيتى البحترى وهما :

ولقد تأملت الفراق فلم أجـــد
يوم الفراق على أمرىء بطويـــل

قصرت مسافته عـــلى متزود
منـــه لدهـــر صبابـة وعويـل

الثعلب والغراب

محاورة ترجمها الشاعر عن الكاتب الفرنسي المشهور
لافونتين ، نشرت في ١٩١٠/١/١٧

أبصر الثعلب الغراب على غصـ ... ـن نضير في روضـــة غناء
ورأى قطعة بفيه من الجبنـــ ... ـة تزرى بالفضـــة البيضـاء
خير ما تنتقى وأطيب ما تخـــ ... ـطف من مأكل لصوص الهــواء
فاشتهاها وقال : ان لم تكن لى ... أنكرتني ثعالب الغبــــــراء
ثم أنشـــأ يثني وينصب أشرا ... كا وشر الأشراك بعض الثنـــاء
قائلا : يا أمير عم كل صـــبح ... صائحا ، صـادحا كل مســـاء
هات ، زدنا علمــا بقدرك يامو ... لاى ، من أنت من بني العنقـــاء
أغراب ؟ تبـــارك اللـــــه ... آمنا بفضل الغربان أهل العـلاء
الق درسا على البلابل غلمـــا ... نك في الفن يا أبا الفضـــلاء
وترنم بمن أفـــاض على حلـ ... ـقك ما لم يفض على الـــورقاء

★ ★ ★

كلمات أصغى الغبي اليهـــا ... فـاعتراه مس من الخيـــلاء
وتغنى فلم يحس بمـــــا ال ... قاه في فـخ أشعر الشعــراء
بل رأى الجبنة الشهية تهوى ... فبكاها ولات حـــين بكـــاء
وتلقى اللص الغنيمـــة واستا ... ذن في الحـال زاهدا في الغناء
قائــلا : طبت يا مغني الندامى ... غن غيرى قدحان وقت غذائـي

(الغراب)

ايها الثعلب ارتحـــل لا هنيئا ... لا مريئـا يا الأم اللؤماء

(الثعلب)

أيها الطـائر الغبي تعـــلم ... ذا جزاء الأغرار والجهـــلاء

(الغراب)

لم تزد يا أبا الحصين على أو ... لاد حـواء فى ضروب الدهـاء

(التفات الى المكر فى الناس)

ان منا من ينصب البيت فخـا ... لاقتناص القصر الرفيع البنـاء
فاذا مد للسماء يمينـا ... سـل منهـا كوكب الجوزاء
بعضنـا لا يزال فى اثر بعض ... ناهبا سالبا بلا استحيـاء
فتعـوذ من هـؤلاء وحاذر ... لا تكن ـ ان عددت ـ من هؤلاء

الأمـانى

نبيت من المنى نبنى صروحا ... وندعمها فيهدمها النهـار
فيضحك ساخرا منا وقوفـا ... على أنقاضها الفلك المـدار
ذرينا من معاقرة الأمـانى ... يليها العمر من خبل خمـار
فكم قربن من أمد بعيـد ... تعثر دونه الهمم الكبـار
وكم أولين من عـال فمـدت ... اليه أكفها أيـد قصـار

الشعر الصوفى

كان أبن الفارض الصوفى شاعرا تجلت دقة حسه ورقة نفسه ورهافة شعوره فى شعره ، كما تمثلت فى ذوقه ووجده ، فهو قد جمع فى شخصه بين نبعين صافيين ينهل منهما ويصدر عنهما ، أحدهما نبع الوجد الروحى ، وثانيهما نبع الطبع الشعرى ، وهو قد اتخذ من الشعر أداة للتعبير عما يعانيه من رياضات ومجاهدات روحية ، وما عرض له من أذواق ومواجيد ، وما انتهى اليه من مكاشفات ومشاهدات ولا يكاد يصطنع النثر فى التعبير عن شىء من هذا كله أو بعضه الا عندما كان يقص قصة واقعة وقعت له ، أو يعقب على كلام ألقى بين يديه ، أما ذات نفسه وأما حياته الروحية فيما بينه وبين ربه ونفسه وأما حبه الالهى الذى ظل طوال حياته مرتلا لأنشودته ترتيلا جميلا ، ومسبحا فيه بجمال محبوبته تسبيحا طويلا فكل أولئك كان الشعر مرآته المصورة له ، وأداته المعبرة عنه . ويعد شعره الصوفى قمة شامخة من قمم الشعر الرمزى !!

ومهما يكن من شىء فان لابن الفارض من حيث هو شاعر ، مكانته الأدبية فضلا عن منزلته الصوفية بين شعراء عصره وصوفيته، كما أن لديوانه قيمته الكبرى وخطره ، العظيم بين دواوين الشعر سواء من الناحية الأدبية أو الصوفية .

وقد كان اسماعيل صبرى من المعجبين بشعر أبن االفارض وقد قرأ ديوانه فى مستهل حياته ، وأترع من نبع صوفيته ، وكان المظنون أن يثمر هذا الاعجاب والاطلاع الشىء الكثير من القصائد ، ولكن ماوصلنا من مقطوعات قليلة لايؤدى الى هذه النتيجة ، وربما كان لاسماعيل صبرى قصائد أخرى كثيرة فى هذا المضمار ، عفت عليها يد الاهمال والنسيان لانه لم يكن يعنى بجمع اشعاره وحفظها، والذين اهتموا بجمع أشعاره بعد وفاته بمدة كبيرة ، وجدوا العناء الكبير فى البحث والتقصى للحصـول على أغلب ماصـاغته قريحته الشعرية وفيما يلى ماوصلنا من أشعاره الصوفية ٠

الألهيات

بين الخوف من الله والأمل فى عفوه
وجدت مكتوبة بخطه

خشيت حتى قيل انى لم أثــق ... بأنك تعفو عن كثير وترحـــم
وأملت حتى قيل ليس بخائف ... من الله أن تشوى الوجوه جهنم
فشأنى فى حالى يارب حـــيرة ... بها أنت من دون البرية أعلم
اقلنى من الشك الذى قد أحاط بى ... فشأنى فى حالى يارب مبهـــم
مر الحجب ترفع عنك استقبل الهدى ... صريحا وينهج منهج الحق مجرم

هذه من أرع مقطوعـــاته التى يناجى فيهـــا الذات الالهية بروح ورغبة نفسية نقية واخلاص بالغ ، وفيها صوفية رائعة وحب ساطع يموج فى نفسه ،

الأمل فى الله
نشرت فى سنة ١٩١١ م

أنا يا الهى عند بابك واقف ... لا أبتغى عنه الزمان عـــدولا
ما جئت أطلب أجر ما قدمتـــه ... حاشا لجودك أن يكون قليـــلا
عظمت آمالى وصغرت الـــورى ... من ذالها ان لم تك المأمولا
انى ليعجبنى وقوفى سائلا ... ان كنت أنت السيد المسئولا

وجود الله

قالها سنة ١٩١٨ م

تعـــالى اللـــه لا يعـــا ـــم كنـــه اللـه انســـان
أتبـــحث عنــه فى واد ومنه الـكون مـــلآن
أتنكـــــره وأنت عليـــ ـــه ـ لو فكرت ـ برهـــان

التصوف فى شعر اسماعيل صبرى

١ ـ يارب أين تـــرى تقـــام جهنم
للظـــالمين غـــــدا وللاشرار

٢ ـ لم يبـــق عفـوك فى السموات العلا
والأرض شبرا خاليــــا للنار

٣ ـ يارب أهلنى لفضـــلك واكفنى
شـــطط العقـــول وفتنـة الأفكـار

٤ ـ ومر الوجود يشف عنك لـــكى أرى
غضب اللطيف ورحمـــة الجبار

٥ ـ يا عالم الأسرار ، حسبى محنـة
علمى بأنك عـــــالم الأسرار

٦ ـ أخلق برحمتك التى تسـع الـــورى
ألا تضـــيق بأعظـــم الأوزار

هذه الأبيات من خير ما قيل فى الاستعطاف والرجاء ، وهى من أرقى الشعر الغنائى الصوفى ، الذى يعلو بالعاطفة الدينيـــة الخالصة الى السماء كما تعلو الصلوات لله عز وجل .

وحين يسبح صبرى فى بحار الخلود ، تشف روحه عن غرامه

به ، وتوقه اليه ، وشوقه نحوه ، نراه يسبغ على شعره لونا من الصوفية ، ويتجدد فى خياله ما وعاه عن شعر ابن الفارض وغزله الالهى الخالد ٠

وحين يخاطب الذات الالهية قائلا (يارب أين ترى جهنم ؟ كأنه يتخيل الجحيم الذى غاص فى لججه الشاعر الايطالى العظيم «دانتى الليجرى » فهو يناجى الذات الالهية مستمطرا رحمتها ، راثيا لحال الانسانية جمعاء ، بما تعانيه من ضعف وتخلف فى مضمار الروحانيات ، وقصورها عن ادراك الحقائق السرمدية العلوية ، التى يرغب الله سبحانه وتعالى عباده فى أن يتجهوا لادراكها عن طريق بصيرتهم لا نظرهم ، وايمانهم الروحى لا ايمانهم الحاسى ٠

وهو حين يناجى الموت ويتمناه ، يرسم لنا صورة شاعر تقى ورع ضجر من الدنيا وما بها من متناقضات ، وضج من هياج الناس وتصايحهم للفوز بمغانم الحياة ولذائذها المادية وهى الى الفناء والزوال بل ضج من الحياة وما فيها من معارضات بين القيم الروحية «الخالدة» والقيم المادية الزائلة فهو يحن الى عالم الروح ٠٠٠ عالم الخلود ٠٠ عالم ماوراء الموت٠٠ وحسبه فى ذلك الأمل البعيد فى حياة لا يعقبها فناء أو شقاء ٠

ويقول فى هذه المناجاة :

يا موت هأنذا فخذ ما أبقت الأيام منى
بينى وبينك خطوة ان تخطها فرجت عنى

الباب الرابع

الغزل عند اسماعيل صبرى

الغزل عند اسماعيل صبرى

مقدمة :

لعل الحب هو أهم موضوع شغل به الشاعر العربى ، فمنذ الجاهلية يغنى الشعراء حبهم ويصورون انفعالهم واحساسهم تجاه من يعشقونهم ٠ وكانت النزعة المادية تغلب عليهم أول الأمر ، فهم يصفون المرأة وصفا حسيا وقلما وقفوا عند وصف روحى نبيل ؛ لأن ظروف حيـــاتهم الوثنية حينئذ كانت تدفع الى هذا النوع من الغزل المادى الصريح ٠ فالشاعر لاينكر نفسه ولاحبه الحسى ٠

ولما جاء الاسلام أخذ الغزل يتطور بحكم ما أصاب تلك النفوس التى تنطق به من سمو ونبل، وسرعان ماظهر نوع جديد من الغزل العذرى الذى نشأ فى نجد وبادية الحجاز ، والذى يترجم عن لواعج الحب ترجمة صادقة تعبر عن مواجد الشاعر وأذواقه وأشـــواقه وما يحسه ازاء الدين من مجاهدات تنقى نفسه وضميره وتشعره غير قليل من الحرمان فيحزن ٠ وتضيف الصـــحراء بســـكونها ووجومها حزنا الى حزنه الروحى ، فينظم هذا الشعر الغزل الحزين الذى يجد فيه قارئه غذاء روحيا لا يقدر ٠

ومن أروع الأشياء أن يرجع الانسان الى كتاب الأغانى . ويقرأ ترجمة مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس ولبنى وأضرابهما من شعراء الغزل العذرى الذى يفصح عن رقة رقيقة ودقة فى الحس والشعور .

ولا يعنى هذا أن كل الشعراء فى العصر الاسلامى استحالوا الى هذه الصور النقية السامية من الغزل ، فقد بقيت آثار من الغزل المادى الجاهلى عن شعراء المدن من أمثال ابن أبى ربيعة ، ولكن مما لا شك فيه أن الغزل عند هؤلاء الشعراء خطا خطوات جديدة نحو رقة الحس ورهافة الشعور حتى اذا انتقلنا الى العصر العباسى وما أضطرب فيه الشعراء من اثم وفحش ومجون ، رأينا كثيرا منهم يغرقون فى الغزل المادى ، وينحطون الى تصورات جنسية شائنة فيها ايماءات اثارة وفيها غريزة من أمثال هؤلاء بشار وأبو نواس فنراهم لايجدون حرجا فى أن يتحدثوا حديثا صريحا عن نزوات الغريزة النوعية وكأنما لم يعد هناك حياء ولا ما يشبه حياء .

ومع ذلك فنحن لانعدم أسرابا من الغزل النقى عند العباس الأحنف وأضرابه مع أنهم لم يكونوا يمثلون الذوق العام - فالذوق العام أصابه وباء المجون ومايصحب المجون من صغائر ونقائص . وعلى هذا النحو أصبح الغزل فى أكثره غزل غرائز وان كان ذلك لم يمنع من تحليل مشاعر العشاق للجوارى الفاتنات فقد تدل الجارية على عاشقها ، وقد تصيبه من الصد والاعراض ، وقد تمتنع عليه امتناعا ، فتفتح للفتنة بها فى قلبه أبوابا من الحنين والبكاء والتفجع والشوق واللهفة ، فتقترن بصورة الحب الغريزى صورة الحب المحروم ، ومايبعثه من لوعة وحرقة وحزن ودموع .

وفى هذه الأثناء تتطور حياة الزهد فى الاسلام ، وتتحول تحولا صوفيا من الشوق الى ثواب الجنة الى الشوق الى رؤية الله جل جلاله ، والنعيم بجماله الأزلى ، ويصبح كل متصوف كأنه مجنون ليلى فهو يغنى الهه حبه وحنينه ، وأشواقه ومواجده ٠

ويأخذ المتصوفه فى نظم أشعار ، تصور هذا الحب للجمال المطلق ومدى مايصهرهم به من نيرانه ٠ وقد وجدوا فى الحب العذرى الاسلامى بذورا لتصوير ولههم لمحبوبهم وهيامهم به ، وهى بذور لم تلبث أن تحولت عندهم الى أشجار باسقة يانعة ، أغنت أدبنا بأزهار وجدانية رائعة ففيها جمال لاتشرق به قلوب العارفين من المتصوفه فحسب ، بل تشرق به جميع القلوب وتضيىء لما يشتمل عليه من فسحة ومن معان روحية ، وحتى عناصر الحب القديم المادية استطاعوا أن يحولوها الى تصوير أحوالهم الوجدانية ٠

ومن هنا كثر عندهم الغزل الحسى أو قل كثر اقترانه بغزلهم الروحى النقى الخالص ومن أظرف الأشياء حقا أن يقرأ الانسان فى هذا الغزل الصوفى ما يصوره من جمال الذات العلية ، وما يعبر عنه من اقبالها على المحب ، وصدها عنه وشوقه اليها ٠ وبهجته بوصلها وحزنه وألمه وحنينه لبعدها ٠

ولقد كان لغزل المتصوفة تأثير رائع فى القلوب ، وكان الناس يجدون فيه ما يغريهم عن الحياة السياسية والاجتماعية الفاسدة ، التى صاروا اليها فى القرن الرابع وما بعده ، اذ شعروا فيه بشىء من الطمأنينة والراحة ٠

وتدور بالغزل عند العرب دورات من الزمن تجمد فيها معانيه فى أكثر الأقاليم العربية وعند أكثر الشعراء ، فقد تحولوا الى

أصداف من التشبيهات – والاستعارات وألوان البديع المختلفة وهي أصداف قد تروق ببريقها ولمعانها ولكنها لا ترضى الشعور ولا تصادف هوى النفوس لأنها لا تعبر عن فطرة ولا بساطة وانما تعبر عن تصنع وتكلف ، ولكن من الحق أن هذا لم يشمل جميع الأقاليم الاسلامية ولا شمل جميع الشعراء ، فقد كان من بينهم من يستمد من الفطرة والطبيعة ومن يرتفع بشعره عن زخرف البيان والبديع اللفظى ، فينبض غزله بالعاطفة الصادقة وتتدفق فيه خواطر الحب ومعانيه .

وربما كانت مصر أكثر الأقاليم العربية عناية بهذا الغزل الوجدانى الطبيعى وحقا نجد بعض شعرائها يتشبهون بشعراء الأقاليم الأخرى ، فيحيلون غزلهم الى مرصعات ومصنفات ، بل يحيلونه الى زخارف دقيقة مثل القاضى الفاضل وتلاميذه ، وهؤلاء لا يعبرون عن الروح المصرية العامة حينئذ ولكن يعبر عنها البهاء زهير وأضرابه ممن يرفضون التكلف فى غزلهم ، ويطلبون أن يكون فيضا من الشعور الصادق والحس المرهف الذى لا تحجزه عوائق البديع ولا عوامل الصنعة .

فنه الغزلى :

يمتاز غزل اسماعيل صبرى بالرقة والعذوبة ، فله غزليات تجيش بسيل دافق من العاطفة والوجدان .

وقلما تحس فيها بتكلف أو ما يشبه التكلف ، وانما تحس بصدق الشعور الذى يأخذ بمجامع القلوب .

وكانت ظروف حياته الرغدة ، تتيح له ألا ينظم الا فيما تواتيه السجية وكان له منتدى يجتمع اليه فيه كثير من أهل الظرف والرقة فى عصره ، فكانوا يؤكدون هذين المعنيين فى نفسه ،وكانت هناك نواد أهم من ناديه أثرا وتأثيرا فى روحه ولا نقصد نوادى

الرجال أمثاله ، وانما نقصد نوادى السيدات من أمثال « مى » وكانت تجرى ناديها على طريقة الاديبات الفرنسيات من صواحب « الصالونات » وكان يختلف اليه كبار الادباء والمفكرين المصريين فى أوائل هذا القرن كما كـان يختلف اليه اسـماعيل صبرى • فيستمع الى الأحاديث الناعمة والمحاورات الرقيقة مع المرأة فيتأثر بذلك فى صميم نفسه ، ويكون سببا من أسباب رقة حاشيته •

واذا كان اسماعيل لم يقبل على الشعر اقبال المتكسب ، بل اقبال الهاوى الذى أتيحت له ملكة شـــعرية ، فلم يستغلها فى معارضته للقدماء وانما استغلها فى تدوين الخــواطر التى جاشت بهانفسه وكانت نفســا رقيقة ، ودعمت الرقــة فيها مؤثرات من بيئته المصرية وما اشتهرت به من عذوبة الروح ، كما دعمتها نوادى النساء التى كانت تخلع البهاء والجلال على المرأة ، فلم يعد هدفه مجاراة المتنبى وغيره من شعراء القصيدة العربية الجزلة الرنانة ، وانما هدفه مجاراة شعراء الوجدان الرقيق ورقائقهم ومقطعاتهم القصيرة •

وقد منح دوقا رفيعا وحسا دقيقا فاستوفى الرقة من أطرافها ولا تشك أنه قرأ كثيرا للبهاء زهير الشاعر المصرى الرقيق فقد كان المصريون فى عصره يعجبون به •

كما لا نشك أنه قرأ كثيرا لابن القارض الشاعر الصــوفى المصرى ، وكانت هذه القراءات تؤثر فى نفسه ومظهرها واضح فى شعره ، فهو يتغزل غزلا وجدانيا على طريقة البهاء ، وهو يناجى ربه ، ويبتهل اليه كثيرا ، ويستشعر فى قرارة نفسه خضوعا له واخلاصا لوجهه على طريقة ابن الفارض ، وان كان لا يعشق الذات الالهية عشـــقه ، ولا يطلب الفناء فى الهه ولا يتعمق فى مواجده وأذواقه الصوفية •

ومسح هـذا الجانب عنده على غزله ، ففيه شيء من التصوف والتسامي الروحي ، والحق أن مؤثرات كثيرة أثرت في غـزله ، بعضها من نفسه وظروفه وبعضها من بيئته وعصره فاستوى في هذه الصورة النقية التي لا يشوبها أي شيء من أدران الجسـد ونزعاته • فليس في القدود والنهود ورقة الخصر وكثافة الردف وغير ذلك مما يثير الغرائز ، وانما فيه السمو والطهر الذي تعشقه الأذواق الرفيعة ، وليس فيه ما يخدش الحيـاء ، فهو غزل أصفى وأروع ما يكون النقاء غزلا ولا يدفع اليه الميل الجسدي الذي يشترك فيه الانسان والحيوان • وانما يدفع اليه ما يحـدث الجمـال في الروح والعقل من لذة وألم ، ومن خير ما يمثل ذلك من شعره ، القصيدة التي يصف فيها من سماها « لواء الحسن » فكل النـاس يقتربون منها في اجلال وخشوع ، يريدون أن يستظلوا بظلال هذا اللواء وينعموا بما يصور من فتنة وحسن وجمال بقوله :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى ... أيقظـوا الفتنة في ظـل اللواء
فرقتهم في الهـوى ثاراتهم ... فاجمعي الأمر وصـوني الأبرياء
ان هذا الحسن كالمـاء الذي ... فيـه للانفس ري وشفـاء
لا تذودي بعضـنا عن ورده ... دون بعض وأعد لي بين الظماء
أنت يم الحسن فيـه ازدحمت ... سفن الامال يزجيها الرجـاء
يقذف الشوق بهـا في مائج ... بين لجـين عنـاء وشـقاء
شـدة تمضي وتأتي شـدة ... تقتفيها شدة هـل من رجاء ؟
سأعفي آمال انضـاء الهوى ... بقبول من سجاياك رخـاء
وتجلي واجعلي قـوم الهـوى ... تحت عرش الشمس في الحكم سواء
اقبلي نستقبل الدنيا وما ... ضمنته من معدات الهنـاء
واسـفري تلك حلى ما خلقت ... لتواري بلثـام أو خبـاء
واخطري بين الندامى يحلفـوا ... أن روضا راح في النادي وجاء
وانطقي : بنثر اذا حدثتنا ... ناثر الدر علينا ما نشـاء

وابسمي من كان هـذا ثغـره يملأ الدنيا ابتســاما وازدهاء
لا تخـافي شـطط من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحيـاء
راضت النخوة من أخلاقنـا وارتضى آدابنا صدق الـولاء
فلـو امتـدت أمانينـا الى ملك ما كـدرت ذاك الصـفاء
أنت روحيانيـه ، لا تـدعى ان هذا الحسن من طين ومـاء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن للملآ تكوين سكان السمـاء
وأرى الدنيـا جناحي ملـك خلف تمثـال مصوغ من ضياء

وأنت ترى صبرى يصور جمـال فتـاته تصـويرا هادئا ، فعاطفته متئدة ، وهو يصور هذا الجمال فى خشوع لا ترى فيـه نزوة ولا عارضا حسيا من عوارض الجسد ، بل هو يرتفع حتى عن نفسه ، فهذه الفاتنة لا تفتنه وحده بل تفتن كل من يراها فى النادى معـه ٠

ويعلق بعض الكتاب على هذه القصيدة بأن اسماعيل صبرى يخالف فيهـا غيره من الشـعراء في حبهم والاستئثار بالحسن ، ويرغب الى الحسناء أن تسوى بين محبيهـا فى التمتع بالنظر الى حسنها الباهر ٠ وكأنى بهؤلاء الكتاب لم يلاحظوا أن صبرى فى هذه القصيدة لا يريد أن يصور حبه وانما يريد أن يصـور حبه وحب غيره ليصل الى ما يريد أن يصنعه من هذا الجمال الذى يملك على الناس جميعا مشاعرهم وقلوبهم وعقولهم ٠

انه جمال ينشر الحب والفتنة فى كل نفس ، وقد عرف كيف يصوغه دون أن يعرض لشىء مادى فيه ، بل لقد تجاوز به المـادة وجعله روحانيا خالصا ٠ فصاحبته ليست من طين وماء وانما هى من سكان السماء أو كأنها تمثال مصنوع من ضـياء وهى لذلك لا تتعلق بها رغبات النفس ولا نزواتها ومن ثم لم تكن لصبرى وحده بل هى للناس جميعا يلتاعون ويبتهجون بلقائها وهو يشبه شمائلها

وسجاياها بالريح اللينة لرقتها ولطفها ويطلب اليها أن تشمل محبيها بضوئها كما تشمل الشمس الكون بنورها ويقول لها :

لا تخافى شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء

وهى صورة رائعة مثل فيها نفوس جلسائها تفتن بها فتنة تكاد تخرجها عن حدودها فتعثر بالحياء ، وكل ذلك رقة مفرطة ، رقة فى عدم الأثرة بمحبوبته ورقته فى وصف عاشقيها ووصفها وكأنها ملك ، تحول قد سيته دون لمسه **ولعلها هى نفسها التى يقول فيها :**

(نشرت في ١٩٠٩)

ياراحة القلب ياشغل الفؤاد صلى متيما أنت فى الحالين دنياه
زينى الندى وسيلى فى جوانبه لطفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حبانا بها الله
ان غاب ساقى الطلا أوصد لاحرج هذا جمالك يغنينا محياه

وهو فى هذه القطعة كما فى سابقتها ، يقف أمامها فى اجلال وخشوع مع أنها راحة القلب وشغل الفؤاد ، ولكن لا تحدثه نفسه ، الا بوصف لطفها ، وأنها كالزهرة فى الصحراء المجدبة ، أرسلتها العناية الالهية لا لتمس، وانما لتحى من بعيد فهو يحيط نفسه بجو حقيقى من الحب الروحى .. كل ما يأمله منها لقاء أو نظرة .

يا ظبية من ظباء الأنس راتعة
بين القصور تعالى الله باريك

هل النعيم سوى يوم اراك به
او ساعة بت اقضيها بناديك

وهل يعد على العمـــــر واهبــــــه
ان لم يجمله نظم الدر من فيــــك

ان قابلتـــــك الصبا فى مصر عاطـرة
فأيقنى أنهـــــا عنـــى تناجيـــــك

وانهـــــا حملت فـى طـى بردتهـــــا
قلبـــــا بعثت بـــه كيمـــا يحييـــك

فكل ما يطمح اليه منها ، أن يمتع طرفه برؤيتها ساعة أو لحظة وهو يكثر من النداء فى غـزله وكأنه يريد بمناجاته أن يطـــرب الوجدان ويحركه ، كما يكثر من النداء بكثير من صيغ الاســــتفهام والسؤال ، فيفتن فى المناداة والخطاب ؛ ويفتن فى المناجاة والحوار افتنانا يؤثر فى النفس ومن مشهور نداءاته هذه المقطوعة (نشرت سنة ١٩١٣ وقد غنتها كوكب الشرق أم كلثوم فى أول حياتها الفنية)

يا آسى الحى هـــل فتشــت فى كبــدى
وهـــل تبينت داء فى زواياهــــــا

أواه من حـــرق آودت بأكثرهــــا
ولـم تـــزل تتمشى فى زواياهـــــا

يا شوق رفقا بأضـــلاع عصفت بهـــا
فالقلب يخفق ذعـــرا فى حناياهـــــا

وهو يصور نفسه هنا مريضا بالكبد ، ويئن حتى لتظن أن أنينه يتمشى فى أنفاسه وهو يتعذب بحبه وحرقة لوعاته ، فالحب يصهره ويذيب أضلاعه بل يكاد يحطمها حطما ويحطم ما وراءها من قلبه وفؤاده ومن بديع غزلياته التى غنتها أم كلثوم فى مطلع حياتها الفنية هذه الأبيات التى نشرت سنة ١٩١١ :

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا حمل الصبابة فأخفق وحدك الآنا
ماكان ضرك اذ علقت شمس ضحى لو اذكرت ضحايا العشق أحيانا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الاشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل نارا وفي الهجر نيرانا

وهو يخاطب فؤاده فى هذه القطعة ، ويطلب منه أن يكف عن الأمل فى فاتنته مع غير قليل من الحسرة وبل مع شـــدة الحسرة وشدة اليأس منها ، فقد سلا فؤادها ولا يزال فؤاده يخفق بحبهـا وهو يقول له انك من ضحايا العشق الكثيرين ٠

وصبرى يستمد فى هــذه القطعة وسابقتها من غزل العذريين الذى يمتلىء بالحزن ويفيض بالألم لما يستشعره العاشق من اليأس فى لقاء محبوبته ووصالها واقبالها عليه ٠

والحق أن صبرى يبلغ فى غزله الوجدانى قمة قلما يدانيـــه فيها شاعر مصرى من جيله لا لأن شعراءنا لا يئنون ولا يبكون فى غزلهم ولا لأنهم لا يرتفعون بمحبوباتهم فى مراقى الحب الروحى ، ولكن لأنه قصر نفسه على ذلك ، وعبر عنه تعبيرا طبيعيا فيه رقة وفيه عذوبة وفيه قرب شديد الى النفس ، وهو قرب لا نجـــده فى المعانى وحدها بل نجده أيضا فى الصيغ والألفاظ ، وأرجـــع الى البيت الأول فى المقطوعة الاخيرة ٠

أقصر فؤادى فما الذكــرى بنافعـــة
ولا بشافعـــة فـــى رد ماكانـــا

فانك تجده يستخدم العبارة الشـائعة فى عاميتنا المصرية ، اذ يقولون عن شىء أو شخص انه « لا ينفع ولا يشفع » ٠

وقوله في دموعه وما تخط من شكواه :

ويلمحها اللاحي فيرثي لصبوتي   ويقرؤها الواشي فيرحم حـالي

وقوله السـابق :

ياراحة القلب ياشغل الفؤاد صلي   متيما أنت في الحالين دنيـاه

فكلمة يرحم حالي و « يا راحة القلب » من الكلمات التي تدور على ألسنة المصريين ولم يكن يقف في هذا التعبير عند معاني الغزل بل ، كان يعممه في موضوعات شعره المختلفة ، وكان يعرف كيف يدخلها في أساليبه وكيف يؤديها أداء حسنا ولم يكن يعمـد الى تخيلات بعيدة ولا صناعة معقدة فنفسه نقية صـافية ، لا تعـرف التعقيد والتكلف بل رقيقة رقة مفرطة وهي رقة يمسح عليها الحزن فيزيدها لطفا وروعة .

ونختم دراستنا في شعره الغزلي بهذه المقطوعات الرائعـة ، التي تفيض رقة وعذوبة .

قال في قطعة بعنوان « موعد لقاء » نشرت في سنة ١٩١٣

خبروني اليـوم اني في غـد   مالىء عيني منهـا ويـدي
كيف يبقى من قضى الليل على   جرف هار الى ذا الموعـد
رب كن عـوني واخرني الى   أن أرى شمس الضحى من عودي
يا أسـاة الحي لـو أجلتم   رأيكم في الى يـوم غـد
رب داء لا يرجـى بـرؤه   قد شفته زورة من مسـعد

مقـر الغـزال

يامقر الغزال قد صح عندي الـ   ـيوم اني اقتحمت منك عرينا
رابني فيك ما أرى من عيون   بات يغري بها السـواد عيونا
وضلوع جاءتك وهي خـوال   ثم عادت ملآى هـوى وشجونا

ما الذى يبتغى غزالك منى بعد كونى عبدا له أن أكونا
كلما قلت قد أبل فؤادى ساورته الذكرى فجن جنونا

وقال أيضا :

يا من أقام فؤادى اذ تملكه
ما بين نارين من شوق ومن شجن
تفديك أعين قوم حولك أزدحمت
عطشى الى نهلة من وجهك الحسن
وتستعيذ اذ ألفتك مبتسما
عن لؤلؤ بالنهى حرزا من الفتن
جردت كل مليح من ملاحته
لم تتق الله فى ظبى ولا غصن
فاستبق للبدر بين الشهب رتبته
تملكه فى أوجه عبدا بلا ثمن

وقال أيضا :

ثغر الحبيب

نشر هذان البيتان سنة ١٩١٣

يا موردا كنت أغنى ما أكون به عن كل صاف اذا مابات يروينى
عندى لمائك والأقداح طوح يدى ملآى من الماء شوق كاد يردينى

وقال أيضا :

الى نزيل الفؤاد

لما تبوا من فؤادى منزلا وغدا يسلط مقلتيه عليه
ناديته مسترحما من زفرة أفضت بأسرار الضمير اليه
رفقا بمنزلك الذى تحتله يأس يخرب بيته بيديه

شعر الحبيبة

ارسلي الشعر خلف ظهرك ليلا　　واعقديه من فوق رأسك تاجا
انت في الحالتين بدر نراه　　صادعا آية الدجى وهاجا

حشاشة الصب

ان الذى ابقيت فى مهجتى　　يا متلف الصب ولم يشعر
حشاشة لو انها قطرة　　تجول فى عينيك لم تنظر

الطيف

ياحاجبا عن عيوني طيف صورته　　ابعثه مستترا فى ليلة الأرق
ولاتخف مرضيا صبح الجبين فقد　　عرفت سواد الشعر والحدق

الى حسناء

وجدت هذه الأبيات مكتوبة بخط يده على غلاف مطبوع فى سنة ١٩٠٧

يا فتاة الحى قد اذكرتنا　　نضرة الروض وميل الغصن
اى لحن ترجمت تلك الخطأ　　عنه للعين هنا والأذن
عارضى البدر اذا لم يعترف　　لك بالحسن بوجه حسن

وقال هذه الابيات عام ١٩١٣

تمسى تذكرنا الشباب وعهده　　حسناء مرهفة القوام فنذكر
هيفاء اسكرها الجمال وبعض ما　　أو فى على قدر الكفاية يسكر
تثب القلوب الى الرءوس اذا بدت　　وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيت تكفر بالنحور قلائد　　فاذا دنت من نحرها تستغفر
وتزيد فى فمها اللآلىء قيمة　　حتى يسود كبيرهن الأصغر

ولعل روعة شعره الغزلى تتجلى فى هذه القصيدة التى نشرها سنة ١٩٠٩ وعنوانها :

(ساعة الـــوداع)

أتزودت من ضياء البدور — لليـــال كثيفـــة الديجـــور
أملأت العينين من قبل أن يـد — همك البين من بهاء ونـــور
صفرت راحتاك الا من الذكـ — رى ، وذكرى ما مر زاد الفقير
أترى أنت خاذلى ساعة التـو — ديع يا قلب فى غد أم نصيرى
وبك ، قل لى متى أراك بجنبى — راضيا عن مكانك المهجـــور
لست بعض الحداة بل أنت بعضى — قف قليلا فلست بالمأجـــور
ساعة البين قطعة أنت قـــدت — للمحبين من عذاب السـعير
لا تحينى ، روحى الفداء لما حيك — غدا من صحيفة المقــــدور

وكتب تحت بيتين قالتهما الأديبة الكبيرة المرحومة « مى » وهما :

فديتـــك يـــا هاجـــرى — فهـــل ترتضى بالفـــدا
سهـرت عليـك الدجـى — ونحت ولـكن ســدى

فكتب هـــو :

أهاجـــرتى اطفـــئى — لواعـــج لا تنتهـــى
مضت فى هواك السنون — ومـــا نلت مـــا أشتهى
اذا قيـــل مـــات الأديب — بفاتنـــة أنت هـــى

فلما قرأت أبياته كتبت تحتهـــا :

زمانـــك قبلى انتهـــى — ولا يرجـــع المنتهـــى
فحســـبى أن ازدهـــى — وحســـبك أن تشتهـــى

ثم يشكو نواها ويدعوها الى التواصل :

أبثك ما بى فان تـرحمى — رحمت أخالوعة مات حبـــا
وأشكو النوى ما أمر النـــوى — على هائم ان دعـا الشـوق لبى

واخشى عليك هبوب النسيم   وان هومن جانب الروض هبا
واستغفر الله من برهة   من العمر لم تلقنى فيك صبا
تعالى نجدد زمان الهناء   وننهب لياليه الغر نهبا
تعالى أذق بك طعم السلام   وحسبى وحسبك ما كان حربا

ثم أرسل لها بيتين يهنئها فيها بعام جديد :

ياغرة العالم جوزى الأفق صاعدة   الى السماء بآمال المحبينا
انى سألت لك الأيام صافية   يا « مى » قولى معى آمينا

وسوف نعرض فى موضع آخر ، الدور الأدبى الذى قام به صالون « مى » وأثره فى المجتمع المصرى آنذاك ، وكان اسماعيل صبرى من المعجبين بشخصية صاحبته ومن المواظبين على ارتيادة •

البـــاب الخامس

الشعر الاجتماعى

- الوحدة القومية
- شعر المراثى
- الصالون الأدبى بقصره
- المدائح والتهانى
- تقدير اسماعيل صبرى للمرأة

الوحدة القوميـــة :

يتكلم الاستاذ عمر الدسوقي فى كتابه « فى الأدب الحديث » عن شعر اسماعيل صبرى الاجتماعى فيقول « أما اسماعيل صبرى فليس له فى هذا الموضوع قليل أو كثير ، وكأن مصر ليس بهـا فقراء معدمون ، أحلاس مسغبة وأنى لصبرى أن يصف الفـاقة والبؤس وأهلهما ، وقد عاش عيشة مترفة منعمة » .

وقال عنه الدكتور طه حسين فى المقدمة التى صدر بهـا الديوان « وكيف السبيل لطالب من طلاب الازهر ، أو من طـلاب الجامعـة القديمـة ، شديد الحياء ، أن يتصل بهـذا الرجـل الارستوقراطى ، الذى كان يشغل منصبا رفيعا من مناصب الدولة ، ويلقب بلقب رفيع من ألقابها ، ولا يجلس حيث كان يجلس الشعراء فى هذه القهوة أو تلك ولا يختلف الى حيث يختلف الشعراء فى هذا النادى أو ذاك » .

رغم هذا فان اسماعيل صبرى قد لمس بشعره مشكلة اجتماعية خطيرة ، تعد من أهم ما تعرض له الوطن فى أوائل القرن العشرين من مشاكل ، فقد أصاب الوحدة القومية بين عنصرى الأمة الأقباط والمسلمين صدع كاد أن يؤدى الى نتائج لا تحمد عقباها ، فقـد

اعتدى فى عهده على المرحوم بطرس غالى باشا رئيس مجلس الوزراء فى ١٩١٠/٢/٢١ ، وكان المعتدى شابا مسلما من شباب الحزب الوطنى ولحداثة عهد البلاد بالقتل السياسى ، اختلف الناس فى بواعث الجانى لارتكاب جنايته وقد أثار ذلك موجة من السخط والبغض بين كثير من عظماء الأقباط ، وأدى ذلك الى انصراف كبيرين من الأقباط عن نشاطهم فى الحزب الوطنى ارضاء للفريق الساخط وهما المرحومان مرقس حنا وويصا واصف وكانا عضوين فى اللجنة الادارية للحزب .

وكان اسماعيل صبرى صديقا حميما لبطرس غالى ، فرثاه بمرثية رائعة دلت على سماحة وروح وطنية عالية ، من شاعر مسلم فذ ، ومشاركة عاطفية للاقباط فى مصابهم على لسان أكبر شاعر له مكانة أدبية فى عصره : جاء فيها :

١ ـ تبكي المروءات على بطرس ... ذاك الهمام الماجد الأروع
٢ ـ فتشت ـ لما لم أجد مقلتى ... كفوًا ـ عن الفضل ليبكى معى
٣ ـ فقيل لى : قد سار فى أثره ... يوم دفناه ولم يرجع
٤ ـ يا مجريا دمع الملا أبحرا ... أدركهم يا مرقىء الأدمع
٥ ـ يا نازلا بين وفود البلى ... آنستهم يا موحش الأربع
٦ ـ عينى فيك اليوم قبطية ... تروى الاسى عن مسلم موجع
٧ ـ يهيم من وجد ومن لوعة ... فى الجانب الأيسر من أضلعى
٨ ـ يا من سقانى الجم من وده ... هذا ودادى كله فاكرع
٩ ـ يا حامل القلب الكبير الذى ... لم ينقض الميثاق قم واسمع

ولقد ظن الاقباط أو كثيرون من الطبقة المثقفة فيهم ، أن قتل المرحوم بطرس غالى باعتباره أكبر مصرى مسيحى وصل الى مركز رئاسة الوزارة ، ما هو الا بداية لانتقام رهيب من الاغلبية المسلمة للأقلية المسيحية ، فحاولوا النظر فى أمورهم ودراسة موقفهم ،

فعقدوا بمدينة أسيوط في ١٩١١/٣/٦ المؤتمر القبطي ، وطلبوا فيه من الحكومة عدة مطالب ، ظنا منهم أن المسلمين قد استأثروا بكل شيء في البلاد دونهم . فاجتمع المسلمون للرد عليهم في مؤتمر سموه المؤتمر المصرى أو الاسلامى وتوالت جلساته خمسة أيام من شهرى أبريل ومايو سنة ١٩١١ ، وعقد المؤتمر في مصر الجديدة .

وكان لهذا المؤتمر غرضان : أولهما النظر في حال المسلمين الاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، والثانى الرد على مطالب الاقباط التى طالبوا بها في مؤتمرهم وشبت نار الفتنة بين العنصرين ، وسعى أهل الشر فيها سعيهم وقد ذكر الاستاذ الكبير والمؤرخ الوطنى الراحل عبد الرحمن الرافعى في كتابه « محمد فريد » ص ٢٧١ بالنسبة لهذا الحادث ما يأتى :

« في خلال غيبة الزعيم محمد فريد في سجنه ، حدثت فتنة الخلاف بين المسلمين والأقباط وانعقد المؤتمر القبطي بأسيوط في شهر مارس سنة ١٩١١ ثم المؤتمر المصرى بمصر الجديدة في أبريل ومايو سنة ١٩١١ ردا عليه : وكان كلا المؤتمرين مظهرا يؤسف له من مظاهر الخلاف بين المسلمين والأقباط ، وكلاهما قد اجتمع والزعيم في سجنه ، ولو كان حرا طليقا لما رضى لهذه المظاهر ولنصح باجتنابها ، ولأمكنه أن يعيد التفاهم بين الفريقين لأنه هو ومصطفى كامل أول من وضعوا أساس الوحدة القومية ، وجعلوا الوطنية عقيدة لجميع المصريين على السواء ، ومثل هذه المظاهر لم يفد منها سوى الاحتلال ولم تصدر عن نظر سليم في الأمور ، ولقد قيل وقت انعقاد المؤتمرين ، ان يد السير الدون غورست المعتمد البريطانى لم تكن بعيدة عن الدعوة اليهما ، ومما يؤيد ذلك أن الوزارة كانت مؤيدة عقد المؤتمر المصرى ردا على المؤتمر

القبطى وهى التى فكرت فى اسناد رئاسته الى مصطفى رياض رئيس الوزراء الأسبق وقد أوعزت اليه بقبول الرئاسة على شيخوخته ولو لم يكن الاحتلال مغتبطا بهذه الحركة أو راضيا عنها لما فكرت الوزارة فى تأييدها » ومما يؤيد ذلك أيضا أن جميع موضوعات المؤتمر المصرى والمؤتمر القبطى، قد خلت من أى معارضة للاحتلال أو انتقاد لسياسته ، أو مطالبة له فى تحقيق وعوده ، فى حين أن طابع المؤتمرات الوطنية فى ذلك العهد انما هو توجيه الأمة لمقاومة الاحتلال والجهاد فى سبيل الاستقلال ومما يستوقف النظر حقا أن خطباء المؤتمرين لم يقولوا كلمة ضد الاحتلال ، ولم يكن هذا منهج الزعيم محمد فريد فى خطبه ومقالاته ، ومما يشرف تاريخ فريد حقا أنه لم يشترك فى هذه المظاهرة التى تنافى منهجه ومنهج مصطفى فى تدعيم الوحدة الوطنية » ٠

ومما قاله الزعيم الوطنى الخالد (محمد فريد) (١) فى مذكراته فى أثناء الحكم عليه بالسجن ستة شهور من ١/٣ الى ١٩١١/٧/١٧ « فى أثناء حبسى شرع فى المؤتمر المصرى الذى جمعه محمد سعيد باشا ، بناء على رغبة السير الدون غورست ، لمحاربة الأقباط وبالتالى للتفريق بين الأقباط والمسلمين » ٠

كتاب واصف باشا غالى للشاعر :

ولما كان واصف باشا بطرس غالى من أصدقاء اسماعيل فقد كتب اليه الكتاب التالى يرغب اليه أن يتوسط فى الصلح بين المسيحيين والمسلمين لما لشعره من الأثر البليغ فى قلوب مواطنيه ٠
سيادة المفضال اسماعيل صبرى باشا (٢)

---

(١) محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ـ ص ٢٧٢ لعبد الرحمن الرافعى ٠
(٢) ديوان اسماعيل صبرى ـ المطبوع سنة ١٩٣٨ ٠

قيل أن الشعراء أنبياء اذ هم ساسة الأفكار وقادة الشعوب ، فعسى أن يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف ، والآن يجب على كل عضو من أعضاء العائلة المصرية ، أن يعمل لما فيه التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعت صوتي الضعيف مناديا بالاتحاد والوئام ، على أني لست ذلك الرجل الذى في استطاعته أن يحرك عواطف الأمة فهل لك يا سيدى أن تبذر بذور السكينة والوفاق لتثبت شجرة المجد والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد للبلاد .

ولعمرى أن صوتك هو المسموع المجاب ، فنظمك سحر يجمع القلوب المتنافرة وها نحن على مقربة من تاريخ ذكرى صديقك الحميم (يعنى ذكرى المرحوم بطرس غالى فى ٢١ فبراير سنة ١٩١١) فهل تتفضل بنظم قصيدة تضمنها ما كنت ذكرته لى فى كتابك الكريم :

« مثل الأقباط والمسلمين فى مصر كمثل العينين فى الوجه يؤلم اليمنى ما يؤلم اليسرى ، وتكللها بالدعوة الى أن يكون جدث الفقيد العظيم كعبة يقصدها الوطنيون الصادقون ، ووصلة الأرتباط المتين بين الأقباط والمسلمين ، وأنى أشكرك من أجل ذلك باسم والدى بل بصفتى ابنا حنونا على وطنه وأمته .

وتفضل بقبول احترام اخيك الحافظ لك ودأبيه ،،،

١٩١١/٢/٨ **واصف بطرس غالى**

* * *

قصيدته فى مواساة الأقباط في مصابهم :

وكان من أثر ذلك أن وجه اسماعيل صبرى قصيدته التالية الى الأقباط مواسيا اياهم فى محنتهم ، داعيا الى التخفيف من حدة الحزن والأسى على فقد زعيمهم بطرس غالى ، مستنكرا جريمة مقتله

أشد الاستنكار ، ومنددا بالقاتل على تهوره وخيانته البشعة مناشدا الجميع التمسك بعروة المحبة والاخاء والوحدة .

معشر القبط يا بنى مصر في السـ راء قد كنتم وفى الضـــــراء
قـد فقـــدنا منا ومنكم كبيرا كان بالأمس زينـــة الكبـــراء
فأقمنـــا عليـه فى كل نـــاد مأتما داويا بصوت البكاء
ومزجنـــا دموعنـا بدمـــوع بللتهـا عيونكم في ســـخاء
ورأينا فتك الرزيئة بالعقـــــ ل وفعل المصاب بالعقــــلاء
بارك الله فيكم أنتم النـــــا س وفاء ان عد أهل الوفـــاء
ادمع جاوزت مدى كل حـــزن وتخطت حـــدود كل عـــزاء
وعـديد وراء كل خيـــــال وعـــويل فى أثر كل هنـــاء
لو بلغتم على النجوم صعـــودا لا تهمتم كـواكب الجـــوزاء
عذركم ان (بطرسا) كان فى مصـ ر كبيرا فى الفضل جم العـلاء
خففوا من صياحكم ليس في مصـ ر لابنـاء مصر من أعـــداء
دين عيسى فيكم ودين أخيـــه (أحمد) يأمراننا بالاخـــاء
ويحكم ما كذا تكون النصـارى راقبوا الله بارىء العـــذراء
مصر أنتم ونحن ، الا اذا قـــا مت بتفريقنا دواعي الشـــقاء
مصر ملك لنـا اذا ما تماسكـ ـنـا والا فمصر للغـــرباء
لا تطيعوا منا ومنكم أناســـا بذروا بيننـــا بذور الجفـــاء

لا تولوا وجوهكم شـطر من عـــكر ما فى قلوبنـــا من صفـــاء

ان دين المسيح يأمر بالعــــــ ف وينهى عن خطة الجهـــلاء
لا يكن بعضنا لبعض عـــدوا لعن الله مستبيحى العـــداء
أيها القاتل اشرب الموت كأسـا فى نضير الصبا وغض الفتـاء
لو ملكنا شيئا اشد من القتـل جـــزاء لنلتـه من جـــزاء

ولعل هذه القصيدة بالنسبة للظروف التى قيلت فيها تعد من القصائد التاريخية التى يجب أن تخلد على مر الزمان ، لأنهـــا عالجت

مشكلة من أخطر المشاكل التي تعرض لها هذا الوطن في وقت كان الاحتـــلال البريطاني جاثما على البلاد ؛ مشجعا للعوامل المناهضة لوحدة الأمة ، ومستغلا لكل خلاف ينشب بين الأقباط والمسلمين ٠

بل هي أيضا من القصائد البناءة ، لأنها عالجت جرحا غائرا في بنيان المجتمع وأطفأت نـــارا خبيثة كادت أن تنتشر ، فــلا تبقي ولا تذر ، وصدورها من امام الشعراء المسلمين في ذلك العهد ، كان له أطيب الأثر وأحسنه في تلطيف الجو وتأكيد روح التعاون والمودة والاخاء بين المسيحيين والمسلمين من أبناء هذا الوطن العزيز ٠

شعر المراثى

مقـــدمة :

ان أول ما يطالعك من مراثي « صبرى » انهـــا رثاء بالمعنى الانسانى العميق . حزن على المرثى يختلف قوة وضعفا ، حسب صلة الشاعر به فى حياته ، والانطباعات التى تركها المرثى فى نفسه ، من واقع آثاره فى الوطنية أو الاصلاح أيا كانت ضروبة وتركيز على جوانب حياته وخلاله وفضائله وآثاره ، وبكاء من الشاعر لنفســه ولذكرياته ولأحبابه الراحلين ، وشجا يتجدد كلما اختطف المـــوت خليلا أو زعيما أو وطنيا صالحا ، وأقوى ما يكون هذا الطابع حين يندب الشاعر عظيما دينيا أو ثقافيا أو سياسيا اتصل هو به ، ولمس خلاله عن قرب ، وتوثقت بينهما العلاقات وتألفت المبادىء والأفكار :

فاذا رثى (الشيخ محمد عبده) ـ مثلا ـ عرض عليك الامــــام فى روائع آثاره ومواقفه وصور لك فجيعة العلم والدين والبر والتقوى فيه ، ونستطيع أن نقول مثل هـــذا فى ما قال من رثائه غيره من الراحلين فهو فى كل موقف من هذه المواقف يذيب قطعة من نفسه ، ويندب حظه فى أحبابه وحظ الأمة فى رجالها ، وحظ الشرق فى نابغيه .

ومما يتصل بهذه الناحية أيضا فى مراثيه ، ارساله نفسه على سجيتها فى الحزن وتصويره هول الفاجعة واستثارته الجوانب المؤثرة من الموقف ، فاذا رثى زعيما عظيما كمصطفى كامل ـ أراك فداحة المصاب ، وكيف ينصب فى النفوس انصبابا ثم هو أيضا يصطنع الحكمة والتسليم بالمقدور والاذعان لحكمة الله فى كثير من المراثى .

وقد أوردنا أغلب مراثيه ، ومما لم يرد منها مراثيه للخديوى محمد توفيق عام ١٨٩٢ ، أمين فكرى باشا عام ١٨٩٩ ، على أبو الفتوح باشا عام ١٩١٤ وتعازيه الى يوسف سابا باشا عام ١٩١٢ ، الشيخ على يوسف عام ١٨٩٧ السلطان حسين كامل عام ١٩١٦ ، وقد ذكرنا فى مواضع سابقة رثاءه لمصطفى كامل وبطرس غالى .

ومن مراثيه المشهورة رثاؤه للامام المصلح الكبير الشيخ محمد عبده ولقد كانت للامام مبادىء لا ترضى الكثيرين ، رغم أنه يعد من أقطاب الاصلاح ، الدينى والاجتماعى والأدبى والسياسى فى البلاد حتى انبلاج فجر القرن العشرين .

اما اصلاحه الاجتماعى والدينى فيتمثل فى تدريسه فى الازهر وفى دار العلوم ونحوهما ، والكتابة فى الصحف ، حيث أخذت مقالاته طابعا تعليميا بحتا أصبح به معلم الأمة ، بما يصدره من الفتاوى الشرعية ردا على أسئلة الطالبين ، وبما يعبر عن عقلية حرة تحب الاجتهاد فى الرأى وتكره الجمود الفكرى ، وفى الازهر كان له الأثر البالغ فى التوفيق بين الدين والعلم ، وقد استخدم الصحافة كمنبر عام يخاطب به الشعب فى أمور الدين وأمور المجتمع ، داعيا الى اصلاح الحكومة واصلاح أحوال الأمة . وقد سعى فى سبيل اصلاح المحاكم الشرعية والأوقاف الأهلية والشرعية ، ودعا الى

اصلاح الازهر وادخال العلوم الحديثة فى برامجه الى غير ذلك من دواعى الاصلاح والترقية ، وفى ميدان الاصـلاح الأدبى واللغوى سلك عدة طرق منها طريقة احياء الكتب القديمة وشرحها شرحا وافيا ولما عين محررا للوقائع المصرية سعى فى اصلاح لغة الدواوين الحكومية وازالة ما بها من ركاكة ، وفى ميدان الاصلاح السياسى طالب بايجاد دستور محقق لسيادة الأمة ومقيد لسلطة الاحتلال والخديوى فى وقت واحد معا ، وكان له نشاطه الجم فى مجلس شورى القوانين منذ دخله سنة ١٨٩٩ ، وأثره الكبير فى كل ما اتصل به من لجانه المختلفة وكان الامام صاحب مدرسة كبرى من مدارس السياسة ما فى ذلك شك ، وكانت هذه المدرسة تؤمن بطائفة من المبادىء منها تزويد الأمة بأدوات الاستقلال وانماء الشخصية المصرية بكل الطرق الممكنة ، وتنقيتها من رواسب الماضى، والتدرج بالأمة فى الاصلاح ثم الاخذ بنظرية التسامح الدينى بين الاقباط والمسلمين .

هذه هى آثار رجل كان شديد الاخلاص فى خدمة وطنه وخدمة دينه ، ورغم شدة خصومة الخديوى عباس حلمى له واستنكاره لمن اشترك فى تشييع جنازته فقد رثاه صبرى بهذه المرثية الخالدة التى تعد مستندا لما أوردناه عنه من ماثر .

رثاؤه للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥

تدفق دموعا أو دما أو قوافيا
مآتم أولى الناس بالحزن ها هيا

أيجمل أن تنعى الفضائل للورى
ولم تك فى الباكين ويحك باكيا

أغرك من بعض الليالى سكونها
فبت قريرا ناعم البال هانيا

لقد سكنت لكن لترهف للوغـــى
دقــائق من ساعاتهــا وثوانيـــا

الا أن بين الكـــأس والفم فرجـــة
لركض عظيمـات تشيب النواصيـــا

فنبه رقيبا من حذارك كلمــــــا
رأيت بأطـراف الفــؤاد أمانيـــا

(محمد) دور العلم كانت أو أهــلا
بفضـــلك ما بين الأنام زواهيـــا

فصبحها الا من الحزن والاســـــى
عليك القضاء المستبد - خواليـــا

فما للردى - لا بارك الله فى الردى
أحال بشير الأمس فى الكون ناعيـــا

برغم الحجا والمجـد أن مسك البلـى
بسؤ فأضحى عودك الصلب ذاويـــا

وان أقفـل البـــاب الذى كنـــت عنـــده
تقابل ملهوفا وترصـــد شاكيـــا

(محمد) من للدين يحرس حوضـه
ويدرأ بين الناس عنه العواديـا

تعـرض قـــوم للكتاب واتخـــوا
صراحتـــه شرحا عن القصد نائيـــا

فارسلت فيـــه نظـرة نفــذت الى
صميم مـراد اللـــه اذ قمت هاديـا

ووفقت بين الشرع والعقل بعدمــا
قـــد اعتقد الالفـــان الاتلاقيـــا

وقفت وأقـــلام الغواية شــــــرع
وأقلام أهل الحق ترنو سواهيـا

وأفحمت بالبرهـــــان كل مناضـل
لو أنك لم تغضب لزاد تماديـــــا

فغـــاؤ الى الحسنى ولو لم تحجهـم
لعادت زئيرا صيحة القـــوم داويـــا

هنيئـــا لهم فليحملـوا حمـلاتهم
فقد أصبح الميـــدان بعدك خاليـــــا

(محمد) وفيت المروءات حقهـــــا
وقمت اليها في حياتك داعيا

وعلمت أهل العرف في العرف أوجها
لها غرر مشـــهورة - ومعانيـــــا

وعالجت أمــراض القلوب بحكمـــــة
ترى ظاهرا من خلفها البرء صافيـــا

وأودعت في الطلاب أجزاء مهجـــة
ترى العلم ان لم يعل المرء هـــاذيا

مناقب ان عدت تضوع بيننـــــــا
كأنا اتخذنا ساحة الروض ناديـــا

ألا نم مع الأبرار في الخلد ناعمـــا
فكم بت فينا ساهر العزم عانيـــا

جزيت عن الاســـلام ما أنت أهلـه
فقد كنت سيفا في يد الحق ماضيـــا

« رثاء عمــــر »

نجل الشيخ على يوسف صاحب المؤيد سنة ١٩٠٨

يا ما لىء العين نورا والفــؤاد هوى
والبيت أنسا تمهل أيهـــا القمـــر

لا تخل أفقك يخلفك الظلام بـــه
والزم مكانك لا يحلل بـه الكـدر

فى الحى قلبـــان باتا يا نعيمهمـــا
وفيهما ـ اذ قضيت ـ النار تستعر

وأعين أربع تبكى عليـــك أســى
ومن بكاء الثكالى السـيل والمطـر

قد كنت ريحانة فى البيت واحـدة
يروح فيه ويغدو نفحها العطـــر

ما كان عيشك فى الأحياء مختصـرا
الا كمـــا عاش فيه كمـــامه الزهر

فارحل تشيعك الارواح جازعـــة
فى ذمة القبر بعد الله يا (عمـــر)

★ ★ ★

رثاء السلطان حسين كامل فى اكتوبر سنة ١٩١٧

لهف سارى الدجى لقد أفل البـد
وطـــال السرى وغـــاب الهـادى

لهف راجى القرى (١) وحاتم طـــى
قد خبت (٢) نـــاره بهـــذا الوادى

---

(١) القرى : ما يقدم للضيف .

(٢) خبت : خمدت .

لهف شاكي الصدى اخو النيل قدبا
ت بعيـــد المزار عن كل صـــادى
من يغيث المظلوم ان بات يشـــكو
و (حسين) عدت عليه العـــوادى
حبـــذا طيف نهضة قد أرانـــا
ه عيـــانا لم يتـــفق فى رقـــاد
فكأنا من (عابدين) خروجـــا
نتهـــادى منهـــا على ميعـــاد
لم ير المـــوت رأيـــه وتقضـــى
حلم قـــد سرى بأقصى البـــلاد

★ ★ ★

تعزية كتب بها الى الشيخ على يوســف
صاحب المؤيد عند وفاة ابنته « فتحية » سنة ١٨٩٧ م

هى الدنيا وان جادت بخيلـــــة
يد الحرمان فى يدهـــا المنيلـــة
ســـواء من يعيش الألف فيهـــا
ومن أيامـــه فيهـــا قليلـــة
لئن قصرت بمن تهـــوى الليـــالى
فـــان فتـــوح والدهـــا طويلـــة
أأســـتاذ المؤيـــد هـــل أعـــزى
فجهدى اليوم تعـــزية جميلة
فمـــا فى لوعـــة الآباء شـــك
ولا فى ذاهب الأبناء حيلـــة

وأنت المرء أن أخطأك نسل
فنسلك بيننا الخدم الجليلة
تمناك النجوم أبا ، وتابى
شريكا فى أبوتك الفضيلة

★ ★ ★

رثاء المرحوم اسماعيل ماهر بك

قاضي محكمة الاسكندرية المختلطة في سنة ١٩١٠ وكان صديقا لصبرى في المدرسة ورفيق صباه

أناعى ماهر لم تدر ماذا ... أثرت من الشجون الكامنات
نعيت الى أياما تقضت ... باسماعيل غرا صافيات
الا من للضعيف اذا تقاضى ... ولم ير شخصه بين القضاة
ومن للعدل ان رفعت بناة ... دعائمه ولم يك فى البناة
أماهر ان وعد الله حق ... وما جزعى عليك من التقاة
فما لى - والأناة ملاك نفسى ... هلعت ولم تجملنى أناتى
وما لى ان أمرت ببعض صبر ... رأيت الصبر احدى المعجزات
أماهر كنت فيما مر أنسى ... فمن لى فى الليالى الباقيات
وكنت اذا شكوت تبيت وجدا ... تردد ما يريبك من شكاتى
وتسأل سارى النسمات عنى ... جنوا والبروق الوامضات
ومن يفقد شبيهك يبك دنيا ... تولت بالمودة والمقات (١)
كذبتك لو صدقتك بعض ودى ... لهد جوانحى صوت النعاة
ولاستقصت حيال النعش عينى ... وراءك راحلا همم البكاة
برغمى أن تقلص منك ظل ... وقانى حقبة لفح الحياة
وان نضبت خلال كنت منها ... اعب لديك من عذب فرات

---

(١) المقات : جمع مقة بكسر الميم وهى المحبة .

وأن صـــفرت يمينى من وداد | غنيت به ليـــالى خاليـــات
أخى مــا حيلتى الاســلام | يزورك فى المساء وفى الغداة
والا الدمع أنثره عقيقـــــا | على ذكرى حلاك الغائبـــات
قضيت فكنت أسرعنا مســيرا | الى غرف الجنان العاليـــات

وهذه القصيدة تعد من أبرع مراثيه وفيها يفيض حزنا وعاطفة ورقة ، بل تذوب نفسه فيها ذوبانا وقد أودع فى أبياتها قطعــا من أفلاذ كبده ، على صديق العمر ورفيق الصبا الذى شاركه جميـــع مراحل العمر منذ كان طالبا فى معاهد الدرس والتعليم الى أن أصبح من رجال القضاء ·

والقصيدة بصفة عامة سجل يروى فيه الشاعر الملتاع ذكريات صداقته ويروى خلالها ما أثر عن صديقه ، من وفاء وصداقة خالصة ومحبة قوية ومودة صافية ، ويبكى فجيعته فى صديقـــه ، وتشعر بدموعه الحارة تجرى فى جميع سطورها ·

★ ★ ★

رثاء اسماعيل نجيب (١) نجل ابراهيم نجيب باشا وكيل الداخلية عام ١٩٠٧

الا ياتجار العصر هل فيكم امرؤ | يبيع على صرعى الهموم عـــزاء
اذا دلنى منكم على مثله فتـــى | خلعت عليه ما يشـــاء جـــزاء
ففى الحى قوم عاكفون على لظى | تذيبهم البلوى صباح مســـاء
يخالهم الرائى سكارى من الاسى | فيبكى عليهم رحمة ووفـــاء
لو أن قلوب الناس طوع ارادتى | أحلت الاسى فى بعضهن هنـاء

(١) المرحوم اسماعيل نجيب مات فى ريعان شبابـــه بعد أن نال شهادة الليسانس وعين مأمورا للضبط بالجيزة ـ وكان والده صديقا حميما للشاعر ·

ولو طاوعتنى كل عين قريحـــة		لما ذب بعض الثاكلين بكـــاء
وعالجت ابراهيم مما أصـــابه		وداهمه حتى ينـال شـــفاء
مصابك اسماعيل زعزع شامخا		وضعضع طوداراســـيا وأساء
وأودى بآمـــال كبـار تصرمت		برغم ذويك - البائسين هباء
مصابك اسماعيل أودى بأسره		تكلفت الصبر الجميل حيـــاء
وقلص آمـــالا كبـارا كأنهـا		مدى الدهر لم تعقد عليك لواء
على قبرك المطور منى تحيـــة		فقد ضم غصنانا ضرا وفتـــاء

★ ★ ★

رثاء سليم بك تقـــلا

مؤسس صحيفة الأهـــرام عام ١٨٩٣م

اذا كان ورد الموت ضربة لا زب		فطول سرور المرء موعد كـاذب
فلا تغترر بالعيش واحذر فانما		صفاء الليالى هدنة من محـارب
يبيت الفتى خلو الفؤاد كأنـه		رأى بينه سدا وبين النوائب

★ ★ ★

برغمى أن يدعى ترابا وأعظمـا		فتى كان يدعى قبل أكتب كاتب
فتى كانت الاقلام تشهد أنـــه		يجل مقام الكتب فوق الكتائب
هوى كوكبا ما البدر ليلة تمه		بأفتك من لآلائـه بالغيـــاهب
فتى طبعـــه قد كان كالماء رقة		فلو صب فى كأس لساغ لشارب
فيا راحلا قد غاب عنا ومن تكن		كذكراك ذكراه فليس بغائب
سلبت النهى حبا بباهر حكمة		وعـــاطر أخلاق ورقة جـانب

★ ★ ★

رثاء (١) عبد الله فكرى باشا ١٨٨٩ ·

ان الليالى من أخلاقها الكـــدر
وان بدا لك منهـا منظر نضر
فكن على حذر مما تغر بــــه
ان كان ينفع من غراتهـا الحذر
قد أسمعتك الليالى من حوادثها
ما فيه رشدك لكن لست تعتبــر
ان كنت ذا أذن ليست بواعية
قل لى بعيشك ماذا تنفع العبر
للدهر لو كنت تدرى هول منطقه
وعظ تردده الآصال والبكـــر
يا من يغر بدنياه وزخرفهــــا
تا لله يوشك أن يودى بك الغرر
ويا مدلا بحسن راق منظـــره
للقبر ويحــك هذا الدل والخفر
تهوى الحياة ولا ترضى تفارقها
كمن يحاول وردا ما له صــدر
كل امرىء صائر حتما الى جدث
وان أطــال مدى آماله العمـــر

* * *

أبعد أن مات عبد الله ـ مرتهنا
تحت الثرى ـ يرتجى صفو وينتظر
ياويح من أودعوه القبر هل علموا
ان المكارم كانت بعض ما قبروا
قد غيبوا ماجدا كانت مناقبــه
بها الزمان اذا ماذل يعتـــذر
وعطلوا من ربوع العلم أنديــة
كانت بعلياه يوم الفخر تفتخر
مضى وخلف فينا من فضائلــه
بدائعا يجتليها السمع والبصر

---

(١) عبد الله فكرى باشا من أعلام الادب فى عصر اسماعيل ، ولد بمكـــة وتعلم اللغة والفقه الحديث وتولى عدة مناصب حكومية . آخرها تولية وزارة التربية والتعليم فى وزارة محمود سامى البارودى باشا . ثم ندبته الحكومة عام ١٨٨٨ لحضور مؤتمر المستشرقين بمدينة استوكهلم ولما عاد من رحلته اهتم بتدوين كتاب عنها ولكن المنية وافته عام ١٨٨٩ قبل اتمام الكتاب ·

الصالونات الأدبية فى القرن الماضى

مقدمـــــة :

لقد كانت القـاهرة فى عهد اسمـــاعيل صبرى تعج بكثير من الشعراء والأدباء والكتاب والصحفيين والمنتسبين الى هؤلاء جميعـة من أصحاب المهن الاخرى ، من مصر وغيرها من الاقطار العربيـــة والاسلامية •

والذى يقرأ تفصيلات هذه الفترة يشعر بأن البلد كان أشبه بخلية نحل بمن فيه من أصحاب الكلمة ، بالقلم واللسان ، يسعون سعيا دائما فى الصباح والمساء ، وفى الليل أوله وآخره ، لا تفتر لهم حركة ، ولا تكل لهم همة ، رغم ظروف الاحتلال الاجنبى وحكم الاستعباد والاستغلال ، تجمعهم حلقات على الكلمة الأدبية ، أو الطرفة المليحة ، أو الفكاهة العذبة ، أو الخبر المهم أو الحـــديث الطلى أو الدرس السياسى الممتع ، ولم يكن لبعضهم مكان معين أو مجلس خاص والبعض الآخر اتخذ مشربا معينا مكانا لعقد حلقاته فى مواعيـــد منتظمة ، والبعض يجتمع فى المساجد وخاصـــة الجامع الازهـــر وحلقات أشـــياخه والبعض فى الدور والمقـــاهى يعقدون مجلسهم وأنديتهم فى انتظام وفى غير انتظام •

ولقد كان شارع محمد على من الشوارع المهمة فى ذلك العهد ، فهو شارع الصحافة القديم وقد وصفه على باشا مبارك فى كتابه بأنه أجمل شوارع القاهرة ، ومن هذا الشارع ، صدرت صحف : المؤيد والجريدة والفلاح والصاعقة والحال والمحروسة وحمارة منيتى وفيه كانت كل الندوات الأدبية المعروفة تقريبا مثـــل ندوة حافظ ابراهيم وندوة امام العبد وكان كبار المفكرين والأدباء يترددون على مقاهى شارع محمد على مثل : لطفى السيد والعقاد والمازنى والمنفلوطى والشيخ على يوسف واسماعيل تيمور (وشيخ العروبة أحمد زكى) وعندما قررت الدولة أن تكـرم الأدباء أقـــامت لهم دار الكتب فى شارع محمد على ، وقد كانت به أهم ورش الحفر بالزنكوغراف وأهم المكتبات الشهيرة ؛ وكانت المقاهى فيه هى مركز النشـــاط الأدبى والسياسى وكثير من المؤتمرات السياسية دبرت فى هذه المنطقة .

ومن أهم المقاهى التى كانت تعقد بها الندوات « قهوة المضحكخانة الكبرى فى شارع الخليفة منذ أيام محمد على وكان يتردد عليهـــا جلة من العلماء والأدباء مثل الشيخ أبى النصر والمنفلوطى وأحمد سمير وأمين فكرى . أما المجلس الحافل الذى كان يعقده حكيم الشرق العظيم والزعيم السياسى والأدبى الكبير (الذى تدين له الأمم الشرقية جمعاء بنهضتها السياسية والفكرية والاجتماعية) جمال الدين الافغانى ، فى فترة اقامته بمصر من مارس سنة ١٨٧١ الى أغسطس سنة ١٨٧٩ (تلك الفترة المباركة الخصبة من ناحيـــة ثمارهــــا ونفحاتها) كان ينعقد فى قهـــوة ـ متاتيا ـ بميدان العتبـــة الخضراء ـ وكان بمثـــابة مدرســـة سياسية على أعلى مســـتوى عرفته البلاد ، ولم يسبق أن أتيحت لها فرصة أمثال هذا المجلس من قبل . وكان من الذين تلقوا دروسه فى هـــذه الحلقة الفريدة خطيب الثورة العرابية الكبير السيد عبد الله النديم أستاذ مصطفى كامل ومحمود سامى البارودى وعبد السلام المويلحى وسعد زغلول

ومحمد عبده وابراهيم اللقانى وعلى مظهـــر وسليم نقـاش وأديب اسحق وغيرهم ٠

الصالونات الأدبيـــة :

كما اشـــتهرت دور طائفة من الوجهاء والعظماء بندوانهـــا وصالوناتها الأدبية ومجالسها العلمية نذكر من أهمها :

مجلس السيد توفيق البكرى فى داره بحى الخرنفش ، ومجلس محمود سامى البارودى فى باب الخلق ثم فى حلـــوان ، ومجلس الشيخ محمد عبده فى داره بعين شمس ومنتدى الاميرة نازلى فاضل بدارها خلف قصر عابدين وكرمة ابن هانى فى دار أحمد شـوقى بالجيزة ، وصالون الاهرام « الأدبى » ونادى القلم وعيادة الدكتور محجوب ثابت ٠

وفى العهد الحالى مازالت الندوات الأدبية بالقاهرة تلتئم فى الجمعيات والاندية الخاصة ، مثل جمعية الأدباء والجمعية الأدبيـــة المصرية وجماعة الامناء وفى كثير من البيوت الكريمة والمشارب التى يضيق بذكرها المقام ٠

الصالون الأدبى فى قصره :

كان قصره فى شـارع قصر العينى مثـــابة للأدباء ، وملاذا للشـــعراء يمتحون من معينـــه الفيـاض ، ويترعون من المؤثرات الجميلة التى يعج بها ، ما يقوم أقلامهم ويشحذ ملكاتهم ، ويغذى قرائحهم ، بل كان صالونا أدبيا على نمط رفيع وهذا يذكرنا بالنوادى الأدبية فى فرنسا فى القرن السابع عشر والتى كانت المرأة الفرنسية زينتها وجلوتها ٠كما كانت داره مجالا رائعا لتلاقى الأدباء وتبادلهم الرأى فى مســـائل الأدب والشعر والنقد وفى

منتداه قرأ كثير من الشعراء شعرهم وأخصبت قرائهم وصقلت مواهبهم وأثرى معينهم من الالهام ·

وفي ذلك يقول أحمد شوقي :

أيام أمرح في غبارك ناشئا نهج المهار على غبار خصاف(١)
أتعلم الغايات كيف ترام في مضمار فضل أو مجال فواف

★ ★ ★

وقال خليل مطران : (٢)

أي صاحبي لقد قضى أستاذنا البر الحبيب
فعرا قلادتنا وكانت زينة الدنيا شحوب

★ ★ ★

وقال (٣) حافظ ابراهيم :

لقد كنت أغشاه في داره وناديه فيها زهي وازدهر
وأعرض شعري على مسمع لطيف يحس بنبو الوتر
على سمع باقعة حاضر يميز القديم من المبتكر
فيصقل لفظي صقل الجمان ويكسوه رقة أهل الحضر

---

(١) خصاف : فرس مشهور عند العرب ·

(٢) ديوان خليل مطران ·

(٣) ديوان حافظ ابراهيم ·

وتدلنا هذه الأبيات التي قالها لأعظم شـعراء ثلاثة في العصر الحديث أن اسماعيل صبري كان أستاذهم وامامهم . وفي ظله الرحيب ومغناه السامر ،وناديه الوارف ، استمدوا ما استمدوه من أدب وصقل وتشجيع وتقويم وهـذا وأيم الحق من مآثر صبري الخالدة ، أن أظل الشعراء والأدباء بوارف ظله ، وكريم حدبه ، ومما لا شك فيه أن هذا الصالون كان مجالا لعرض الانتاج الأدبي والشعري على صنوفه المختلفة ، وكثير من المؤلفات التي نشرت كانت من آثار هذا الصالون ، ولذلك كان عاملا مساعدا لزيادة الثروة الأدبيـة في البلاد ، وقد قدر اسماعيل صـبري للكتاب والأدباء ما أنتجوا وشجعهم على ذلك بمقطوعات شعرية لطيفة منهـا تقريظه لكتاب « قلائد الحكمة » للأسـتاذ أحمد الزين وهو كتاب مشتمل على كثير من الأراجيز في الآداب والأخلاق والاجتماع جمع كثيرا من شتات الحكم المأثورة والآداب المنثورة .

نشرت هذه المقطوعة في سنة ١٩١٨

اذا كنت (يا زين) زين الأدب ... فان كتـابك زين الكتب
(قلائد) حليت صور البيان ... بهن وطوقت جيـد العرب
خلائق تزري بنفح الريـاض ... اذا ضحكت من بكاء السحب
وما المرء الا بخلق كريم ... وليس بما قد حوى من نشب

★ ★ ★

ثم يقرظ « ليالي سطيح » تاليف الشـاعر حافظ ابراهيم بهذه الأبيات التي نشرت في سنة ١٩٠٦

طالب الحكمة خذهـا جملة ... عن «سطيح» من لدن أفصح لافظ
قطع تبهر ألبـاب الورى ... ضربت في مصر أيام حـافظ

ثم يقرظ الجزء الأول من ديوان الشاعر أحمد نسيم

لك في الشعر يا نسيم معان باهرات تحار فيها العقول
كل بيت يطل منه على أفهام أهل النهى محيا جميل

ويقرظ الجزء الثاني منه في سنة ١٩١٠ قائلا :

أي غصن في الروض هز (نسيم) نثرت منه هذه الأزهار
حبذا شعره الجنى وأهلا ببيان تزهى به الأشعار

★ ★ ★

ثم يقرظ ديوان أحمد شوقي المعروف بالشوقيات في قصيدة من خمسة وعشرين بيتا جاء فيها :

ان ما بت تشتكى منه داء هى أدرى ببرئه لو تشاء
غير أني أراك تكتم عنها لوعة من حقوقها الافشاء
أحسبت النوال يهمي على العشق عفوا وتهطل الآلاء
أو أعدت للصامتين العطايا أغرق البكم اذ يفيض العطاء
شغلت بالقريض عنا الغواني وأصاخت لربه العذراء
ورأينا ديوان « أحمد » لا تصرف عنه القلوب والأهواء
مرحبا بالعلاء وفى القوافي حظها منه رفعة وسناء
مرحبا بالقريض وفى المعالى قسطها منه رونق وبهاء
مرحبا بالحياة فى الوصف تسرى فيعاد الموصوف والأشياء
مرحبا بالبيان سحرا وبالشعر تحليه حكمة غراء
مرحبا بالمقال سمحا كريما لم يشبه هجو ولا ايذاء

وطالما هنأ أصدقاءه من مرتادى هذا الصالون ، فى المناسبات الخاصة بهم ومن ذلك تهنئة لشوقى أيضا حينما نال الرتبة الثانية سنة ١٩٠٥ م .

أشـوقى لقد نلت ما تشـتهى بفضل أمير رفيـع الذرا
ومن كان ممدوحه فى السماء تسنم متن السنا منبـرا

وكذلك تهنئة لحافظ ابراهيم بنواله رتبة البكوية

★ ★ ★

أخلق بمثلك أن يفوز برتبــة قد أشرقت بك للعفاة سماؤها
يا خير كفء نالها عن فطنـة وكفاية أعمى الحسود ضياؤها
عش للقريض فأنت بانى مجده بقصائد غر يلوح سناؤها
لم لم تفز بأعـلى رتبـة لسالت أن يهدى اليك لواؤها

المدائح والتهانى

اشتهر ديوان اسماعيل صبرى بالتهنئات التى رفعها للحكام الذين عاصرهم وهم الخديويون اسـماعيل وتوفيق وعباس حلمى ، كتقليد شائع فى عصره عند جميع الشـعراء وتسمع له فى الفترة من عام ١٨٨٧ حتى ١٩٠٨ قصائد كثـيرة فى مدحهم وتهنئتهم فى الأعياد وشتى المناسبات ، كما مدح السلطان حسين كامل فى مناسبة توليته ، وفى مناسبة نجاته من حادث الشروع فى الاعتداء عليه ، وعزاه فى وفاة والدته كذلك مدح أحد أساتذته فى مدرسة الادارة والألسن وهو صالح مجدى بك سنة ١٨٧٢ وقد دل ذلك على فضيلة الوفاء لمن علموه .

وقد بدأ حياته الشعرية بمدح الخديوى اسماعيل (وهو بعد طالب بمدرسـة الادارة وعمره لم يتجاوز السادسة عشرة) ، بمناسبة عيد الأضحى ، بقصيدة جاء فيها :

(١) سفرت فلاح لنا هلال سعود ونما الغرام بقلبى المعمـود
وجلت على العشاق روض محاسن فسقى الحياة شقائق التوريـد
ورنت بأحور طرفها وتبسمت فبدا ضياء اللؤلؤ المنضـود
يا ربة الطرف الكحيل تعطفى وعلى محبـك بالمودة جودى

---

(١) يقصد فى هذا البيت ولى العهد محمد توفيق باشا الذى تولى الحكم بعد خلع اسماعيل .

الى أن قال :

فالقطر عم سـناؤه وبهاؤه بمحمد وبسـعيه المحمود
لازلتما بدرين فى أفق العـلا بهما زها اشراق يوم العيد

والملاحظ على مدائح اسماعيل صبرى الأولى وهو فتى صغير، أنه لم يجدد فى شعره ، انما سار على نهج العرب الأقدمين ، فى فى معانيهم وألفاظهم ، ولم يستطع التخلص من ربقة الأدب القديم ، كما لم تواته ذخيرته من محفوظ الروائع الخالدة على اجادة التقليد ؛ واكتفى بترديد المعانى المطروقة من قيل بأسلوب يناسب بيئتـه وثقافته ، ولكنه بعد عودته من بعثته العلمية فى الخـارج ، تطور شعره فى المديح وتخلص من كثير من العيوب التى شابته ٠

ولم يسخر الشاعر أوتاره لتهتف فى أى مجال دون أن يكون له قصـد سـوى الظهور والشهرة ، ولكنه أثنى على من يستحق الثناء وأكرم من هو أهل للتكريم ٠ وقد اشتهر ديوانه بالتهنئات التى رفعها للحكام فى مناسبات مختلفة ٠ وقد أقام رجال القضاء والقانون بالاسكندرية حفل توديع له بمناسـبة نقله وترقيته الى رئيس محكمة القاهرة فى سـنة ١٨٩١ م فشكرهم على شعورهم قائلا :

شكرا على ما بدا من صدق ودكم فاننى من صميم القلب ممنون
والله ما بعتكم حبا بغيركم ولو فعلت اذا انى لمغبـون
وانما قضى أمر المليـك بذا وكل عبد بأمر الملك مرهون
وبعد فالقلب ان أجسامنا افترقت رهيد بحبال الود مقـرون
فاسأل الله ابقاء الهنـاء لكم ان الهناء بحمد الله مضمون

وقال فى هذا الغرض أيضا :

يا آل الفضل والكمال ويا قرة عين الوفـاء وعين الوداد

يا لذى زانكم وميزكم بالعلـــ   م والحلم والهدى والرشـــاد
أنصفونى من لطفكم فلقد غا   درنى راحلا بغير فـــؤاد
واحفظوا عهدى القديم فانى   حافظ عهدكم برغم البعـاد
فاذا قرب النفوس ائتـلاف   هان عندى تفرق الأجسـاد

فى تكريم الشاعر المرحوم خليل مطران
قيلت فى حفلة تكريمه بالجامعة المصرية عام ١٩١٣

★ ★ ★

امطرى ياسحائب الفضل ماشئت   وفيضى على الربا والوهاد
واتركى كل عاطل خالى الصـــد   ر وقرير العين فى كل نادى
لن تزينى أحق من جيد (مطرا   ن) وأولى من صدره بالانتقاد
فلم تصدر الحقائق عنـــه   حاليـك فى أجمـل الأبراد
ولسان يمسى يديره فكـــ   ر كبير النهى كبير المراد
ايه (عباس) شق نهجا جديدا   كل يوم الى ذرا الأمجـاد
وتخير للسعد أمثال (مطرا   ن) أحق الأنام بالاســعاد
وأنلهم مما تصوغ المعالى   نعما لا تمن فى الأجيـــاد
بارك الله فيك فالملك مـــاد   مت رفيع الذرا رفيع العماد

ثم قال فى تقريظ شعره أيضا سنة ١٩١٣

قم أدر يا (خليل) شعرك فينا   قرقفا (١) يشرب النهىوعقارا
انت مطران دين شعر جديد   فتن المسلمين قبل النصارى

---

(١) قرقفا عقارا وهو من أسماء الخمر ، سميت قرقفا لأنها تقرقف شاربهـا أى ترعد .

قصيدة تكريم الأديب واصف غالى باشا

ألقيت هذه القصيدة فى حفل أقيم لتكريمه فى فندق شبرد تحت رعاية الخديوى السابق عباس حلمى سنة ١٩١٤ م لما قام به من ترجمة بعض الشعر العربى الى اللغة الفرنسية فى كتاب سماه « روض الأزهار » ونشر هذا الكتاب فى باريس ولما كان يقوم به أيضا من القاء بعض المحاضرات للاشادة بفضل العرب والتراث العربى الثقافى .

آى صوت حيته بالأمس باريس   مقر العلوم والعلماء
من ترى ذلك الذى جملته   حكمة الشيب فى ربيع الفتاء
ذلك الأسمر الذى بهر البيـ   ـض مطلا من منبر الخطباء
وأماط اللثام عن أدب العر   ب كرام الآباء والأبناء
بلسان ما اعتاد من قبل أن يخضـ   ـع الا لأهله من اباء
يا سجل الخلود فافسح مجالا   لاسمه فى صحيفة الفضلاء
وأر الأعصر الأواتى ان الذكـ   ـر عمر محجل الانباء

ذلك صوت ابن بطرس قد عرفناه   بما هاجه من الأصداء
الق بالسمع تستخفك منه   نغمة لم تكن لغير الوفاء
ذاك نجم أطلقته انت يا مصـ   ـر فقرى بنجمك الوضاء
واجليه حيث تفتقد البد   ر عيون السراة فى الظلماء
كم له من مواقف هز عطف   الحق فيها بالحجة البيضاء
ايه يا ابن الأمجاد قمت بأعبا   ء كبار والمجد ذو أعباء
وأريت الانام بر ذوى القر   بى ورأى الكريم فى الكرماء

فاستمع مما يقال حولك يا (وا صف) ذا اليوم من ضروب الثناء
ان من طيب الثناء لزهرا تجتنيه مسامع الاكفاء

وفي هذه القصيدة يشيد صبرى بما قام به واصف بطرس غالى بن المرحوم بطرس غالى من عمل أدبى مجيد فى فرنسا ، من القاء المحاضرات الأدبية باللغة الفرنسية فى المجتمعات الثقافية بباريس ، عن التراث العربى الخالد ، وما أغدقه العرب على العلم والثقافة والأدب ؛ وقد ترجم ديوان البحترى أو جزءا كبيرا منه الى اللغة الفرنسية بأسلوب ممتاز مما كان له أجمل الوقع فى المجتمعات الأدبية الفرنسية ودعاية للعروبة ولأمجاد الشرق ٠

قصيدة مـــدح

بعث بها الى الأمير عمر طوسن على ما بذله من المال والجهد لاعانة جرحى الترك فى الحرب البلقانية التى وقعت بين دول البلقان والدولة العلية فى سنة ١٩١٣ م

لك الامارة والأقــوام ما برحـــت
لكل عالى الذرا فى الكون تأتمــــر

لو لم ترثهـــا لمـــا ألقت أعنتهـــــا
الا اليك خــــلال كلهـــا غـــــرر

يابن الألى لو أطلو من مضاجعهـــم
يوما عليك لقالوا : « ايه يا عمـــر »

أعــدت أيامهـــم فى مصر ثانيــــة
حتى تــوهم قـــوم أنهـــم نشروا (١)

لله درك كم نبهـــت من همــــم
تثنى على أهلها الآصـــال والبكـر (٢)

وكم تعهدت جرحى من أسود وغـــى
ان يكشر الدهر عن أحداثـه كشروا (٣)

مستنجدا من بنى مصر الى شـــمم
اذا رأوا ثلمة فى حوضهـم جبـروا (٤)

---

(١) نشروا : أى بعثوا من الموت ·

(٢) الآصال والبكر : أى أواخر النهار وأوائله ·

(٣) يقال : كشر السبع عن أنيابه : اذا كشف عنها حين غضبه : وهو يصف هؤلاء الشجعان بالحمية لقومهم اذانابتهم حوادث الزمان حتى يكشفوا غمرتها ·

(٤) الى شمم : أى الى قوم ذوى شمم ، الثلمة فى الحوض : الفرجة فيه من من هدم وكنى بالحوض عما يلزم المرء من حمايته والدفاع عنه ، وبالثلمة فيه عما يصيب المرء من ضيم ·

مستهميا هاميا والنيل فى وجـــل
من أن تجود به أيمانكــم حـذر (١)
حتى تفاهمت الارحـام وادكـــرت
ما بينها الأهل والخـــلان والأســـر (٢)
وآذن البر بالســـقيا وما فتئـــت
منهم ومنك صـــفوف البر تنتظـــر (٣)
وحركت كل كف بالنـــدى مقـــة
حتى تعجبت الانهـــار والغـــدر (٤)

والناس ان قام يستسقى الكريم لهم
سحائب الفضل بشرهم فقد مطـروا

يأبى علاء (سعيد) أن يشـــابهه
الا ابن دوحتـه ان قـام يفتخـــر (٥)
ما زال يحمـــده رائيك مدكـــرا
والأصل بالفرع ـ ان حاكاه ـ يدكر

---

(١) مستهميا هاميا : أى مستمطرا مطرا وكنى بالكلمتين عن دعوته للمصرين أن يجودوا بأموالهم على منكوبى الحرب ، ثم قال بعد ذلك أن النيل خائف من أن تجودوا به لغيركم .

(٢) ادكرت : اى تذكرت ويشير بهذا البيت الى ما كان يلهــج به الخطباء والداعون الى التبرع .

(٣) آذن : أعلم . ومنهم = أى من المصريين .

(٤) المقة : المحبة والمودة من ومق . والغدر : جمع غدير .

(٥) يريد محمد سعيد باشا والى مصر الأسبق وهو جد الممدوح .

رد الأمير على هذه القصيدة فى ٢٤ من مايو ١٩١٣ م

سعادة الأستاذ النابغة اسماعيل صبرى باشا

ان قصيدتكم الشائقة التى تفضل بتقديمها الينا حضرة (حنابك) نجوم مرقومة فى ذلك اللوح المفرغ فى قالب الحسن والاحسان بعدما أبدع تصويرها بيانكم الساحر وأحكم رصفها قلمكم القادر ، قد حلت عند نافى أرفع مكان ، وعظم لدينا موقعها على مقدار ما لكم من المكانة الرفيعة فى ديوان الشعر والأدب ٠

أما ما أشرتم اليه فى كتابكم مما جرى على لسان (محمود باشا فهمى) ، فانى أرى أنى لم أقم الا ببعض الواجب ، وانما هى الآداب العالية أملت عليه وعليكم ذلك المدح والاطراء ٠

فأشكر الله الذى جعلنى أهلا لرضا اخوانى فى الوطن والله ، وأشكر لكم هذا الصنيع الجميل الذى لا أنساه أبدا ٠

وتقبلوا سلامنا ،

عمر طوسون

★ ★ ★

تهنئة بعث بها الى أحمد زكى باشا ، سكرتير مجلس الوزراء فى عام ١٩١١ بمناسبة الانعام عليه برتبة الباشويه ٠

(زكى) يا صفوة أبناء العرب — وخير من ألف فينا وكتب
نلت المعالى وتسنمت الرتب — تسعى الى بابك من غير طلب
لو لم تكن (باشا) لأغناك الأدب — والعلم والفضل وذياك اللقب
لو أن كل معجب بما كتب — هناك اليوم بسطر من ذهب

التقاريظ :

كما اشتهر الشاعر بالقصائد القصيرة والمقطوعات التي شجع بها الكتاب والعلماء ومن ذلك تقريظه لكتاب السفر الى المؤتمر « تأليف أحمد زكي بك » .

وفي هذه القصيدة (١) يحث على السفر ويرغب في الرحيل سنة ١٨٩٣ م

اهجر النوم في طلاب العلاء ... وصل الصبح دائبا بالمساء
والتمس بالمسير في كل قطر ... رتبة العارفين والحكماء
ان غض الشباب ـ فقهه التر ... حال شيخ في أعين العقلاء
ومقام الحسام في الغمد يزرى ... بالذى حازمتنه من جلاء
فدع الغمد يبد للعين من فضه ... ـلك ما كان في زوايا الخفاء
ان أمضى الرجال من كان سهما ... نافذا في حشاشة الغبراء
واللبيب اللبيب من دار في الأر ... ض لعلم يناله أو ثراء
انما الأرض والفضاء كتاب ... فاقرأوه معاشر الأذكياء



وأقرنوا العلم بالسرى رب علم ... لم تحزه قرائح العلماء
وأطيلوا ما كان من قصر العيـ ... ـش يحث الركاب في الانحاء
وطن المرء مهده وبقايا الـ ... ـكون بيت له رفيع البناء

(١) قيلت بمناسبة صدور كتاب (السفر الى المؤتمر) : وهو مجموعة رسائل كتبها المرحوم أحمد زكي باشا العالم المعروف ، أثناء سياحته في أوربا بعد حضوره نائبا عن الحكومة المصرية مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع المنعقد في لندن عام ١٨٩٢ ، وهذه الرسائل تشتمل على ذكر المدن الكبيرة الأوربية ، مع بسط الكلام عن مدينة باريس وما فيها من ضروب الحضارة والمتاحف والمعارض ، وعلى بلاد الاندلس ومدينة لندن .

الى أن قال

حبذا رحلة تمثل تمثيـــــــــــ لا مزايا الأســــــفار للقــــــراء
قد أجادث فيها براعة منشيـ ها اختيار الأخبـــــار والأنبـــــاء
فأجل فى جمالها نظـــــــرات فهى بكر الآداب والانشــــــــاء
وتفهم حديثها ثم ســــــــــافر ليس من يسمع الحديث كرائـى

(١)

(تقريظ لمختارات البارودى)

المطبوعة سنة ١٩٠٩ م

يا رائد الشعر لا تقرب مناهلــــه
الا وراء دليل صـــادق النظـــــــــــر

وان حفظت فلا تحفظ سوى كلـــم
غر جوامع مثل الآى والســـــــــور

ما كل شيء تـــراه ناضرا زهــــــــر
شتان بين هشيم النبت والزهـــــــر

يا طالب الدر بحر الشعر ثم فقف
هذى معادنه ملآى من الـــــــــدرر

أوتيت سؤلك فاقرأ ما تخـــــيره
من خالد الشعر « سامى » خالد الأثر

---

(١) اختار البارودى هذه الأشعار ، من شعر ثلاثين شاعرا من فحول الشعراء المولدين ، وابتدأه بشعر بشار بن برد ، ورتبه على سبعة أبواب : الأدب ـ المديح ـ الرثاء ـ الصفات ـ النسيب ـ الهجاء ـ الزهد .

مسجلا فى كتـــاب خيم حفـــل
بقول كل طـويل الباع ذى خطـر
نعم الكتاب وما أمست صحائفـــه
وأصبحت تهب الأيام من غـــرر
يا قائل الشعر خذ للشعر أهبتـــه
وطربه فى سماء الحسن أو فـــذر
لا تأخذن تلابيب الكـــلام وكن
من أن يردك مدحـورا على حـــذر
كم عربد الغر حول البيت يقرضـــه
وآب بعد جهـاد بين الحصـــــر
شعر الفتى عرضه الثانى فاحـــر به
ألا يشوه بالأقـــذار والوضــــر
فانقد كلامك قبل الناقدين تحط
ثانى النفسين من لغو ومن هـــذر
واقرأ ـ فديتك ـ تأمن ما تحـــاذره
من قارئ هازئ أو قارئ ضجـــر

تقريظ كتاب « مختصر القاموس فى اللغة »
تأليف محمود خاطر بك

ايها الناطقون بالضـاد هـــذا
منهل قد صفا لأهل الضـــاد
ذا كتاب تجاورت كلمـــــات
فيه كانت من قبل كالاضـداد
الفت بينها أواصر معــــنى
خفيت أعصرا على النقـــاد
جفوة عولجت فقادت وئامـــا
وهوى طوع (خاطـــر) وقـاد

وقال أيضا :

اخى هذا هو «القاموس»مختصرا
ضمت صحائفه فى طيها عجبا
يجاور اللفظ فيه اللفظ ينفحه
معنى يكون له ان ينتسب نسبا

تقريظ مجلة (١) صدق الاخاء » :

يا طالب الآداب دونك فاقتطف ... من روضها ما تشتهيه نضيرا
ان رمت شعرا هذه أفنانه ... يحملن من طيب الكلام زهورا
أو رمت نثرا هذه فقراته ... قد مثلت بجمالها المنثورا
حكم تقر لها النهى ومناظر ... ان جال فيها الطرف عاد قريرا
لو كانت الآداب تصبح أمة ... لتخيرت (صدق الاخاء) أميرا

تقريظ ديوان فؤاد الخطيب سنة ١٩١٠ م

يا مطرى المولى الرفيع الذرا ... نلت المنى فانزل بواد خصيب
يا واقفا بين مغانى اللوى ... فتحت بالأغزال باب الحبيب
يا ساقى الندمان حسبى الذى ... يردد الشاعر ساقى الأريب
يا شعراء العصر جوز يتم ... خيرا عن الاحسان قل يا«خطيب»

وقال يحييه على تهنئته بالعيد ، بعث بها اليه من السودان فى ١٩١٠ وكان فؤاد الخطيب اذ ذاك مدرسا بكلية غردون بالخرطوم ٠

أيها الساجع المردد فى السو ... دان آى الوفاء والشوق نثرا
قد قرأت الكتاب لا شلت اليمـ ... ـنى التى أودعت ثناياه درا
كلما قد بعثت لى بكتاب ... قلت : هذا أو فى البرية طهرا
فاذا ما بحثت فى طى قلبى ... قلت:لا،بل أنابذا الوصف أحرى

---

(١) مجلة علمية اجتماعية أدبية شهيرة صدر العدد الأول منها فى يوليو سنة ١٩٠٨ ٠ وكان مديرها حسن أفندى عزت ٠

تقدير اسماعيل صبرى للمرأة

كان مثال الجمال عند صبرى مجسما فى المرأة ، وهو قد رأى أن المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل المعانى السامية ، وأن تفيض على الفنان بالوحى ، وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب اليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة ، ولذلك أيد قاسم أمين فى دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة لأهلها وذوى قرباها ولتقدم لوطنها النشء الصالح ·

وقد دعا الى الاقتصار فى الزواج على واحدة فقط ، واستنكر تعدد الزوجات وكان يدعو الى التوحيد فى ثلاثة : الله ـ المبدأ ـ المرأة ·

وقال فى ذلك :

يا من تزوج باثنتين ألا اتئـد ... ألقيت نفسك ظالما فى الهـاوية
ما العدل بين الضرتين بممكـن ... لو كنت تعدل ما أخذت الثانية

ولم تكن المرأة فى عهده قد خرجت من أسر الحجاب ، ولا أسفرت للجماهـير وكان يقول : ان من الأسباب التى مسخت حياتنـــا ، وشوهت أعيادنا فجعلت أعيادنا كأيام نقاهة المريض ، كل ما فيها

همود ، ونوم وأكل ، غيبة المرأة عن المجتمع ذلك السبب هو علة ما نكابده من جفاء في الطبع ، وجفاف في العيش ، جهومة في البيت ، وسآمة في العمل ، وفوضى في الاجتماع .

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة وهجرنا الأندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهي لبعد المرأة وأصبحنا كالسمك في الماء ، والهباءة في الهواء ، نحيا حياة الهيام والتشرد فلا نطمئن الى مجلس ولا نستأنس لحديث ، فاذا لم تصبح المرأة في البهو عطر المجلس وعلى الطعام زهر المائدة ، وفي الندى روح الحديث وفي الحفل سجمع الأفئدة فهيهات أن يكون لنا مجتمع مهذب وحياة طيبة وأسرة سعيدة .

لاحظ مجلسا من مجالسنا ، احتشدت فيه الرجال والشباب فماذا نجد ، نجد الحركات العنيفة والأصوات الناشزة ، والمناقشات الفجة ، الأحاديث الجريئة والكلمات المندية ، والذوق العامي ، والاحساس البطيء ؟؟

لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته ، امرأة واحدة لا غير ، تجد الحركات تتزن ، والأصوات تدق ، والمناقشات تنتج ، والأحاديث تحتشم والكلمات تنتقي والذوق يسمو ، والاحساس يدق لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجعل سمته في عين المرأة حسنا .

ولقد قدر اسماعيل صبرى سيدتين مثقفتين في عهده ، كان لهما شأن كبير في المجتمع الثقافي آنذاك .

الأولى هي الأميرة الكسندره افرينوه ، وكانت سيدة مشهورة بالاسكندرية ولدت في بيروت وبها تلقت مبادىء العلوم ، ثم قدمت الى مصر في السنة العاشرة من عمرها ، وعكفت على اتقان اللغات الفرنسية والايطالية وآداب اللغة العربية ثم تزوجت السير ملتيادى دى افيرينوه .

وأصدرت مجلة فرنسية هي « مجلة اللوتس » بالاسكندرية عام ١٨٩٣ وكانت معرضا لروائع الأدب الفرنسي ، وقد نالت هذه المجلة تقديرا كبيرا من الهيئات المثقفة ، وراسلت جمعية السلام النسائية في أوربا فأعجبت بها الأسرة فيزينوسكا رئيسة الجمعية ومنحتها أحسن ما لديها وهو لقبها واسمها ·

وكانت لها مكانة عظيمة عند أمراء الشرق وأميراته ، وكانت تتمتع بجمال الخلق والخلق يشهد بهما من عاصرها · ثم أصدرت مجلة نسائية علمية أدبية فكاهية تصدر في آخر كل شهر ، صدر العدد الأول منها بالاسكندرية في ٣١ من ينـاير سـنة ١٨٩٨ ، ١٣١٥ هـ وآخر عدد منها صدر في ٣١ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكان اسمها « أنيس الجليس » ·

وكان لها صالون أدبي يجتمع فيه الكتاب والأدباء ، أجانب ومصريين وقد أعجب بها اسماعيل صبري كسيدة من خيرة سيدات المجتمع في عصرها أدبا وعلما وجمالا وأخلاقا ـ وقد سجل اعجابه بها في مقطوعات شعرية رائعة نأتي في السطور القادمة على بعض منهـا ·

فقد كتب اليها ، داعيا الى اعادة صدور مجلتها العربية « أنيس الجليس » التي احتجبت عن الظهور سنة ١٩٠٤ ·

خبرى القوم يا سمية اسكـ ... ندريا ريه النهى والذكـاء
هل لوجه «الأنيس» بعد احتجاب ... من سفور في عالم الأدبـاء
فنرى فيه كل بحث جديـد ... يقف الحق في صفوف النساء
ان للغانيـات حقـا علينـا ... ليس يخفى الا على الجهـلاء
فاجمعي جيشهن حولك ان شئـ ... ـن طلاب الحقوق حول لـواء
وابعثي من ضياء فكرك في النا ... س سفيرا مسـدد الأراء
وافتحي باب كل بحث بلطف ... انمـا اللطف عـدة الحسنـاء
ان تعارض بك الرجال نسـاء ... عارضتهم بالحجة البيضـاء
ان للفضليـات في كل عصر ... أثـرا في خواطر الفضـلاء

ثم كتب اليها يقرظ بلاغتها فى سنة ١٩١٣

انظمى الدرياسمية (اسكندر) لا فــض عقــده من فيــك
وانثــريه فالدر در وان لم يدخـره تجاره فى سلـــوك
واجعلى فوق مفرق العصر تاجـا من نظيم ان شئت أو من سبيك
وأميطى عن الحقيقة ما يحـ جب عنا جمالها من شكــوك
بارك الله فى خلائقك الغـــر وفى أصــل دوحة تنميــك
ووقى من حوادث الدهر بيتــا عامرا بالشموس من أهليــك
ان للفضل رونقا وجمـــالا بهرا الحاضرين فى ناديــك
قد تفردت فى الأنــام بــرأى غض من صوت معشرجا دلوك
وتجملت بينهـــم بخـــلال لــم تكذب سيما الا مارة فيك
ايه لا كان سامع لم يؤمــن ان دعــوت الاله أن يبقيــك

وكتب اليها فى مناسبة أخرى :

بالله يمم يانسيـــم الصبـــا بمصر عنى دار اسكنـــدره
وحيها بين المها ان بـــدت فى سربها مقبــلة مدبـره
واذكر لها ما بيننا علهـــا يا عاطـر الأنفاس ـ أن تذكره

ثم أرسل لها مقطوعة بعنوان « تحية »

أميرة الغانيـــات أهـــلا بوجهــك الباهــر المنيــر
تيهى على صبـك المعـــنى تيــه غنى علــى فقيــر
وارمى له بعض مــا يرجـــى فالحــب أرضـــاه باليسير

أما المرأة الثانية التى كانت أثيرة باهتمامه وتقديره ، وطالما قضى فى صالونها الأدبى الساعات الجميلة ، يترع من روائع الأدب والفن ، مع صفوة من فطاحل رجال الأدب والثقافة والعلم ، فهى الآنسة « مارى خير زيادة » والمعروفة بالآنسة « مى » .

وكان لهذه المرأة أثر كبير فى الحياة الأدبية فى عصرها ، وقد ولدت بفلسطين وقدمت الى القاهرة فى العقد الأول من هذا القرن ، مع والدها الياس زياده حيث أصدر جريدة المحروسة ، وأخذت فى اتقان اللغة العربية والالمام بآدابها وحضرت لذلك محاضرات الجامعة المصرية القديمة ولم تلبث أن ألمت الماما واسعا بالفلسفة والتاريخ الاسلامى ، وقد تتلمذت حينا على أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، ومصطفى عبد الرازق ، واستطاعت بعد ذلك ممارسة الكتابة العربية فى مجلة الزهور التى كان يصدرها انطون الجميل ، وظلت توالى صحف الأهرام والهلال والمقتطف وصحف لبنان وسوريا الكبرى بمقالاتها العربية التى آثرتها على الفرنسية التىتجيدها ، لأنها أقدر فى رأيها على أن تجمع بينها وبين قراء العربية فى كل أرض عربية .

وقد كتبت فى هلال ابريل سنة ١٩٢٨ تفخر بايثارها العربية على جميع اللغات الأجنبية التى تتقنها ، لأنها تعلمت اللغات الأجنبية لتستطيع تبادل الرأى مع من لا يعرف العربية من رجال الأدب والعلم .

وكانت مى ترى أن العالم كله وطنها ، وأن الانسانية كلها شعبها ، ولكنها كانت مولعة بالشرق ولعا لأحد له ، تتغنى له ، مفاخرة بماضيه ، متحمسة لايقاظ بنيه لتفتح أمام البصائر آفاق الأدب الرفيع والانسانية المثلى .

وتعتبر « مى » أول وأقوى خطيبة عرفتها المنابر النسائية فى الشرق العربى فى العهد الحديث فقد كانت تمتاز ببيان ساحر وامتلاك لكل مقومات الخطابة كسلامة الذوق ؛ فى انتقاء الموضوع مما يجعل الكلام مطابقا لما تقتضيه الحال ، ونظرا لثقافتها الواسعة والمامها بالكثير من العلوم والمعارف ودراستها العميقة لآداب اللغة العربية ، فقد أتاح لها ذلك أن تكون من أعظم خطيبات الشرق ، فى تاريخه القديم والحديث .

نـــدوة مـــى :

والدارس لتاريخ مي وتأثيرها في البيئة الأدبية التي عاصرتها: ذلك التأثير الذي ما زال ممتدا الى يومنا هذا ، يدرك تماما أنه كان لمي تأثير واضح في الأدباء الذين يحضرون ندوتها يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، أو يستمعون اليها اذا حاضرت الجمهور في القاهرة ولم يكن في مصر حتى سنة ١٩٣٤ ندوة أدبية مشهورة غير ندوتها · وان كان المعروف أن الأميرة « نازلي فاضل » كانت تعقد ندوة قبل ذلك التاريخ ، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر وفي مطلع هذا القرن، ولم يكن رواد ندوتها الا الأمراء والعظمـاء تمشيا مع التقاليد المرعية · ولم تؤثر هـذه الندوة في الاتجاهـات الأدبيـة المعاصرة · لأنها كانت وقفا على طبقة الخاصة ؟

على أن نـــدوة مي تعتبر أولى النـــدوات التي مثلت مختلف العقليات والاتجاهات الفكرية آنذاك وســاعدت على تكييف المزاج الأدبي وخلق وعي ثقافي وتبســيط المعقد من الفلسفة والعلوم ، وتحليل ما يستعصى فهمه في جو علمي بعيد عن الجمود الأكاديمي والجفاف المدرسي · وكان لظهور فتاة « عربية ، في ميعـة الصـبا وعنفوان الجمال ، تجيد الحديث باللغة العربية الفصحى وكثير من اللغات الأجنبية الحية ، وتعتلي مكان الصداره بين خطيبات العرب تدير في دارها صالونا أدبيا يجمع صفوة المثقفين وأئمة العلم والأدب في عصرها حدث هام في الحياة الأدبية في البلاد ·

وفي ذلك يقول المرحوم مطران في حفل رثائها سنة ١٩٤٠ :

أقفر البيت أين ناديك يا مـــى — اليه الوفـــــود يختلفونـــــا
صفوة المشرقين نبلا وفضــــلا — في ذراك الرحيب يعتمرونــــا
فتساق البحوث فيه ضروبـــا — ويدار الحديث فيه شــجونا
ويصيب القلوب وهي غـــراث — من ثمار العقول ما يشتهينــــا

وكان من رواد هذه الندوة المشهورين :

أحمد لطفي السيد ـ اسماعيل صبـــرى ـ الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ عباس العقاد ـ الدكتور زكي مبارك ـ أنطون الجميل ـ منصور فهمي ـ فؤاد صروف ··· وغيرهم من كبار رجال الأدب والفكر والدين والعلم والفن ·

ولقد كان اسماعيل صبرى من المعجبين بشخصيتها ، وكانت في نظره ، المثل الأعلى للمرأة العربية المثقفة ، الذى يجب أن يقتدى به ، اذا أريد للشرق النهوض وللمجتمع العربى أن يرقى · وكان من المواظبين على حضور ندوتها الأدبية المذكورة وقد تأثر شعره العاطفي الرقيق بهذه الندوة ، وقد ظهر ذلك في بعض مقطوعاتــه الشعرية الرائعة ومنها قوله لها في موعد الزيارة :

روحي على دور بعض الحى حائمة ‏ ‏ ‏ ‏ كظامىء الطير تواقـــا الى المـاء
ان لم أمتع بمى ناظرى غـــدا ‏ ‏ ‏ ‏ أنكرت صبحك يا يوم الثـلاثاء

وقال لها مهنئا بعام جديدة :

ياغرة اليوم جوزىالأفق صاعدة ‏ ‏ ‏ ‏ الى السماء بآمال المحبينـــــا
انى سألت لك الأيـــام صافية ‏ ‏ ‏ ‏ يامى قولى معى بالله آمينـــــا

وكانت آراء صبرى التقدمية في تحرير المرأة ، ودعم كيانها بالعلم والثقافة والتربية ، واطلاق قيودها وفك أسارها من التقاليد البالية ، واخراجها الى المجتمع الخارجي لتشترك في معركة البناء والعلم والنهوض الوطنى صدى لتأثره بمنتدى (مى) وتقـــديره واكباره لمكانتها ·

ولم نعثر على شىء من القصائد التى قالها عنها صراحة ، سوى المقطوعات المذكورة آنفا ، أما ما أرسله لها من شعر فلم يصرح فيــه

علانية عن شخصيتها ، ونرجح أن الأبيـــات الآتية هى تسجيـــل لعواطفه الجياشة نحوها :

ياظبية من ظباء الأنس راتعـــة بين القصور تعالى الله باريـــك
هل النعيم سوى يوم أراك بــه أو ساعة بت أقضيها بناديـــك
وهل يعد على العمر واهبــــه أن لم يجمله نظم الدر من فيـك

وتكاد لا تتغير صورة هـــذه الفتاة المنعمـــة ، ابنة الترف والقصور ، التى تتهادى فى ناديها ؛ تنثر الدر البليغ على الحاضرين. والشاعر يشتاق اليها ، ويسهر من أجلها كلما ابتعد عنها ، وعـن مجلسها ، وهو لا يبغى منها شيئا ، سوى أن يكون قريبا منها وفى حمى رضاها :

أصبو اليك اذا النســـــــ ـيم سرى يمثل لى شـــــذاك
أو دارت الكاســات بالصـــ ـــهباء تخبر عن لمـــاك
وأعد قربـك مشتهــــــا ى وغايتى القصـوى رضاك

حفلة تأبين باحثة البادية :

وفى السابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩١٨ ، ماتت ربـة القلم ، الكاتبة الأولى فى مصر والمفكرة اللوذعية السيدة ملك حفنى ناصف بنت الشاعر الأديب الكريم حفنى بك ناصف الصديق الحميم لشاعرنا اسماعيل صبرى ــ وأقيم أول حفل تأبين فى مصر بل فى الشرق العربى كافة فى العهد الحديث لأول كاتبة مصرية ، تقديرا وتكريما لعلمها وأدبها والأهداف النبيلة التى سعت فى سبيلها ·

وأقيم هذا الحفل الذى كانت تعلوه المهابة والوقار بالجامعـة المصرية القديمة باشراف وترتيب زعيمة النهضة النسائية هـــدى

شعراوى . وكان هذا من الأحداث الاجتماعية المهمة في التطـــور الأدبى بالبلاد ، حين اجتمع رهط كبير من كبار الكتاب ورجـــال الفكر ، يتحدثون عن مزايا الفقيدة الجليلة « باحثة البادية » فى القاعة التى طالما أن سبق لها المحاضرة فيها ، ويكتمل عقد هذا الحفل الخالد فى تاريخ مصر برئاسة امام الشعراء وشيخهم (١) اسماعيل صبري القاضى الكبير وقد أضفى بحضوره على الحفل جلالا ووقارا ، وكان قبوله لرئاسة الحفل اعلانا عاليا ، لتكريمه وتقديره لذكرى امرأة (٢) مصرية كانت طليعة النهضة النسائية فى البلاد ، وايمانه بما سيكون للمرأة المثقفة من شأن كبير فى مستقبل مصر والشرق العربى بأسره .

وقد اســـتهل الحفلة بكلمة عميقة مؤثرة عن مزايا المحتفل بذكراها وأثرها فى المجتمع المصرى آنذاك .

ولما سمع المرحوم حفنى ناصف الشاعر الكبير ما ألقى في الجامعة من المراثى في تأبين كريمته استبد به الحزن ، وأمعن به الأسى ، وبلغ به التأثر مداه ، وعاد الى البيت لينام ونحى غطاءه عنه ، وأخذ يبكى بكاء مرا ويزفر زفرة الثكلى ؛ مما أثر فى صحته فاشتد عليه ما كان يشكو به من داء — حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أيام .

---

(١) حضر اسماعيل صبرى باشا الحفل نيابة عن عدلى يكن باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت .

(٢) السيده ملك حفنى ناصف اول امرأة مثقفة فى مطلع هذا القرن نالت دبلوما من مدارس الحكومة عام ١٩٠٣ ، وكانت كاتبة مجيدة ، واول فتاة مصرية تعتلى منبر الخطابة العربية ، كذلك كانت أول امراة مثلت المرأة المصرية فى مؤتمر عام واول من وضع أساس النهضة النسائية فى الشرق العربى .

كتاب الفتاة والبيت (١)

ولقد قام المرحوم انطون الجميل باشا (رئيس تحرير صحيفة الآهرام سابقا) بترجمة كتاب « الفتاة والبيت » من الانجليزية الى العربية ـ تأليف السيدة ج ـ س ـ دويوك ، فقدم له اسماعيل صبرى بمقدمة رائعة ، تدل على ايمانه وتحمسه لتعليم المرأة وقد جاء في هذه المقدمة ما يلى :

صديقى العزيز أنطون الجميل بك

قرأت كتابك (الفتاة والبيت) ، وها أنا أكتب اليك والطرب آخذ منى كل مأخذ ، وكيف لا أطرب وقد شاهدت من أساليب الكتابة وحسن الانشاء مالم يتفق قبلك لكاتب ينقل من لغة أجنبية الى لغتنا العربية موضوعات تتعلق بحياتنا العمرانية وترتبط بنهضتنا العلمية ، لذلك افتتحت خطابى بقوله : « قرأت كتابك » لأن من ترجمه كما ترجمت ، حقيق أن يشارك المؤلف فى فضله ، وأن يشاطره فى فخره ؛ فاذا اقيل لأولهما « أجدت » قيل للثانى « أجدت وأحسنت » .

نحن فى حاجة ماسة الى تعليم أبنائنا وبناتنا ، بل ان حاجتنا الى تعليم بناتنا أشد ، لأن بنت اليوم أم الغد ، وحضن الأم فى نظر العاقل مدرسة أولية يتلقى فيها الطفل المواد الأولى لغذاء جسمه وعقله ، ولأن النساء نصف مجموع الأمة وهيهات أن ينهض مجموع نصفه أشل ، وعبثا يحاول الارتقاء ، اذا لم يعالج بالعلم شلل ذلك النصف ـ (وهو كناية عن أمهاتنا واخواتنا وزوجاتنا وبناتنا) واذا لم تتولى التربية الصحيحة بجانب العلم ، تهذيبه وتكميله .

---

(١) ديوان اسماعيل صبرى اشراف أحمد الزين .

الباب السادس

المتنوعات

- شعره فى الوصف
- شعره فى الهجاء
- شعر المعارضات
- شعر المقطوعات
- اسماعيل صبرى والبارودى

شعره الوصفى

النيـــل

ماأعجب النيل ما أبهى شمائله　　فى ضفتيه من الأشجـار أدواح
من جنة الخلد فياض على تـــرع　　تهب فيها هبــوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعمـــوا　　وانما هى أرزاق وأربــــــاح

البرق والسحاب

وفيها يحن الى عصر الشباب

أبرق يتــوج هــام الربـــا　　والا فهاتيـك نار القــــرى
كأن سنـــاه عيـــون مراض　　يحاولن تحقيق شمس الضحى
والا فتلك مصابيح قبل انطـــفاء　　يثرن لصـــدع الدجى
والا فتلك سيوف تميـــــل　　بأيدى كمـاة عراها الونى
والا مواطئ خيـــل عـــلى　　صـخور تطـــاير منها اللظى
ومامن صخور تراهـــا العيـون　　سوى غاديات تؤم الفـــــلا
تكاد تطير اشــتياقا لهـــا　　اذا أشرفت ظامئـــات الربـا
كأن الثرى رام تقبيلهـــــــا　　فمـــد اليهـــا رؤوس الربى
اذا هى مرت بواد محيـــل　　وجرت عليه ذيول الحيـــا
كسته مطـــارف من سندس　　وأنست جوانبه ما الظمـــا

سقى ريها العذب عهد الشباب فقد كان روضـــا شهي الجنى
اذا العيش كالغصن فى لينـــه يميل بعبء ثمـــار المـــنى
أقلبى كم ذا توالى الحنـــــين وكم ذا يشوقك عصر الصبـــا
رويدك انى رأيت القـــلوب تفطـــــر من ذا ومن بعض ذا
صحبت الأسى بعد ذاك الزمان كأنك مستعذب للـــــــأسى

الى سرحـــة

قال هذه الأبيات يخاطب بها شجرة فى منازل أحبابه ويتمنى جوارها

يا سرحة بجـــوار الماء ناضرة سقاك دمعي اذا لم يوف ساقيك
عار عليك ـ وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمثلي في نواحيك
فمن معيري جناحي طائر غـرد كي أقطع العمر شدوا في أعاليك
فلا أنفر من أرض غرست بهـا ولا يرن بصوتي غير واديـــك

شعره في الهجاء

في (١) مخادع (نشرت في ١٩٠٩)

لك ألفـــــاظ اذا احتجت الى ... خير كانت شراك الخيـــــرين
فاذا استغنيت كانت أسهما ... نافذات في قلوب المحســـنينَ
لو درى رب المسروءات رمـــــى ... لك مارجفت من حصن حصـــين
قد فضحت الطين والمـــاء معـا ... يا سليل الطين والماء المهـــين

★ ★ ★

في جاهل سفيه (نشرت في ١٩٠٩)

بذرت جهـــلا وهجـــــرا ... فاحصـــــد أنـــاة حـــليم
روث اللســـــان سـماد ... في روض كـل كـــريم

★ ★ ★

في من نال العلا خداعا بلا استحقاق

هنيئا برغم العلموالفضل والتقى ... علا نلتها قسرا وحاولتها ختـــلا
تسلقتها لما رأيت حماتهـــــا ... يذودون عنأبوابها الوغد والنذلا

---

(١) انه يصف المخادع بطلاوة الفاظه حتى أنه يتصيد بها قلوب الخيرين ، ويلاحظ أنه استعمل في هذا البيت الشراك بمعنى حبال الصائد .

شعر المعارضات

معارضة لقصيدة القيرواني(١) التي أولها

يا ليل الصب متى غـــده   أقيام الساعة موعـــده

نشرت سنة ١٩١٠ ، وقد عارض هذه القصـــيدة أيضا من شعراء العصر المرحوم أحمد شوقي وولي الدين يكن والأمير شكيب ارسلان ٠

أقريب من دنف(٢) غـــــده   فالليل تمـــرد أســـوده
والتفت تحت عجـــاجته(٣)   بيض في الحي تؤيــــده
حرب عنـــدي لمسعرهـــا   شـــــوق ما زلت أردده
هل من راق لصريع هـــوى   هل من آسي يتعهـــــده
حتام يساوره كمـــــد   يبلي الأحشـــاء تجـــدده
والام يصـــارعه ألـــم   ان هم يقيم ويقعـــده
في القصر غزال تكبـــره   غزلان الرمـــل وتحســـده
صفرت كفي منـــه ومضى   وقد امتلأت مني يـــده

---

(١) هو العلامة الأديب أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرىء الضرير الحصري القيرواني الشاعر المشهور ، وفد على جزيرة الاندلس في منتصف المائة الخامسة ، وتوفي بطنجه سنة ٤٨٨ ٠

(٢) الدنف : الذي لازمه المرض وثقل عليه ٠

(٣) العجاجة : الغبار ، شبه به ظلمة الليل ٠

كم صفت التبر له شركـــــا وقضيت الليـــل أنضـــده
وأشاور شـــوقى بل أدبى هـــل أقصر أم اتصـــيله
مولاى أعيـــذك من حزم لا يرحم قلبـــا موقـــده
ادرك ـ بحياتـــك ـ من رمقى مابـــات هـــواك يهدده
قدبان الحب لذى عينـــــــ ين وهذا الشوق يؤكـــــده
شوقى ، جود فى الشعر وقـل آمنت بأنـــك أوحـــده

شعر المقطوعات

الى المرحوم أحمد شوقى بك

فى منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ م

أرسل أحمد شوقى الى اسماعيل صبرى بهذين البيتين :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنـــا
بعد الهـــدوء ويهمى عن مآقينـــا

لما ترقرق الماء فى دمع السماء دما
هاج البكا فخضبنا الأرض باكينـا

فأجابه اسماعيل صبرى بهذه الأبيات :

يا وامض البرق كـــم نبهت من شجن
فى أضـــلع ذهلت عن دائها حينـــا

فالماء فى مقـــل والنـــار فى مهج
قد صـار بينهما أمـر المحبينـــا

لولا تـــذكر أيـــام لنا سلفت
مابات يبكى دما فى الحى باكينـا

يا آل ودى عـــــودوا لاعـلمتكم
وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا

يا نسمة ضـــمخت أذيالها سحرا
أزهـــار أندلس هبى بوادينـــا

★ ★ ★

العنـــاق

نشرت عـــام ١٩٠٧

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وعتابـــا
كأن حبيبا في خلال حبيبـــه تسرب أثنـــاء العناق وغابا

★ ★ ★

ذكـــرى وتشـــوق

نشرت فى ١٩٠٦

ألا من لمقروح الجوانح(١) ساهر
تساوره(٢) الآلام جهد المساور
يحـــن الى عصر تقضى وأسرة
أفاضت عليه مثل عرف الازاهر
وتمنحه الذكرى ـ اذا شفه الحمى
وأهل الحمى شوقا ـ قوادم(٣) طائر
الا أيها السلك الذى منه أصبحت
تمشى على جسر بنات(٤) الخواطر

(١) الجوانح : الاضلاع .
(٢) تساوره : تواثبه وتغالبه .
(٣) قوادم : ريش مقدم الجناح .
(٤) بنات الخواطر : الأفكار .

رعى الله عصرا قد نماك فانــه
أفاد ذوى الحاجات أعظم ناصــر
لأنتغياث(١)المستغيثمن النوى
وعون سخى الدمع سمح المحاجر

وقوله فى العزة والابـــاء :

نح كأس الغـرام انى سقيت — بمدام السـلو حتى رويت
لم يزل بى ساقى التسلى يساق — ينى كئوسا من بعدها ما ظميت
ايها التائه المدل علينـــا — ويكقل لى: من أنت انى نسيت
لو فرشت الطريق درا لأ خطـو — فوقه نحـو داركم مارضيت

وفي هذه المقطوعة يحى الشاعر الكرامة والعزة الشـخصية والاباء ، ويربأ بنفسه أن تكون بمطية تمتطى ' وقد غره في الناس أقوالهم المعسولة ثم هي بعد ذلك تشف عن مكر ولؤم وانحطاط .

الى اسكندر فهمى باشا مدير السكك الحديدية
يشير بهذين البيتين الى اعتزاله منصبه

أصلب أنت ؟ قل لى ، حار أمرى — اذا فكرت فيك ـ وضاع حدسى
خرجت من الشريط ولم تهشـم — كأنك خارج من بيت عـــرس

★ ★ ★

الى يوسف سابا باشا
يشير بهذين البيتين الى توليه رئاسة شركة مياه القاهرة

اين (سابا)أين (سابا)ياترى — أين (سابا) ذو المزايا الباهرة
قال لى قـــوم ثقـــات : انهم — لمحـوه فى مياه القاهـــرة

---

(١) غياث : للعين ، النوى : البعد ، سمح المحاجر : كريم بدموعه .

في جـوف الحيتان

يريد صبري بهذين البيتين نفسه ، ويشير الى أنه قد أصبح منسيا لا يذكر اسمه عند توزيع هذه المناصب ، لاعتزاله وعدم طمعه في شيء منها فكأنه في جوف الحيتان :

اين (صبرى) من يذكر اليوم (صبرى)
بعد أعـــوام عزلـــة وشهــــــور
اسألوا الشـــعر فهـــو أعلم هـــلا
أكلته الاسمــــــاك طي بحــــــور

في مسقى « سبيل » (أم عباس)

وهي المغفور لها بمباقادن والدة عباس باشا الأول والى مصر وصاحبة الأوقاف الكثيرة على التعليم ٠

أسست هــذا على أس التقى (أم عبـــاس) ملاذ المعــوزين
ايها الظـــامىء قف نلت المنى في حمى جدة أم المحســنين(١)

(١) يشير بهذا الشطر الأخير الى ما هو معروف من أن المغفور لها بمبا قادن كانت جدة أمينه هانم الهامى والدة الخديوى السابق عباس حلمى الثانى ، وذلك من جهة الأب الهامى باشا حفيد الأولى ووالد الثانية ، وكانت والدة عباس حلمى تلقب (بأم المحسنين) لكثرة ما كانت تبذل من الحسنات للفقراء ٠

شعره الغنائى

كان صبرى يتذوق الموسيقى وتطرب أذنه للغناء العربى الذى عاصره عند محمد عثمان وعبده الحمولى ، ولعل هذا التذوق والطرب هما أساس ما يفيض به شعره الوجدانى من عذوبة وألحان موسيقية بديعة ، فقد كانت أذنه الداخلية تحس قياس الذبذبات والتموجات الموسيقية فى الشعر وكان يعرف كيف يجمع الألحان الحلوة بعضها الى بعض فتأسر النفوس وتجذب القلوب ، وكأنما أتيحت له جميع الأدوات لكى يحسن شعره الوجدانى فهو حينا يرقى بمحبوبته فيجعلها علوية سماوية أو ملائكية ، وحينا يصور لوعات حبه وما يتلظى به قلبه من آلام ونيران ، وهو فى كل ذلك يصف حيانقيا صافيا رقيقا وهو يؤدى هذا الوصف فى عبارات شعرية حلوة تسند العبارة أختها وتحوطها بجرسها ولحنها العذب .

ولكى يؤثر تأثيرا عميقا فى قلب السامعين كان يختار عبارات أغانيه من اللغة العامية لتكون أكثر تأثيرا وقربا من نفوسهم بل اننا نجده أحيانا يخرج تماما عن اللغة العربية الفصحى ويختار لغة الشعب اليومية فيؤلف منها الأغانى ، يريد لها أن يلحنها الملحنون وأن تجرى على لسان الشعب فى صباحه ومسائه وقد غنى له فعلا محمد عثمان وعبده الحمولى وهما من أئمة الغناء فى عهده .

وصبرى من هـــذه الناحية يعد أحد فحول الشـــعراء الذين أسهموا فى الارتفاع بمستوى الأغنية العربية الوجدانية وعملوا على تطويرها وتغييرها عما كانت فى عهده من معان مبتذلة سواء فى تصوير المرأة أو فى تصوير الحب نفسه ولذاته ، فقد أشاع فى أغانيــه نفس هذه الروح التى وصفناها آنفا وليس من شك فى أن أحمد شوقى أقتدى به فى أغانيه الوجدانيــة التى غنى بهـــا عبد الوهاب فقد حاكاه محاكاة تامة فى معانيه ورقته وخفة روحه ٠

واستمع الى هذه الأغنية لصبرى :

الحلو لما انعطـــــــــــف أخجل ٠٠ جميع الغصـــون
والخد ـ آه ـ ما انأطـــــف ورده بغير العيـــــــون

★ ★ ★

لـــا بــــدا لى الحبيب يشبه لبدر التمـــــــام
صار الفـــــؤاد فى لهيب فى الحـــال وهام بالأوام

★ ★ ★

وحين رأى الحب فيــه زاد والغـــرام اشتهـــــر
من العـــذول الســـفيه حـــــاذر وعنى اقتصــــر
حبيت أشـــــوف لى سبب أبنى عليـــه الكـــــلام
لـــــكن لأيت الطلـــــب بعيــــد وصعب المـــرام

★ ★ ★

ارحـم يا سيد المـــــلاح مغــرم ضناه البعـــاد
دمعه على الخـــــد ســـاح من حــــر نار الفــؤاد

يـــلى ابتليت بالهـــوى   وصرت مغـــرم أسيـــر
خـــلى اصطبـــارك دوا   حتى يهـــون العسير

★ ★ ★

الحب حالــــــــه عجب   يلـــذ فيه العـــذاب
ذكـر الحبيب فيه طـرب   ودمـــع عينــــه شراب

وواضح أننا نجد فى هذه الأغنية نفس الرقة التى وجدناها فى شعره الناضج فهو يشكو من نيران الحب ، وهو يلوم العذول السفيه الذى كان سببا فى قطيعة المحبوبة وهجـــرها ويناجى صاحبته ويناديها مستعطفا مسترحما ونيران الحب تلذع لذعا ومن طريف ما غنى له هذه المقطوعة (التى نظمها وهو طالب) -

يـا نـرجس الروض مالـك   سلطات لحظـــك عـــلى
اللى كوانى جمالـــــك   لـــكن سببهـــا عنى

★ ★ ★

لأجلك هجرنى منــــاى   وفيـــك جفيت كـــل صاحب
ولأجل أربك ووصـــلك   صـــاحبت غير الحبـــايب

★ ★ ★

خلى صـــدودك وهجـــرك   واطفى لهيبى ووجــــدى
ســـاعة وصالك وأربـــك   أغـــلى من العمـــر عنـــدى

★ ★ ★

بصـــدى انتم رضـــيتم   وهـــان عليكم بعـــادى
وأنتم (١) أطعتـــم ودادى   اللـــه يصـــبر فـــؤادى

---

(١) اطعتم الكلمة العامية للفظ قطعتم .

بدى أديـــك من دمـــوعى وارســـــم عليهـــم أساور
وان كنت خايف عـــذولى ارخى شـعورك ســـتاير

وكانت هذه الأغنية من الأغانى المشهورة التى غناها له عبده الحمولى .

★★★

ومن أغانيه أيضا :

أعرض لحســـــنك أو راء واكتب وأدون
وأبات صريـع الآشــــواء واحســـب وأضـــــمن
دا هجر وصـــبابه وفراء يارب هـــــــون
وارحم ألوب العشـــــــاء داشىء يجــــــنن

★★★

ومن أغانيه أيضا :

الوصل نسانى العتاب وكان كتير وبعدما شفت العذاب هان العسير
وردت الروح فى العليـــــــل والرب أسعف بالجميــــــل
شجن كثير ونوم أليـــل كن لى نصـــــير

★ ★ ★

ومن أغانيه أيضا :

محبـــك فى هنــا وسرور صفا له يوم صفيت الدهـــــر
مليت البيت علينـــا نـــور سلامات (١) يا شئيئى البـــدر
سلامات يا منى الأحبـــاب وأهلا يا فريــــد العصـــر
جعلت العمر نصه غيـــاب عن المغرم ونصـــه هجـــر

(١) يا شئيىء ـ اللفظ العامى من شقيق .

وما ينسب اليه من الموالية قوله

في ظل أهداب عيونك ورد خـــدك آل
وحســـن يوسف ميراث لوجهـــك آل
والشمس ويا الأمر في حسنهم لك آل
لوألت للصب آل : كل الملاح جنـــدى
ولى الجمال أجمعه من غير مشارك آل

★★★

ومن أغانيه أيضا ما نظمه تحية للسلطان حسين كامل

حى الأهـــلة في الأعـــلام ويا النجـــوم شارات الفخـــر
وأرا السلام طـــول الأيـــام على أمر طالع في مصـــــر
غمرت ملكك بالاحســـــان يبات يسابىء فيه أمـــرك
حسين ، كده يكون السلطـــان الله يبـــارك في عمـــرك

ونظم أيضا اغنية في مدحه

في عـــابدين سلطـــان وفى السما بـــدر زاهى
شـــوف دا ودا بامعـــان ان كنت تفهم وضـــاهى
دا فـــرع اسماعيـــل حاسب دا مولى المـــوالى
فين بدر وادى النيـــل وفين بـــدر الليـــالى

ومن أغانيه المشهورة التى غناها المغنى المشهور محمد عثمان :

أدك أمير الاغصـــان من غير مكابـــــر
وورد خـــدك ســـلطان على الأزاهـــــر

والحب كلـــه أشجـــان يا ألب حـــــــاذر
والصـــد ويـــا الهجـران جـــــزا المخاطـر

★★★

يا ألب آدانت حبيت ورجعـــــت تنـــدم
صبحت تشـكى مالا يت لك حـــد يرحـــم
صـــدأت أولى ورأيـت ذل المتـــيم
يا ما نصــــحتك ونهيت لو كنت تفهـــــم

★★★

أعرض لحســـنك أوراء واكتب وأدون
وأبات صريع الأشـــــواء وأحسب وأخمـــــن
د أهجر وصبابه وفـــواء يارب هـــــون
وارحـــم آلوب العشـــاء دآشيء يجـــنن

ولهذه الأغنية قصة طريفه وهى أن اسماعيل صبرى باشا كان مدعوا فى حفل خاص ، وكان من ضمن برنامج الحفل أن يقدم المغنى (محمد عثمان) وصلة غنائية ، وبينما كان يستمع اليه انتـــابه شـعور بالضيق والمضض ولم يرقه ما تغنى به من معانى مبتذلة ، وصور سوقية ، فسأله بعض جلسائه : هلا ينظم الباشا مقطوعة نستغنى بها عن تلك الأغانى الغير مناسبة فأجابهم الى ذلك، واشترط أن تغنى فى نفس الليلة ، فأجابه محمد عثمان الى شرطه وغنى بهذه الأغنية ولعل من هذه الحادثة ، يتضح لنا أثر اسماعيل صبرى البين فى رفع مستوى الأغانى الشعبية ، والصعود بها الى سمو الخيال وجمال المعانى ورقة الاشارات ، وهكذا بدأ يشـق للأغنية نهجا جديدا ، تظهر فيه خالصة نقية من الأوشاب والتفاهة

والغثاثة - بعد أن هذبها ورققها وبذلك كان اسماعيل صبرى رائد الاغنية الحديثة فى القرن العشرين .

وفى العشرينيات ، حينما ظهر نجم سيدة الغنـاء العربى . السيدة أم كلثوم فى سماء الفن الغنائى ، وبتوجيه أستاذها الشيخ أبو العلا محمد ، غنت لاسماعيل صبرى مقطوعتين وهما :

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى ص ١١٥ من هذا الكتاب
أقصر فؤاد فما الذكرى بنافعة ص ١١٥ من هذا الكتاب

وقد ورد هذا فى الكتاب الشامل لجميع أغانى سيدة الغناء ، وكذلك أكده أصدقائى الذين سمعوا هذه المقطوعات تغنيها أم كلثوم فى أول مراحل حياتها الفنية . ولا توجد تسجيلات لهذه الأغانى معروضة للبيع للجمهور ، حيث أن الاسطوانات الخاصة بها يحتفظ بها هواة الأغانى القديمة لأم كلثوم .

اسماعيل صبرى والبارودى

عاد امام الشعر الحديث وقائده المظفر محمود سامى البارودى من سيلان فى أول سبتمبر من عام ١٨٩٩ بعد جهود المخلصين له وعلى رأسهم الامام محمد عبده ، وبعد أن قاسى مرارة النفى وعذاب النأى وفرقة الصحاب ، وموت الأعزاء ، ونال ذلك من صحته ومن بصره الشىء الكثير .

وأقبلت مواكب الأدباء والشعراء من مصر والبلدان العربية ، ومن بقى من رفاق الجهاد تحج الى داره ، وتهرع الى كرمته ، تحى الزعيم العائد وتهنىء بالعودة ، وقد كانت عودته عيدا نشر البشر فى ربوع الأدب وأجواء العلم والشعر فى طول البلاد وعرضها .

فتسابقوا اليه ، يعيد حبل المودة من كان على معرفة به قبل النفى ، ويعقد أواصر الصلة معه أبناء الجيل الجديد ممن سمعوا عنه، وعرفوه قبل رؤيته ، من خلال شعره وجهاده ، وكلهم لهفة وشوق الى سماع قيثارته تعزف لحن اللقاء .

وتستقبل الصحف ذات الصبغة الوطنية البارودى استقبالا حارا فيكتب محرر المؤيد ، عاد محمود سامى باشا البارودى الى القاهرة عائدا من منفاه ، والله أعلم لمقدار ما خامر قلوب أهله

وأصدقائه من الفرح ، بل وما خامر قلبه وامتزج بكل حواسه فيه عندما وطئت أقدامه تراب النيل ، بعد أن بلغ به اليأس منتهاه ٠

ثم يصف الكاتب هيئة الشاعر بعد عودته من منفاه ، ويسترسل معه فيسأل عن رفاقه في جزيرة سيلان وهم أحمد عرابى ويعقوب سامي وعلى فهمى فيجيب .

« ان صحتهم جميعا سيئة ، وتتدهور يوما بعد يوم ؛ فعسى الله أن يفك الكرب عنهم ويشملهم بعطفه ، فيعودوا الى الديار » ، وكان كلما استطرد الحديث عاد الى ذكرى آلامه التى عاناها فى منفاه خاصة بعد أن أصيبت عيناه فقال :

« ما أشد ما كنت فيه من الأكدار والأحزان ، وحيدا لا انسان تود الحديث اليه ، ولا أنيس تلذ محاضرته أو تطيب معاشرته وكان لى من مطالعة الكتب والصحف خير ما يتسلى المرء فى وحدته ، ويأنس اليه مثلى فى غربته ، فلما أصاب بصرى ما أصابه فقدت كل لذة فى الحياة (١) ٠

ثم ينصح الأطباء البارودى بسكنى حلوان لعل هواءها الجاف ومياهها المعدنية تبله من مرضه وترد له مازاغ من البصر فى دار تجاور الشاعر أحمد شوقى ، ويلتقى شباب الشعر بشيخوخته . ويصف شوقى جاره نزيل حلوان فيقول :

« منكوب كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق فى البرامكه من جاه يطويه ، ونعيم يذويه ، وولد يرديه ، ونور يطفيه ، وحسب وضاح يخفيه ، وحكم نافذ يحكم فيه ، جاورته بحلوان الشهور الطوال يشد بيتينا طنب ، وينتظم دارينا جدار ، فاذا الجار كريم ،

---

(١) المؤيد ، على يوسف ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٩ ٠

واذا الشاعر عظيم · ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته الا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه » ·

وفى حلوان كان يزوره اسماعيل صبرى وخليل مطران وغيرهم من أهل الفكر والفن والأدب وعشاق الشعر ، وكثيرا ما كان يعرض عليه صبرى خدماته وفاء منه لامام الشعر ورائده فى العصر الحديث ، وقد عوض بصلاته به بعد منفاه ، حرمانه من الاتصال به وهو فى القمة من المناصب ، ثم رئيسا للوزارة فى عهد الثورة العرابية وكان هو حديث التخرج من معاهد القانون بفرنسا ، يدرج فى سلك المناصب القضائية بعيدا عن القاهرة وأجوائها ·

وقد أفاد صبرى من اتصاله بالبارودى أيما فائدة ، وعرف منه كثيرا من أسرار الثورة العرابية الا أنه حيثما أشار اليه ؛ تسجيل(١) مذكراته عن الثورة لفائدة مصر وأجيالها المقبلة ، أبدى نفوره من هذه الفكرة ، ولما رجاه أن يذكر سبب الامتناع عن ذلك قال (ان علمى بأن الغضب فى طباعى : وخوفى من أن يملكنى عند بعض الذكريات ؛ فيبغى القلم على الرجال) وعند هذا الحد من الحديث صمت اسماعيل صبرى احتراما لرغبة الزعيم المجروح · ولم يفاتحه فى هذا الموضوع نهائيا ·

وفى ١٧ مايو سنة ١٩٠٠ أعاد الخديوى عباس الثانى الى البارودى ألقابه وأملاكه الموقوفة ، فتقبل الدنيا عليه بعض الاقبال بعد نفورها الطويل ، ويشكر البارودى لعباس ويمدحه بقصيدة من شعره ·

---

(١) من رسالة لأحمد شوقى الى الدكتور صبرى السربونى سنة ١٩٢٣ ــ أنظر الشوقيات المجهولة لمحمد صبرى ج ٢ ص ١٧٥ (١٩٦٢) ·

ويعود البارودى من حلوان الى داره (بغيط العدة) بباب الخلق فى صيف ١٩٠٠ ، فيصبح منتدى الأدباء والشعراء وذوى المكانة . يأتون فيأنسون اليه ويأتنس بهم ، ويستمتعون بحديثه ، ويستمع الى انشادهم ومناقشاتهم . ويرى فى مجالستهم ما يأسو جراحه ، التى أدمت قلبه طوال سنوات النفى العجاف وكان على رأس رواد ندوته اسماعيل صبرى وأحمد شوقى وخليل مطران وحفنى ناصف وحافظ ابراهيم ومحمد ابراهيم هلال وحامد خلوصى وحسن حمدى وعبد المحسن الكاظمى ومصطفى صادق الرافعى من الشعراء والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا (١) من العلماء . (٢) وعبده الحمولى ومحمد عثمان من أهل الفن . وغيرهم من رجال الفكر والعلم وعشاق الأدب .

وفى هذه الندوة أخذت مدرسة المحافظين فى الشعر العربى ترسى قواعدها . تمد ينابيعها الى الأمة العربية كلها ، وتحول الشعر عن أبواب البلاط ، وتطلقه من قيوده الى الفسيح من الأجواء والأغراض .

ويلتقى فى الندوة الزعيم بالرواد والأستاذ بالحواريين ، وكلهم يرنون اليه ، فقد كان زعيم النهضة الشعرية التى تحملهم على جناحها فيقرون له بالفضل أن مهد لهم الطريق . فأنقذ الشعر من عثرة الأساليب الركيكه . ورد اليه الروح العربية التى تعيش فى كياننا وأحاسيسنا وبث فيه الحياة — حياة نفسه وروح عصره وقومه . فحال بين الشعر والسقوط الذى كان يهوى الى دركه . وقدم للأمة العربية شعرا ملك عليها القلوب والأسماع بجزالته ونصاعته وبهجة الديباجة فيه . تنبعث منه الروح العربية الخالدة ، وتظهر فيه الشخصيه القومية البارزة .

---

(١) المنار مجلد ٧ جزء : ديسمبر سنة ١٩٠٤ .

(٢) انظر الشوقيات المجهولة جـ ٢ ، صفحة ٤٦ .

كان رواد المدرسة ينهلون من شعر البارودى ومنبعه الأصيل قبل أن يعود وبعد أن عاد ، ثم تنفرد بهم شخصياتهم الأدبية ، فيسلك كل منهم السبيل الذى تدفعه اليه ملكته واستعداده ، وتهديه اليه بيئته وثقافته ، لكنهم جميعا كانوا يلتقون عند المصدر والمنبع فى «مدرسة المحافظين» تلك التى حافظت على تقاليد الشعر العربى فى المنحى والأسلوب ، من شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ونصاعة التركيب ومتانة النسيج ·

وفى أصيل يوم الاثنين الثانى عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٤ وقفت ربة الشعر حزينة كئيبة تعزف لحنها الجنائزى والبارودى يسلم روحه لبارئها ، وودعته وداعها الأخير ، بعد رفقة دامت نصف قرن وخرج مشهده فى الثانية بعد ظهر الثلاثاء ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٤ من داره بباب الخلق وأم المصلين الشيخ الامام محمد (١)عبده وجاء الناس من كل حدب وصوب ، يودعون البارودى الوداع الأخير · ويشيعون جثمانه ، يتقدمهم عشاق فنه وشعره ، وعارفو فضله وجهاده الوطنى وتلاميذه ومريدوه من الشعراء وعلى رأسهم اسماعيل صبرى ·

وفى صباح يوم الأربعاء توافد جمهور كبير من الشعراء والأدباء على اختلاف الطبقات والمراتب عربا وفرنجا الى مدفن البارودى بالامام الشافعى ، وتقدم الشعراء والخطباء تباعا يقدمون الى الجدث الطاهر تحية الفناء الى البقاء ، ونبهوا الأصداء النائمة حوله فى بهو السكون الخالد بتعديد مآثره وترديد ذكره · والقى اسماعيل صبرى قصيدة عصماء ، ولكنها بالأسف لم تصلنا ولم تنشر فى ديوانه ·

---

(١) المقطم ، المؤيد ١٤/١٢/١٩٠٤ ·

الخاتمة

لعل الكاتب في هذا البحث ، قد وفق بعض الشيء ، في اماطة اللثام ، عن شخصية الشاعر الكبير والقاضي النزيه اسماعيل صبري ، وكشف للجيل الحاضر ، بعض ما كاد أن يغلله ستار النسيان ، عن اثاره الأدبية والوطنية والاجتماعية .

والأشعار التي جاءت في هذا الكتاب ، مأخوذة جميعها من ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٨ ، وهذا الديوان لا يشمل جميع ما نظمه الشاعر من شعر ، لأنه لم يكن معنيا بجمع أشعاره وطبعها في حياته ولذلك ضاع الكثير منه . الأمر الذي حجب قدرا كان سيفيدنا في هذه الدراسة وهو الوحيد من أقطاب المدرسة التقليدية للشعر الحديث وهم البارودي وحافظ وشوقي وصبري ومطران الذي قال الشعر لنفسه ، دون أن تفرضه عليه الظروف . كما كان الشاعر الثاني في هذه المدرسة ، الذي تهيأت له الظروف بحكم ثقافته العالية ، ومكانته الاجتماعية المرموقة ، ليصل الى مركز الوزير بل ليصبح رئيسا للوزراء ولكن وطنيته العالية منعته أن يهادن الاحتلال البريطاني أو يسير في ركابه . لذلك لم يظفر بشيء منها ؟؟ ..

امتاز شعره في الغزل والوطنية والتصوف ، كما لم يمنعه

مركزه القضائي الكبير من أن يسهم ولو بقدر متواضع في رفع مستوى الأغاني في عصره .

وقد آزر المصلح الاجتماعي الكبير قاسم أمين في دعوته لتحرير المرأة ، والامام الديني الكبير محمد عبده في دعوته الاصلاحية الدينية والاجتماعية .

وتعتبر شخصية الشاعر اسماعيل صبري من الشخصيات المثالية في العصر الحديث ، لا باعتبار مواهبه الأدبية فحسب بل بانسانيته وامتيازه الخلقي ، فكان نسقا فريدا في الصفاء والوفاء والمروءة ، فما كان يطوى صدره على ضغينة ، ولا يحرك لسانه بنقيصة ، ولا يقبض يده عن معروف ، ولا يعقد ضميره على عذر ، فلم تدع له هذه الصفات السامية النادرة عدوا لا في نفسه ولا في الناس فعاش ما عاش وادع البال في سلام الحب وأمان الصداقة ...

ولما عاد محمود سامي البارودي من منفاه بسيلان عام ١٨٩٩ ، كان أول من خف لاستقباله وتهنئته وظل ملازما له حتى مات في ١٩٠٤/١٢/١٢ .

فتح أبهاء قصره في شارع القصر العيني لاستقبال الأدباء والكتاب والشعراء ، الكبار والناشئين ، ينعمون بعطفه ، ويتفيأون ظلال كرمه وحبه وعطفه وكم قضى بصالونه الأدبي من حاجات ، وكم ارقأ من دموع ، وكم جبر من كسور وضمد من جراح ، فلهجت الألسنة بذكره واستفاضت أخباره في كل الأنحاء .

كانت حياته ونشاطه في ميدان القضاء واجتهاداته في ميادين الوطنية والعلاقات الاجتماعية وأمجاده الأدبية كلها خالصة لوجه الله والوطن .

المراجع

ديوان اسماعيل صبرى

تأليف أحمد الزين المطبوع عام ١٩٣٨

كتاب الأدب الحديث

للأستاذ عمر الدسوقى

شعراء الوطنية

لعبد الرحمن الرافعى

مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية

لعبد الرحمن الرافعى

محمد فريد رمز الاخلاص

لعبد الرحمن الرافعى

حافظ وشوقى

الدكتور طه حسين

ثورة الأدب

محمد حسين هيكل ص ٦٥

أحمد رامى

دكتورة نعمات أحمد فؤاد ـ ص ٩

شعراء مصر وبيئاتهم

عباس محمود العقاد

عصر اسماعيل جـ١

عبد الرحمن الرافعى

عصر اسماعيل جـ٢

عبد الرحمن الرافعى

الشعر والفلسفة

مقال حسن لطفى المنفلوطى : مجلة الكتاب عدد يوليو سنة ١٩٥٠ ص ٥١٣

اتجاهات الشعر العربى

مجلة الكتاب ـ مجلد ٤ السنة الثانية أكتوبر سنة ١٩٤٧

جريدة المؤيد

مقال على يوسف ١٨٩٩/٩/١١٦

الشوقيات المجهولة

محمد صبرى جـ٢ ص ١٧٥ طبع سنة ١٩٦٢

محمد عبده

تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ١٢

مجلة ابولو

عدد سبتمبر سنة ١٩٣٤

احمد شوقى

تأليف د ماهر حسن فهمى

محمود سامى البارودى

د على الحديدى

حافظ ابراهيم

دكتور سامى الدهان ـ مجموعة اقرأ رقم ١٢٠

احمد حسن الزيات

وحى الرسالة جـ١

مجلة صدق الاخاء

رئيسها حسن عزت ـ عدد يوليو سنة ١٩٠٨

مذكراتى فى نصف قرن

أحمد شفيق باشا

مصر للمصريين

سليم نقاش

الثورة العرابية

عبد الرحمن الرافعى

المعلوم والمجهول

ولى الدين يكن

ذكرى مصطفى كامل الثالثة عشرة

على فهمى كامل المطبوع سنة ١٩٢١

ديوان الشاعر

حافظ ابراهيم

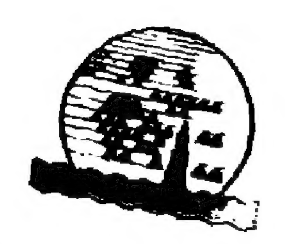
ديوان الشاعر

خليل مطران

ديوان الشاعر

أحمد شــوقى

فهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٧٣١٧

ISBN – ٩٧٧ – ٠١ – ٠٥٢٤ – ٤